

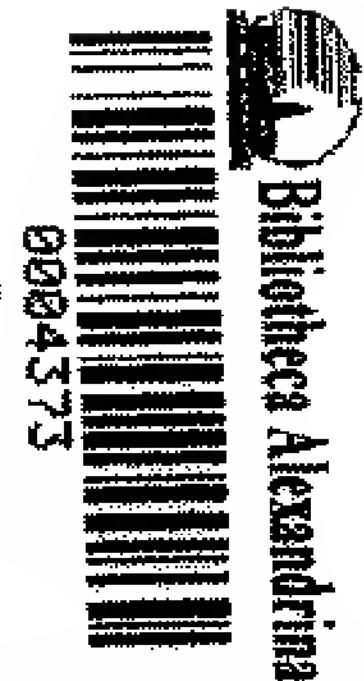
المستشرقون مشكلات الحضارة

دكتورة غفاف صبره

مدرس تاريخ العصور الوسطى
كلية الدراسات الانسانية - فرع البنات
جامعة الأزهر

١٩٨٥

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر والتوزيع



المُسْتَشْرِقُونَ مَشْكَلاتُ الْحَضَارَةِ

دكتورة عفاف صبره

مدرسة تاريخ العصور الوسطى
كلية الدراسات الانسانية - فرع اللغات
جامعة الأزهر

١٩٨٥

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر والتوزيع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

احتلت قضية الاستشراق والمستشرقين ، أهمية خاصة بين قضايا العصر ، تجلت في اهتمام جميع علماء العالم الاسلامي بها ، محاولين تتبع مسارها ، والتحقق من كل مايكتبه المستشرقون في مؤلفاتهم ، وما يقدمونه للفكر الانساني .

ويعتبر الدين الاسلامي والحضارة الاسلامية من أهم الموضوعات التي شغلت أذهان المستشرقين ، والتي بذلوا فيها كثيرا من الجهد والعمل الدائب في سبيل دراستها ، ومناقشتها وتحليلها .

وفد اختلف المستشرقون الذين كتبوا عن الاسلام في اهدافهم ودوافعهم ، ووسائلهم وميولهم ، حتى أصبح من المسلم به ، التفاوت والاختلاف في كل ما ألفوه وكتبوه ، وأصبح لزاما على كل فرد مسلم واع أن يهتم بهذه الكتابات ، وأن يخضعها للبحث والدراسة والتحقيق ، حتى يكشف النقاب عن حقيقة الأغراض التي دفعت هؤلاء المستشرقين الى الكتابة عن الاسلام ، ويرفع الشبهات التي يحاولون بها تشويه الاسلام ودرس الدسائس والأباطيل عليه .

حقيقة أن الاسلام لا يحتاج الى ايضاح ، ونبي الاسلام لا يحتاج الى دفاع ، فما كانت الحقائق العليا ، والفضائل السامية بحاجة ابدا الى من يدافع عن وجودها ، ويتحدث عن آثارها ، ويعلن عن فضلها وقدرها، فذلك من شأنه أن يجور على مقامها ويهون من شأنها بما يوقع في النفوس من انها في خفاء يحتاج الى بيان ، وفي وجه تهمة تحتاج الى دفع ودفاع ، ولسكن غايتنا أن يعرف للانسان قدره ، وللعقل مكانه ووزنه في انسانية

الإنسان ، وفى إعطائه معنى الإنسانية الأمر الذى يدعو كل ذى عقل أن يحرص على عقله حرصه على الحياة ذاتها .

ونظرا لأهمية هذا الموضوع ، فقد رأيت أن يكون لى شرف المساهمة بنصيب فى الكتابة فيه ، محاولة ، قدر جهدى ، أن استوضح كثيرا من النقاط ، وإن أرد الشبهات .

وإذا كان هذا الموضوع قد تعرض لدراسات مستفيضة ، ولجهود كثيرة من قبل العلماء الاجلاء الذين بذلوا الطاقات فى سبيل الوقوف فى وجه الحائدين على الاسلام ، عاملين على ابراد الحقائق ، ورد الباطل، كذلك رأيت أن اسير على الدرب ، حيث ان المستشرقين لم يوقفوا عن كتاباتهم ، ولم تتغير أهدافهم ومصالحهم ، والحملة على الاسلام ، وحضارة الاسلام مكثفة فى أيامنا هذه — التى سادت فيها الحضارات المادية والفلسفات الالحادية — فما أحوشنا فى هذه الظروف الصعبة الى مثل هذه الدراسات من أى وقت مضى .

وقد حاولت أن استعرض فى هذا الموضوع نشأة الاستشراق فى الغرب والأسباب التى جعلت النزعة الى الاستشراق تزداد هناك الى الدرجة التى نراها الآن .

وقد أثبتت هذه الدراسة أن الباعث الدينى كان من أهم البواعث التى دفعت الغرب الى الخوض فى مجال الدراسات الشرقية ، محاولين بذلك التنفيس عن عدائهم للاسلام — هذا العداء الذى يرجع الى قرون مضت منذ أن بزغ نور الاسلام على العالم على يد أشرف الرسل محمد صلى الله عليه وسلم .

ظل الصراع بين الشرق والغرب طوال التاريخ الاسلامى صراعا لاهوادة فيه ، فقد ظل السلاح مرفوعا بين الطرفين طوال التاريخ الاموى والعباسى ، بل لحل الدور الذى قامت به بلاد المغرب الاسلامى — سواء فى المغرب أو الأندلس — لا يقل عن غيره بل يزيد .

استمر الصراع بين الطرفين حتى اتخذ صورة حملات صليبية مكثفة قام بها الغرب ضد الشرق ، محاولا تحقيق أهدافه السكبرى وعلى التضاء على الاسلام .

واذا كانت الحرب والسلاح هما الوسيلة التي اتخذها الغرب للتعبير عن حقه على الاسلام ، فانهم قد استخدموا سلاحا آخر لا يقل خطورة وهو سلاح الكلمة المكتوبة الموجهة .

لذلك بدا هؤلاء المستشرقون كتاباتهم عن الدين الاسلامي ، وعلومه المختلفة ، وعن نبي الاسلام وحياته محاولين قسدر جهودهم ان يشوهوا الصورة السكريمة التي رسمها الله سبحانه وتعالى للاسلام ونبي الاسلام .

واذا كنت قد بينت في هذه الدراسة اختلاف اغراض المستشرقين ، فاننا لانفسى في هذا المجال ان نضع الحق في نصابه ، وان نذكر ان من هؤلاء فئة محايدة ، جعلت العلم والحقيقة هدفها ، فكتبوا بأمانة علمية مطلقة ، وذكروا الحقيقة مجردة ، فكانوا شاهدا على عظمة الاسلام .

وكان منهجى في الدراسة اعطاء كل ذى حقيقته ، انصاف المنصفين ، والرد على الضالين ، عسى ان يحقق مانصبو اليه من اهداف في هذه الدراسة .

وقد رايت الا احدد موضوع كتابى بالكلام عن المستشرقين والاسلام ولكن استكمالا للفرض رايت ان ابين كثيرا من المشاكل الحضارية التي اترت تأثيرا مباشرا على مجتمعنا الاسلامي بشتى الصور ، سواء في الاخلاق او الدين والمعتقدات او العادات والتقاليد ، مما كان لها اسوا الاثر على الفرد المسلم .

فقد جعلت دراستى للمشكلات الحضارية تقوم على اساس عرض للمشكلة الحضارية ايا كان نوعها عقائدية ام اقتصادية ام اجتماعية ، ثم ابين ماهيتها ونشأتها ، ثم كيف تسربت الى المجتمعات الاسلامية ، وماهى

الإنار السيئة التي تركتيا على المجتمع ، ثم أتعرض لموقف الإسلام من هذه المشكلات حتى نستطيع أن نبين للفرد المسلم الحق من البساطل لنير له الطريق .

وانتي اذ اقدم هذا الكتاب الى القارئ المسلم — ادعوا الله جل وعلا ان يوفقنا جميعا للعمل على خدمة الاسلام ، وأن ييسر لنا السير في الطريق المستقيم : وان يكلل أعمالنا بالحق والصواب .

« ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة »

صدق الله العظيم .

المؤلفة

د/ عفاف سيد صبرة

القاهرة / ١٩٧٩ م .

الفصل الأول

التطور التاريخي لنشأة حركة الاستشراق

بداية ظهور حركة الاستشراق في الغرب

يكون المستشرقون الغربيون بالنسبة للشرق الاسلامي مشكلة ثقافية ودينية كبرى ، وهذه حقيقة لا بد من الاعتراف بها اعترافا صريحا كاملا ، ثم مواجهة المشكلة ودراسة دراستها جديدة . ونحدد موقفنا ازاءها تحديدا دقيقا .

فالامر يتصل اتصالا وثيقا بالمحافظة على قيمنا ، وصيانة تراثنا من العبث وسوء التصوير ، وربما كان من الخطأ فيما مضى أن ننجاهل وجود المشرقين وأن نفرض الطرف عن نشاطهم ومؤلفاتهم ومؤتمراتهم ، ولكن افكارهم غثها وتمييزها ، صحيحها وسقيمها ، قد تسربت فعلا الى اجسواء البلاد الاسلامية ، واحتلت عقول الناس فيها ، واكتسبت منهم انصارا ودعاة وناسرين ، ولهذا لم يبق لنا عذر في الاستمرار في سياسة التغسيف والتجاهل السابقة الذكر ، واصبح من الواجب المحتوم أن ننهض دون توان أو تردد لدراسة هذه الحركة دراسة علمية ناحصة ، وأن نبين اهدافها حتى نكون على بينة من كل ما يكتب وما يقال عنا وعن بلادنا ، وعن تاريخنا ، فان كان حقا قبلناه ، وان كان باطلا رددناه .

والمستشرقون اصطلاح واسع يشمل طوائف متعددة تعمل في ميادين الدراسات الشرقية المختلفة ، فهم يدرسون العلوم والفنون والآداب والديانات والتاريخ وكل ما يخص شعوب الشرق مثل الهند وفارس والصين واليابان والعالم العربي وغيرهم من أمم الشرق .

وبإدء ذي بدء لابد أن نلقى نظرة سريعة على تطور العلاقات بين الشرق والغرب أو بمعنى أصح بين المسيحية والاسلام ، ثم نبين الاسباب التي دعت الغرب الى الاقبال على الحضارة الاسلامية ودراستها ، وبيان نوعية الحضارة التي ازدهرت في بلاد الشرق ، ثم كيفية عبورها الى الغرب الاوربي ، واقبال العالم الغربي عليها ، وانشائه للمدارس والجامعات والمراكز الثقافية المختلفة التي اهتمت بعلوم الشرق .

العلاقات بين الشرق والغرب :

يهيمننا في أمر هذه العلاقات العلاقة بين الإسلام والمسيحية : وهو ما يهم بحثنا . فالمعروف أن الإسلام الذي برزغ نوره في شبه الجزيرة العربية على يد أشرف الرسل محمد صلى الله عليه وسلم صادف معارضة قوية من الديانة المسيحية التي انتشرت في بلدان الشرق والغرب .

لذلك بدأ الصراع بين الديانتين يأخذ طريقه إلى الظهور بعد استقرار الدعوة الإسلامية . في الدور المدني . وتأسيس الدولة الإسلامية في المدينة المنورة . هذه الدولة التي أمرها الله سبحانه وتعالى بتبشّر الدعوة ليس في إقليمها فقط بل في عالمها . لذلك بدأت تدق أبواب الدول المجاورة مستسلما فأرسلت كتبها ندعوهم إلى هذا الدين الجديد .

أرسل الرسول كتب الدعوة إلى كسرى فارس . وهرقل امبراطور الدولة البيزنطية والنجاشي في الحبشة والمقوقس عظيم القبط في مصر والحارث الغساني . ولما لم يؤت هذه الدعوة نمارها اضطر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينفذ أمر ربه وأن يخرج بدعوته عالميا .

لذلك خرجت القوات الإسلامية — بعد انتقال الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى — إلى ملاقاتة الدول العظمى فخرجت الجيوش إلى الميدانيين الفارسي والرومي فبدأت بالعراق فظلت الدول الفارسية تنساقط حتى انتهى ملك كسرى ، واستولى المسلمون على جميع بلاده وممتلكاته ودانت الأرض لهم .

وفي ميدان الروم سقطت ولايات الشام ، ومصر وشمال إفريقيا في حوزة المسلمين ، فبذلك تضعف ملك الروم ، وفقدوا أهم ولايات لهم في الشرق ، هذه الولايات التي كانت تعتبر المورد الاقتصادي الهام ، حيث كانت تمدهم بالغلل والحبوب . خاصة القمح . كما أن بلاد الشام بالذات تمثل أهمية كبرى عندهم لأن بها كنيسة القيامة المقامة في القدس ، والتي شيدها القديسة هيلانة ام الامبراطور قنسطنطين الكبير في القرن الرابع الميلادي ، كما كان يوجد بها صليب الصلبوت وهو أهم أثر مسيحي

عندهم في الشرق . وكان المسيحيون يحجون الى القدس ويزورون كنيسة
التيامة . فضياع القدس وتسلم المسلمين لها ، جعلت قضية الصراع بين
الإسلام والمسيحية قضية سياسية وعقائدية فلذلك بدأ الصراع يأخذ اشكالا
، خلفه بن الجانبين . كل منهما يحاول ان يخضع الآخر لنفوذه .

الصراع بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية :

تجاورت الحدود الإسلامية البيزنطية . بعد انتقال مركز الخلافة
الإسلامية من المدينة المنورة الى دمشق في عصر الدولة الأموية . فكان لابد
من حدوث صدام مستمر بين الجانبين ، فلم تتوقف الحملات التي كان يبعث
بها الأمويون محاولين إسقاط القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية ،
خاصة في عهد معاوية بن أبي سفيان الذي كثرت في عهده السسواتي
والصوائف التي أعدها لمحاربة البيزنطيين ، كما كثر المرابطون على الشغور
الإسلامية ، وتلا عهد معاوية في الأهمية عصر سليمان بن عبد الملك الذي
شهد المحاولة الكبرى لاسقاط القسطنطينية على يد أخيه مسلمة بن عبد الملك
٧١٧ — ٧١٨ م ، ولكن الفشل حاق بهذه الحملة كما حاق بسابقتها نتيجة
سوء الأحوال الجوية وعدم تعود المسلمين على العيش في مثل هذه الظروف
الطبيعية ، الى جانب التقدم الحربي البيزنطي واختراعهم للنار الإغريقية التي
أتت على سفن المسلمين .

ولم يؤد سقوط الدولة الأموية في دمشق وانتقال العاصمة الإسلامية
الى بغداد الى توقف عمليات الصراع بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية
نقد حاول البيزنطيون استغلال الظروف السياسية الموجودة في الدولة
الإسلامية من سقوط الأمويين ، واعتلاء العباسيين الخلافة ، فأخذوا يمدون
نفوذهم في آسيا الصغرى وأرمينيا ، ولكن العباسيين وجهوا نظرهم تجاه
الدولة البيزنطية ، وبعثوا بحملات كان النصر فيها حليف المسلمين وقد
تركزت الحملات في عهد الخليفة المهدي الذي وصلت الجيوش في عهده
الى حدود القسطنطينية ، وأوتعوا بالجيوش البيزنطية خسائر مادية تدرها
المؤرخون بأربع وخمسين ألف قتيل وخمسة آلاف أسير (١) .

(1) Finlay «History of The Byzantine Empire» pp. 140—117.

كما برز الصراع بين الدولتين في عهد هارون الرشيد الذي وصلت حملته الى آسيا الصغرى . واستولت على كثير من الثغور البرية على الحدود بين الدولتين . وكذلك في عهد المأمون الذي واغته منيته وهو متوجه على رأس حملة الى طرسوس (٢) . وفي عهد المعتمد خرجت حملة كبرى لتأديب البيزنطيين ، وتوجه في اعماق آسيا الصغرى فاستولى على انقرة ، وهرقلة (٣) ، مما اضطر الامبراطور البيزنطي ثوميلس ٨٢٩ — ٨٤٢ م الى الاستنجاد بملوك اوربا فاستغاث بدوج اليانثية وملك الافرنج وبالامويين في الاندلس وحقق المعتمد على البيزنطيين نصرا عظيما في عمورية .

ولم تنتطع المناوشات بين المسلمين والبيزنطيين بعد المعتمد ، بل استمرت القارات من الجانبين ، واستمر ضغط المسلمين على حدود الدولة البيزنطية متمثلا في غزوات دورية . وكانت هذه الغزوات عاملا على العناية بالثغور والأربطة حيث كان يربط المجاهدون في سبيل الله استعدادا للغزو ولدافعة الأعداء (٤) .

ثم حدثت جولة ثانية في الصراع مع الدولة البيزنطية في عهد بني حمدان امراء حلب ، وذلك منذ منتصف القرن العاشر الميلادي .

وبدا الخطر الحقيقي يقيق بالدولة البيزنطية على يد السلاجقة الذين أخذ قرع منهم يتوغل في آسيا الصغرى ويستوطن بها ومن ثم سسموا بسلاجقة الروم ، وكان من جراء هذا الخطر أن استنجد البيزنطيون بالصليبيين وكان ذلك من اسباب الحروب الصليبية .

ثم ظهر الاتراك العثمانيون على مسرح التاريخ فتضوا على السلاجقة، واستولوا على القسطنطينية نفسها سنة ١٤٥٣ م ، وبذلك قضى نهائيا على الدولة البيزنطية .

(٢) ابن الاثير « الكامل » ج ٦ ص ٧٦ .

(٣) ابن الاثير « الكامل في التاريخ » ج ٦ ص ١٥٤ .

(٤) حسن الباشا « دراسات في تاريخ الدولة العباسية » ص ٩٥ .

الحروب الصليبية :

تعتبر الحروب الصليبية حلقة جديدة في سلسلة حلقات الصراع العقائدي بين الاسلام والمسيحية .

والحروب الصليبية هي تلك الحملات التي قام بها الغرب المسيحي على الشرق الاسلامي مستترا بقتناع الدين لاسترجاع الاراضي المقدسة وكنيسة القيامة ، راغبا في الحصول على خيرات الشرق والتحكم فيه ، بل هو محاولة مبكرة للترعة الاستعمارية .

ويحدد المؤرخون الفترة من ١٠٩٥ — ١٢٩١ م تاريخا للحملات الصليبية ولكن الواقع كما ذكرنا ان الصراع الاسلامي المسيحي كان اقدم من ذلك بكثير . فما ذكرناه من الصراع مع البيزنطيين ومحاولتهم هدم الاسلام في الشرق ما هو الا حروب صليبية ، وما قام به الفرنجة في الغرب ضد مسلمي الاندلس خاصة شارل مارتل وشارلمان ، وما صورته انشودة رولان من صراع اسلامي مسيحي ووصف المسلمين بأنهم كفرة ، وسوء تصسيير الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم . كل ذلك يبين على ان هذه الحروب كانت ذات طابع صليبي ، الى جانب ما قام به بابوات الغرب وحكامه في القرنين التاسع والعاشر لصد الغارات الاسلامية على شسواطيء أوروبا (٥) .

والمهم في امر الجوود التي بذلها المسيحيون في حرب المسلمين هو انها اتسمت بالطابع الديني ، فدعا اليها رجال الدين ، وتعهدها البابوات برعايتهم مما جعل فكرة الحروب الصليبية تنشأ في اول امرها مرتبطة بمبدأ محاربة المسلمين ودفع خطرهم أينما كانوا (٦) .

لذلك فان العلاقة الحربية بين الاسلام والمسيحية طوال هذه الفترة وسعت فجوة العداء بين المسلمين والمسيحيين ، وجعلتهم يعملون ما في

(5) Runcimen. A, history of the Crusade. Vol I P. 88.

(٦) سعيد عاشور « أوروبا العصور الوسطى » ج ١ ص ٤٢٦ .

فى وسعهم لنشر الفكر المسيحى وتشويه سمعة الاسلام والمسلمين فى جميع
، مؤلفاتهم ، خاصة الكتابات التاريخية .

والدليل على ذلك ان جميع مؤلفات هذه الفترة تصف المسلمين بأنهم
« الكفرة » « والمراسنة » وكانت تلصق بهم أبشع التهم وأسوأ الفعال ،
وكتب الحروب الصليبية كثيرة ومملوءة بهذه المعانى ، وهى تعبر عن حقد
دفين بين الطرفين .

هذه هى طبيعة العلاقات بين الشرق والغرب فى فترة الحروب
الصليبية ، فهل من المعقول ان ننتظر ان تكون كتابات المستشرقين فى هذه
الفترة فى صالح الاسلام ؟؟ فالحقيقة التى لا مفر منها ان هؤلاء الغربيين
بدأوا ينغسون عن حقدهم فى كل ما يكتبونه من مؤلفات .

وبدا حكام الغرب بعد هزيمتهم فى الشرق يتلقفون أية ذكوة تستخدم
اغراضهم للذيل من الشرق وزرعته ، وقد الفوا فى عمل المستشرقين فرصة
ذهبية لتحقيق ما فاتهم وضاع منهم فى بلاد الشرق ، فأخذ الملوك يرعون
نشاط المستشرقين ويمهدون أمامهم طريق دراسة الشرق والإحاطة بترائه
العلمى على اختلاف أنواعه (٧) .

وقد ذكر الكونت فيليب دى طرازى فى الجزء الثانى من خرائته « أن
فى مكتبة السير بلبشان مخطوطة من كتاب « وفيات الاعيان » لابن خلكان على
هامشها حاشية بقلم أبى النصر الخازن قنصل فرنسا فى بيروت فى منتصف
القرن السابع عشر خلاصتها أنه فى سنة ١٦٧١ م أرسل على الجسساب
الملك لويس الرابع عشر رسالة الى جميع بلدان الاسلام لشراء المخطوطات
الاسلامية « لا معنى له سوى الدراسة المفرضة ، وطعن الاسلام طعنة نافذة
عن طريق عرضه فى صورة مشوهة (٨) .

الاستعمار الحديث :

تعاقبت على الدولة الاسلامية حكومات متعددة ، وظروف مختلفة
أدت الى تخلف هذه الدولة ، والى جمودها واعادتها الى الوراء هذا فى

(٧) محمد الدسوقي « الاسلام والمستشرقون » ص ٢٣ .

(٨) منير البعلبكي « دفاع عن الاسلام » ص ٤٥ .

الوقت الذى استطاعت فيه أوربا أن تنفض عن كاهلها جهالة العصور الوسطى ، وعصر سيطرة الكنيسة الكاثوليكية والبابوية على عقلية الناس ، وبدأت تغتفر من الحضارة الإسلامية ، وتعمق وتؤلف وتزيد وتبتكر حتى وصلت إلى مرحلة النهضة الأوروبية العظمى التى شهدتها فى القسرين الخامس عشر .

وبعد أن وصلت أوربا إلى هذه المرحلة من النضج والاكتمال فى شتى المجالات بدأت النظر إلى العالم الإسلامى الذى أصابته هذه النكسة السياسية والحضارية ، لتفنى عن حقدتها القديم ، ولتعيد مرة أخرى سلسلة من مراحل الصراع بين الشرق والغرب بعد أن شعرت أن الظروف فى صالحها .

وقد بدأت المنافسة بين كل من إنجلترا وفرنسا وما وافى القرن التاسع عشر حتى اتسعت رقعة الإمبراطورية البريطانية وبلغت حدا لم يعرف لغربها فى التاريخ ، وفيه أخذت كل من ألمانيا وإيطاليا بنصيب فى الاستعمار ولم ينهيا دخلا هذا الميدان متأخرتين بالنسبة لظروفهما الخاصة .

وقد اختلطت الأهداف الكبرى من وراء تشجيع رجال الدين للسياسة الأجانب لاحتلال بلاد الشرق التى تحوى المقدسات الدينية ، بموضفين الخسائر التى منى بها الغرب مرارا وتكرارا فى اعتدائه على الشرق خاصة فى فترة الحروب الصليبية . لذلك وجدت أهداف أخرى لاستعمار القرب للشرق أهمها إيجاد أقاليم جديدة تصلح لسكنى عدد وفير من الميسسكان الزائدين عن حاجة البلاد الأصلية ، ثم فتح أسواق جديدة متعددة لتصريف البضائع المتراكمة الناشئة عن التقدم الصناعى فى هذا العصر ، وكذلك أعداد مراكز لاستخراج المواد الأولية التى تحتاج إليها البلاد الصناعية ثم الغة من الاستلاء على جهات معينة بقصد تأمين طرق المواصلات كاحتلال إنجلترا لمصر . هذا إلى أن كثرة الاستكشافات فى أفريقيا وآسيا وأستراليا فى هذا العصر نبهت دول أوربا إلى هذه الجهات المجهولة واستغزتها طمعاها لوضع يدها عليها ولا سيما أن فكرة تكوين إمبراطوريات واسعة كانت قد تملك عقول معظم كبار السياسيين فى القرن الماضى (٩) .

(٩) محمد عبد الرحيم مصطفى « تاريخ مصر الحديث » ص ٢٠٩

وقد انتجز الاستثمار الاوربي مرحلة تواجدته بين ظهرائى الشعب الاسلامى وبدأ يعمل على نشر حضارته العلمية والعملية فى بلدان الاسلام، مما جذب اهل هذه البلاد وجعلهم يتهافون على هذه الحضارة متغافلين عما تحمله فى طياتها من سموم .

واكثر الغربيون من انشاء المدارس التبشيرية والمكتبات واصدار الدوريات التى تعبر عن آرائهم وتذيع افكارهم ، وكانوا يراعون فيها جمال الاخراج وجودة الطباعة لتجذب الأنظار وتستترعى الانتباه ، وقد أصبح لهذه الدوريات مكانتها الملحوظة ، واثرها البارز فى عالم التربية والثقافة، ولم يقتصر نشاطهم على اصدار الدوريات ، بل قاموا بكتابة الأبحاث المعقدة فى كل ما يتصل بالشرق ، وبنلوا فى هذه الأبحاث الجهد والمال والوقت وكل همهم صرف انظار المسلمين عن قرائيم والاتجاه نحو هذه الدراسات والاعتماد عليها فى معرفة تاريخ المسلمين وعقائدهم حتى نفسلخ بمضى الزمن تاريخيا وعقائديا ونصبح غافلين ، روحا وفكرا (١٠) .

هذه هى طبيعة العلاقات بين الشرق والغرب ، العلاقات التى كان الدين دائما ، فى العصور الوسطى ، هو محركها ، ولكن بعد أن اصطبح الشرق والغرب بصبغة المدينة الحديثة بدأوا يبعدون عن هذا الهدف وبدأ يميز العلاقات بينهما فيما بعد علاقات من نوع جديد فيها مصالح مشتركة للطرفين .

- والمعروف أن الغرب الذى كان يسيطر عليه فى العصور الوسطى افكار الكنيسة فقط ورجال الدين ولم يميز ثقافتهم غير هذا الفكر اللاهوتى ، بدأ يحتك بالشرق عبر سبل ومعايير معينة نقلت حضارة الشرق الى الغرب ، مما أدى الى اهتمام الغرب بدراسة علوم الشرق وآدابه وفنونه وساعد على نشأة حركة الاستشراق .

لذلك نرى أن معايير الحضارة هذه هى السبب الاول فى ظهور حركة الاستشراق وهذه المعابر هى الاندلس ، صقلية ، بلاد الشام وقت الحروب الصليبية .

(١٠) محمد الدسوقي « الاسلام والمستشرقون » ص ٣٤ .

١ — بلاد الاندلس :

بلاد الاندلس اهم معبر للحضارة الاسلامية الى الغرب ، فبعد ان تم للعرب فتحها سنة ٩٢ هـ / ٧١١ م ظلوا قائمين فيها واصحاب سيادة عليها حتى تم سقوط دولة بنى الأحمر العربية الخزرجية في غرناطة ٨٩٧ هـ ١٤٩٢ م أي بعد نحو ثمانية قرون .

وقد راقبت للعرب الإقامة بالاندلس وظنوا انفسهم خالدين فيها . فغنموا في اتقان دورهم وتفسيق حدائقهم ، وشيد الامراء والخلفاء مؤسسات المساجد والقصور والابرار والحمائم والحدائق ، وادخلوا الى الاندلس الأساليب الزراعية التي عرفوها في الشرق ، وجاعوها بأشجار واغراس ازاهير من دمشق ومصر وافريقيا والهند وعنوا بالصناعات على اختلاف انواعها . حتى اذا تم لهم بناء الاندلس السياسي والاقتصادي والاجتماعي سعوا الى التشبه بالعباسيين في ارساء ملكهم على أسس من الفنون والآداب والعلوم ، فأسسوا المدارس وحبسوا الأموال عليها وخرجوا في طلب الكتب الى الشرق وملأوا مكتباتهم الخاصة منها ، ما خلا خزائن بعض المساجد (١١) .

ووفد على قرطبة ثم على غيرها من حواضر الاندلس اهل الفن والادب والعلم من الشرق والغرب وعنوا بتفاصيلها تفسيراً واقتباساً وتصنيفاً ، واختلفوا الى مجامع كمجامع اليوم للجدل والمناظرة .

يقول البارو القرطبي في كتابه الدليل المفيد : « وأقبل اهل مالقة على مد نفقات المسلمين في الادب والفقه والفلسفة تثقيفاً بثقافتها لا للرد عليها ، وبذلوا أموالاً طائلة في تأسيس مكتباتها ، وبنطبق قوله على المستعربين في الاندلس شاطبة ، الذين جروا على عادات المسلمين في نظام الحريم وختن الاولاد واتقان العربية واستعمال حروفها لكتابة اللاتينية . ثم على الخاصة النصاري وقد آثروا أسماء العرب ولغتهم وثقافتهم ، وفي طليعة هؤلاء رجال الدين فاختلطوا الى مدارس المسلمين ومجامعهم ومكتباتهم ، ثم قبعوا في أديارهم يفتحون ذلك التراث ويترجمونه ، ويقرئونه ويصننون فيه ويقيمونه بين الرهبان وطلاب العلم ، فينتشر انتشاراً سريعاً بفضل

(١١) نجيب العتيقي « المستشرقون » ج ١ ص ٨٨ .

(م ٢ — الاستشراق)

مدارسهم في اديار اريبول حيث تعلم الاب جرير وترجم الى اللاتينية من مخطوطات مكتبها المصنفات الرياضية والفلكية كالزيج المتصوري - وسان كوجات ، وسان ميليان وثيلانوا ، وسانر مدارس المستعربين في قرطبة (١٢) .

ومنذ القرن العاشر حملت الكاتدرائيات العبء الاكبر عن الاديار فذاقت شهرة مدارس : اوبيدو ، وليون ، وبيك ، وخيرونا ، وبرشلونة ، وسانتياجو دي كويوستيلا ، وقامت مثيلات لها في باريس وشارتر وأورليان وتور ولان وريمس وفي كبرى مدن ايطاليا وانجلترا وبلجيكا وغيرها ، ثم انشأ الرهبان الفرنسيون دير عكا ١٢٢١ م وعلم العربية فيه الاب روبرك ومدرسة ميرامار ١٢٧٦ م فاشرف عليها رايوند ولوليو خلال عشر سنوات وتعلم فيها العربية احد عشر راهبا . وقد عاون لوليو رايوند ومارتيني الدومينيكي واستأنف نشاطه دي ليرا الفرانسيكاني في القرن الرابع عشر وقرر مجمع طليطلة سنة ١٢٥٠ م الاتفاق على ثمانية من الرهبان الدومينيكيين على رأسهم رايوند ومارتيني خلا نفر من زملائهم أرسلوا الى باريس لتعلم اليونانية والعربية والعبرية فيها سنة ١٢٥٥ م ثم كفهم مجمع بلنسية ١٢٥٩ م تأسيس مدرسة للعربية والعبرية في قطالونيا سنة ١٢٦١ م وقد صنف أحدهم علوم الطرابلسي كتابا عن الاسلام .

وانتشرت مدارس الرهبان العربية في اشبيلية سنة ١٢٥٠ م وميورقة سنة ١٢٥٥ م وبرشلونة سنة ١٢٥٩ م وبلنسية سنة ١٢٨١ م ، وجانيفي سنة ١٢٩١ م وقد تطور بعض مدارس الكاتدرائيات الى جامعات ونالت على غرارها حقاها المعلوم في مساعدة البوابات والملوك .

وقد ظلت طليطلة طوال قرنين ملتقى طلاب العلم من انجلترا وفرنسا وايطاليا والمانيا يقدون عليها وينهلون من الثقافة العربية فيها ثم يرجعون الى بلدانهم فيذيعونها بين أهلها (١٣) .

ولم يقف رجال الدين والمثقفون عند الترجمة من العربية ، بل نقلوا

(١٢) انجيب المثنى « المستشرقون » ج ١ ص ٩٨ .

(١٣) المرجع السابق .

اليها وكتبوا وصنفوا فيها . كما ترجمت عن العربية بعض مؤلفات اليونانيين مثل كتب جالينوس وبقراط وأفلاطون وأرسطو وأقليدس وغيرهم . وقد وجد من حكم اسبانيا المسيحيين من قدروا الثقافة العربية الاسلامية ومن هؤلاء الفونس الخامس ملك قشتالة وليون (١٢٥٢ — ١٢٨٤ م) الملقب بالحكيم (١٤) فقد قام بإنشاء معهد للدراسات العليا في مرسية ، واختار له اعلام المسلمين والنصارى واليهود ثم نقله الى اشبيلية والحق به مجمعا علميا لمزج الحضارتين الاسلامية والمسيحية في حضارة اسبانية موحدة ، كما حافظ على طابع طليطلة في مركزها الثقافي العالي ، وجمع حوله العلماء وعهد اليهم بالترجمة بالتصنيف وكان يشرف بنفسه على التوجيه والتحرير والتلخيص ، فترجم الى الاسبانية الانجيل والقرآن والتلمود والقبالة وسر الاسرار المنحول لأرسطو ثم كتاب كيلة ودمنة .

وعبرت الثقافة العربية بفضل الرهبان ولا سيما المتحقيقين بدير كلوني واللاجئين الى فرنسا — جبال البرانس والألب الى فرنسا وإيطاليا وإنجلترا وألمانيا ثم استقرت في أشهر مراكزها .

٢ — صقلية وجنوب إيطاليا :

دخلت صقلية تحت حكم المسلمين بعد أن تمكن الأغالبية من الاستيلاء عليها سنة ٢٦١ هـ .

وقد تقايح الحكم الاسلامي على صقلية واستقرت الأوضاع فيها في القرن التاسع الميلادي ، لذلك بدأت هذه الجزيرة تحتل دورا هاما في الحضارة الاسلامية ، وأصبحت من أهم المعابر الحضارية الى أوروبا .

ولعل موقع صقلية جنوب إيطاليا قد جعلها قبلة للإيطاليين ، ومركزا للدراسات اللاتينية واليونانية القديمة ، فكانت مكتباتها تحتوى على عدد ضخم من الكتب والمخطوطات القديمة . الى جانب انتشار الاسلام والاستقرار الاجتماعى والاقتصادى واطراد العلاقات بين مدارس صقلية و مدارس العالم الاسلامي الأخرى ، ثم التلاحم بين التقاليد العربية والتقاليد

(١٤) سعيد عاشور « النهضة الأوربية » ص ٢٢٩ .

الإغريقية الجديدة التي ازدهرت في عهد البيزنطيين وكانت لا تزال قوية بشرق صقلية .

وكانت لصقلية صلات علمية وثيقة بالقيروان والاندلس والقاهرة ، ثم استقلت المدرسة الصقلية ، وكانت بلرم هي الحاضرة الثقافية أكثر البلاد امتلاءً بالمساجد والمدارس ، وقد كثر المعلمون حتى كان منهم في بلرم ما لا يقل عن ثلاثمائة .

وقد ظلت صقلية قلعة للحضارة الإسلامية طوال العصر الإسلامي ، وظل الحال كذلك بعد سقوطها في يد النورمان سنة ١١٤٤ هـ .

عندما أدخل النورمان صقلية وجدوها قلعة ثقافية وحضارية متقدمة في جميع المجالات الزراعية والصناعية والتجارية ، لذلك فقد كان ملوك النورمان على درجة كبيرة من الوعي ، فلم يسيئوا إلى هذه الحضارة ، ولم يقتلوا أمام تطورها بل أصبحوا هم عاملاً مساعداً على الاهتمام بالعلماء والأدباء ورجال الفكر ، وجعلوا من قصور أمارتهم كعبة يقصدها كل طالب علم .

وقد برز من ملوك النورمان ، الذين يعتبرون أول ملوك علمانيين في أوروبا ، شجعوا على حركة الاستشراق بعيداً عن العامل الديني ، وكانت تحذوهم الرغبة العلمية الحقيقية والحب لكل ما هو شرقي برز منهم روجر الأول (١٠٦١ — ١١٠١ م) الذي شمل العرب بعنايته ، وأحسن المحافظة عليهم وحمائيتهم ، بل كتب مراسيمه بالعربية إلى جانب اللاتينية واليونانية ، كما أن بعض نقوده اشتمل على رمز الإسلام والبعض الآخر علم شمس المسبحة (١٥) .

وبرز كذلك روجر الثاني الذي لقب بملك الصقليتين ١١٣٠ — ١١٥٤ م الذي ارتدى ملابس شيوخ المسلمين وكتب على حلة التوبيج عبارة بالخط الكوفي والتاريخ الهجري (٥٢٨ هـ / ١١٣٤ م) وشيّد المباني على الطراز

(١٥) سعيد عاشور « النهضة الأوربية » ص ٣٢٦ .

العربي : وعاون على تأسيس مدرسة الطب في سالونو ، وترك للعرب واليهود حريتهم الدينية والثقافية (١٦) .

أما أشهر شخصية في التاريخ الصقلي فهي شخصية الامبراطور فردريك الثاني الذي اشتهر اسمه في التاريخ كقائد للحملة الصليبية السادسة التي توجهت الى بلاد الشام .

كان فردريك الثاني مولعا بالثقافة الشرقية لأنه تربى في كنفها ، وهاض المؤرخون في وصفهم لحب فردريك للمسلمين واعجابه بحضارتهم وعلومهم وتقريبه لهم واستخدامهم في حاشيته حتى أن المؤذنين المسلمين كانوا يؤذنون للصلاة لكل فرض في معسكره (١٧) .

كذلك ذكر المقرئ أن فردريك كان « عالما متبحرا في علم الهندسة والحساب والرياضيات » (١٨) . والمعروف تاريخيا أن هناك صداقة قوية قامت بين سلطان مصر الأيوبي الملك الكامل ، وبين الامبراطور فردريك لشدة توافق طباعهما ، مما دفع بعض الكتاب الى اتهام فردريك الثاني بمخالفة الاسلام على حساب المسيحية (١٩) . لذلك فإن رعاية ملوك النورمان للحضارة الاسلامية وللعلوم الاسلامية ادى الى زيادة الاهتمام بالاستشراق وعلوم الشرق واصبحت صقلية بذلك اهم مراكز الاستشراق في الغرب الأوربي .

٣ — بلاد الشام زمن الحروب الصليبية :

تأتى بلاد الشام زمن الحروب الصليبية في الاهمية الثالثة بعد الاندلس وصقلية كمعبر من معابر الحضارة الاسلامية الى الغرب ، وكمؤثر في نشأة حركة الاستشراق في اوربا .

ولابد لنا من توضيح وجهة نظرنا هذه في ضوء الحقائق التاريخية .

(١٦) نجيب العتيقي « المستشرقون » ج ١ ص ١٠٨ .

(١٧) سعيد عاشور « الحركة الصليبية » ج ٢ ص ٩٩٦ .

(١٨) المقرئ « السلوك » ج ١ ص ٢٣٢ .

(١٩) سعيد عاشور « الحركة الصليبية » ج ٢ ص ٩٩٦ .

فالمعروف أن العلاقة بين الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية كانت عدائية مطلقة ، فالغرب يخطط عسكريا لفزو الشرق والاستيلاء على المنساق المقدسة ، وأحرار انتصارات عسكرية ، وكسب أراضي جديدة ومستعمرات ، لذلك فقد نقل إلى الشرق جميع الدبلوماسية العسكرية الغربية وفنون القتال المختلفة ، وما شاع في الغرب من بناء الحصون والقلاع والابراج ، وبدأ يأخذ من الشرق فنون الاستحكامات والخطط الحربية ، وبناء السلاسل والمخاضات .

وليس معنى كلامنا هذا أن التبادل الثقافي بين الطرفين انعدم في فترة الحروب الصليبية ، ولكن المعروف أن هذه الحروب كان يتخللها فترات هدن طويلة فخلال هذه الفترات كان الطرفان يعيشون في سلام مع بعضهم البعض إلى درجة أن بعض الفرسان الصليبيين قامت بينهم وبين الفرسان المسلمين علاقات مودة وصداقة مثلما حدث مع الأمير أسامة بن منقذ من قلعة شيزر وبين فرسان الصليبيين ، وقد دون أسامة بن منقذ في كتابه « الاعتبار » وصفا مفصلا لأخلاق الصليبيين وعاداتهم ووصفهم « بأنهم بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير » (٢٠) .

وقد أخذ الصليبيون عن أهل الشرق نظما زراعية كثيرة متقدمة فنقلوا إلى أوطانهم نباتات وحاصلات وأشجارا جديدة لم يعرفوها من قبل كالسمسم والخروب والذرة والارز والليمون والثوم (٢١) . وفي مجال الصناعة نقلوا صناعة الزجاج عن أهل صور حتى أن الإنتاج الصناعي الأوروبي ظهر بعد ذلك وعليه المؤثرات والتعبيرات الإسلامية (٢٢) ، وقد تعلم الغرب من الشرق طريقة الرسم بالحفر مما كان له أكبر الأثر في التطور العظيم الذي حدث في عصر النهضة الأوروبية كما تعلموا كثيرا من صناعة المنسوجات مثل صناعة الحرير والسكتان الذي اشتهرت به بلاد الشام (٢٣) .

(٢٠) أسامة بن منقذ « الاعتبار » ص ١٣٢ .

(٢١) باركر « الحروب الصليبية » ص ١١٧ ،

فيليب حتى « تاريخ العرب » ص ٢٠٤ .

(٢٢) كريستي « تراث الإسلام » ص ٤٧ .

(٢٣) جورج يعقوب « أثر الشرق في الغرب » ص ٦٢ .

واخذ الغرب عن الشرق صناعة السكر من القصب ، وصناعة الجلود والسروج وصناعة البسط والأثاث والصناعات المعدنية المراقية ، وصناعة الورق وتجليد الكتب والتصوير الاسلامي (٢٤) .

ومن الملاحظ ان الصليبيين قد تزيوا بارتداء المسلمين من عمامه وقفطان وشادوا بيوتهم على غرارهم ، واكلوا التوابل والسكر مثلهم ، واتخسفوا البواشق والخيول وكلاب الصيد لقنصهم ، ونقلوا عنهم اصطناع النشابة المصلية وتقلدوا الدروع والجبّة العسكرية قوسارات الفرسان والاوزمة ، والطنبور في الموسيقى العسكرية ، والحمام الزاجل لنقل اخبارهم واشعال النار احتفالا بالظفر ، وحفلات السيف ورمي الجريد ، واضافوا في المعمار الطراز الشامى البيزنطى الى النمط القوطى ، اى الشرقى المحور في بناء اديارهم وكنائسهم وقصورهم وفنائقهم وحماماتهم وأثشعوها بالرياش الشرقى (٢٥) .

أما عن المجال الثقافى فقد تعلم الصليبيون عن المسلمين اللغة العربية، واستعملوها لغة للتخاطب اليومي ، وحملوا معهم الى الغرب الكتب الملكى في الطب لعلى بن عباس الذى نقله اسطفان الانطاكى وهو من بيزا سنة ١١٢٧م وترجمته اصدق من ترجمة منسكططين الافريقى ، واضاف اليه كشافا يونانيا عربيا لاتينيا للمصطلحات التى استعملها ديوسقوريدس ، البندقية ١٤٩٢ وليون سنة ١٥٢٣ م) وقصة كأس العشاء السرى ، وكليلة ودمنة، ونأثر شوسر بألف ليلة وليلة ويوكاتشيوا بالخطابات الشرقية في كتابه ديكتامرون وعثر فيليب الطرابلسى في انطاكية سنة ١٢٤٧ م على مخطوط سر الاسرار بالعربية المنسوب خطأ الى ارسطو فترجمه الى اللاتينية فأضحى اكثر المتقولات تداولاً في العصر الوسيط (٢٦) .

وثمة نقطة هامة تفيدنا في الدور الذى قامت به البابوية في الغرب لنشر المسيحية بالطرق التبشيرية المختلفة ، بعد أن اميتها الوسائل الحربية

(٢٤) فيليب جتى « تاريخ العرب » ص ٢٠٤ .

(٢٥) نجيب العقيتى « المستشرقون » ج ١ ص ١٣٧ .

(٢٦) المرجع السابق ص ١٣٩ .

في هذا السبيل . لذلك فقد كان من نتائج الحروب الصليبية أن قامته البابوية بإرسال البعثات البعثية ليرى لنشر مبادئ المسيحية بين المسلمين وتنفيذ سياستها عن طريق الاقتناع بعد أن رأت الجهود والتضحيات التي بذلتها في الحروب الصليبية . وهدف أنها ضحت بالأموال دون أن تحصل على نتيجة واضحة . وكان أن بدأت جهود المبشرين للتبشير بالمسيحية بين المسلمين فوصل القديس فرانسيس إلى مصر سنة ١٢١٩ م . وقسم مواعظه الدينية في حضرة السلطان الكامل ، ثم استمر أتباع ذلك القديس . فضلا عن أتباع القديس دمزيك — يواصلون جهودهم في النصف الأول من القرن الثالث عشر مؤملين أن ينجحوا في نشر المسيحية بين المسلمين عن طريق الاقتناع . واتخذت هذه الحركة التبشيرية اتجاها جديدا عندما فكر لويس التاسع ملك فرنسا في نشر المسيحية بين المغول جميعا . كذلك أشار لويس التاسع على البابا انوسنت الرابع بإنشاء جمعية التبشير الأولى سنة ١٢٥٣ م وهي الجمعية التي ضمت عددا كبيرا من المبشرين الفرنسيين والدومينكان . على أن أعظم شخصية في هذه الحركة التبشيرية في القرن الثالث عشر كانت شخصية أريسوند لسول Raymond Lul وهو أسباني كرس حياته لمهمة التبشير بالمسيحية بين المسلمين بالذات . فأقنع ملك ميورقة بإنشاء كلية الثالوث المقدس في سنة ١٢٧٦ م وهناك أخذ يعد مجموعة من المبشرين للقيام بمهمتهم ، وأهم وسائل هذا الأعداد كانت تعليمهم اللغة العربية . وبعد أن قضى ريموند عشر سنوات في أعداد أعوانه أوعددهم إلى شمال أفريقيا فضلا عن بلاد المغول والأرمن للتبشير بالمسيحية الكاثوليكية . ويفضل جهوده قرر مجمع فيينا سنة ١٣١١ م إنشاء ستة معاهد لتدريس اللغات الشرقية في أوروبا ، وذلك لأنه لا يمكن للمبشر أن ينجح نجاحا مضمونا إلا إذا عرف لغة القوم الذين يبشر برسالتهم بينهم .

ومهما يكن من أمر ، فإن اتساع حركة التبشير بالمسيحية بين الشعوب غير الأوروبية جاءت من نتائج الحروب الصليبية ، وإذا كانت هذه الحركة لم تحرز نجاحا بين المسلمين وغيرهم من الشعوب في منطقة الشرق الأدنى

فإنها استمرت حتى أحرقت بعض النجاح فيما بعد في شرق آسيا وبخاصة .
بين البوذيين (٢٧) .

وإذا كانت هذه المعابر الحضارية قد أسهمت في ازدياد معرفة الغرب بالشرق . واهتمامه بثقافته ولغاته فإن هناك جهات أخرى بدأت تهتم بالشرق وعلومه وديانته محاولة أن تدرس كل ما يخص هذه المنطقة من العالم ، وتؤلف المؤلفات التي تهدم هذا العالم وتدمره ، وأن تسمى جاهدة للنيل من الدين الضعيف الذي ذاع وانتشر ألا وهي البابوية التي تعتبر السلطة الدينية المسيحية الكاثوليكية في الغرب . ومقرها في الفاتيكان بإيطاليا .

(١) البابوية :

حاولت البابوية أن تتخذ من التبشير بالديانة المسيحية غاية قصوى لها وأن تعكف على دراسة علوم الشرق وديانته وفنونه وآدابه لتحسارهم بسلاحهم . فبدأ البابوات والرهبان والاساقفة في الاهتمام بالاستشراق ، فنظموه واتصلوا بالملوك والأمراء ليساندوهم في حركتهم هذه .

بدأ رجال الدين حركة الاستشراق بدراسة اللغة العربية ثم اليونانية لتخريب أهل جدل يقارعون الفقهاء والمسلمين واليهود ويردون عليهم ببراهين من كتبهم أنفسهم في البلاد التي أجلاهم الاسلام عنها وبلغ أوروبا منها مقصد الفرنسيكانيون المغرب ١٢٢٠ م ، وانطلق الدومنيكانيون سنة ١٢٥٢ م إلى بلغاريا ورومانيا والشرق (٢٨) .

فبذلك أصبحت العربية أهم وسيلة في عملية الاستشراق ، فبدأوا بعلمونها في مدارس إسبانيا وأديرتها وكاتدرائياتها وجامعاتها ، واستسوا مدارس اللغات الشرقية في عواصم بلدانهم وخصصوا كراسي مستقلة في كبرى الجامعات لهذا التخصص ، حتى أننا نرى البابا سلفستر الثاني (ت ١٠٣٣) الفرنسي كان قد حصل على ثقافته العليا في إسبانيا على أيدى العلماء المسلمين قصد أمر بإنشاء ثلاث مدارس لتعليم اللغة العربية

(٢٧) سعيد عاشور « الحركة الصليبية » ج ٢ ص ١٢٧٨ .

(٢٨) نجيب العتيقي « المستشرقون » ج ١ ص ١١٤ .

فى روما وريمس وشارتر ، ولحماس هذا البابا وأهميته فى تنشيط حركة الترجمة من العربية الى اللاتينية وفى تنظيم وسائلها جعل بعض مؤرخى الغرب عهده بداية لحركة الترجمة فى أوروبا .

توسعت البابوية فى انشاء الكراسى والمدارس والمكتبات والمطابع والمجلات فى ايطاليا وعاون على مثلها فى الغرب والشرق وعلى ترجمة التراث الانسانى عن العربية ثم عن اليونانية واللغات الشرقية والاستعانة بمن يجيدها من النصارى والمسلمين واليهود على نقله نقلا حرفيا ، ثم يعمد رجال دين الى صياغته فى أسلوب لاتينى مبين . ولم يكتفوا بتلك المقولات فانشأ دون رايموندو الاول رئيس اساقفة طليطلة مكتب المترجمين فى طليطلة ١١٣٠ م واشرف ميخائيل سكوت على مكتب الترجمة الذى انشأه فردريك الثانى فى صقلية (١٢٢٠ - ١٢٣٦ م) واقادوا من مكتب الفونسو الحكيم (١٢٥٢ - ١٢٨٤ م) والمصنفات التى امر الملوك والأمراء بنقلها او نهض العلماء بها ونشروا جميع ذلك فى مدارسهم ومعاهدهم وجامعاتهم ومنها انتقلت الى مثيلاتها فى أوروبا (٢٩) .

وبدأت ترجمة كتب العرب فى الفلسفة والطب والكيمياء والصيدلة والعلوم الدينية والرياضيات والجغرافيا والتاريخ والفلك والموسيقى وغيرها من العلوم الشرقية المزدهرة ، ثم بدأوا فى انشاء المطابع التابعة للرهبان . من اهم الرهبان الذين ساهموا فى حركات الترجمة لمعت اسماء كان لها اهمية كبرى فى نشأة الاستشراق فى الغرب وفى الترجمة عن العربية ونقل تراث الشرق الى الغرب نخص منهم :

١ - جرير دى أوليك : ٩٣٨ - ١٠٠٣ م (٣٠)

راهب دومينيكى فرنسى ، قصد الأندلس فبمن تصدها طلبا للعلم ، فأخذ من علمائها فى مدارس اشبيلية وقرطبة ، ثم رحل الى روما سنة ٩٩٩م وانتخب حبرا اعظم ، وبعد انتخابه امر بالانشاء مدرستين عربيتين الاولى فى ايطاليا وهى مقره الدينى ، والثانية فى ريمس بفرنسا وهى موطنه .

(٢٩) نجيب العقيدى « المستشرقون » ج ١ ص ١١٦ .

(٣٠) المرجع السابق ص ١٢٠ .

٢ — قسطنطين الأفريقي : ١٠٨٧ م (٣١)

الراهب الأفريقي الذي ترجم كتب الطب والفلك من العربية الى اللاتينية عن اسحق بن عمران ، وكتاب العلاج العام لاسحق الاسرائيلي والكتاب الملكي لعلي بن عباس وبعض رسائل الرازي .

٣ — بطرس الكرم : ١٠٩٤ — ١١٥٦ م (٣٢)

اعتنق الحياة الرهبانية ، وكان كثير الاطلاع ، عين سنة ١١٢٣ م رئيسا لدير كلوني ، ثم قصد الاندلس وتثقف بثقافتها ، ثم عاد الى ديره يصنف الكتب في الرد على الاسلام وشجب اليهود ، ويقال انه ترجم القرآن الكريم .

٤ — ادلارد الباقي : ١٠٧٠ — ١١٣٥ م (٣٣)

راهب بندكتي جمع معارف في علوم الطبيعة والفلك والرياضيات ، وتضلّع في ثقافة العرب ، وترجم كتبهم في مختلف التخصصات وآمن بمذهبهم في العلم .

٥ — روبرت القسستري : ١١٤١ — ١١٤٨ م (٣٤)

راهب بندكتي تثقف بالثقافة العربية لا سيما العلوم الرياضية والفلكية منها وقد ترجم اول ترجمة للقرآن استعان فيها باثنين من العرب نشرها ببيلباتدر في ثلاثة اجزاء . وترجم في الجبر والمقابلة للخوارزمي والكيمياء والفلك الذين يعتبران فاتحة العلوم المنظمة في اوروبا .

٦ — جيرارد الكريموني : ١١١٤ — ١١٨٧ م (٣٥)

راهب بندكتي تعلم العربية في طليطلة — ترجم مالا يقل عن ٨٧ مصنفا في الفلسفة والطب والرياضيات والفلك وضرب الرمل ، فقدت معظم

(٣١) المرجع السابق ص ١٢١ .

(٣٢) العقيقي : المرجع السابق ص ١٢٢ .

(٣٣) المرجع السابق ص ١٢١ .

(٣٤) المرجع السابق ص ١٢٣ .

(٣٥) المرجع السابق ص ١٢٩ .

اصولها العربية وسلمت ترجماتها اللاتينية فمهدت مع مثيلاتها الى انتشار العلوم في اوربا وتوثيق صلتها بالشرق .

هؤلاء بعض اعلام المستشرقين الذين كانوا ثمرة من ثمرات الحركة التي قادتها البابوية في الفاتيكان لدراسة الاستشراق وترجمة العلوم العربية الاسلامية الى اللاتينية ، ثم التأليف محاولين بذلك ضرب الاسلام في الرد عليه بمؤلفات مضادة .

(ب) السفراء :

كثرت السفارات بين دول الشرق والغرب في فترات السلم ففري العباسيون والفرنسيون يتبادلون السفارات والهدايا سنة ٧٩٧-٨٠٦ م ووافق هارون الرشيد على جعل حماية القدس في يد شارلمان سنة ٨٠٧م فأرسل احد بطاركتها مفاتيحها اليه (٣٦) .

وقام عبد الرحمن الثاني بإرسال سفارات الى ملك النيسورمان والدانمارك سنة ٩٤٥ م وأوفد عبد الرحمن الناصر السفارات الى القسطنطينية سنة ٩٥٠ م وأوفد أسقف قرطبة ريسيموندو المشهور عند العرب بربيع بن زيد الى أوتو امبراطور المانيا واحتفى بسفيره الأسقف جرتر سنة ٩٥٣ م فمضى في قرطبة ثلاث سنوات تعلم خلالها العربية ورجع منها بالمخطوطات النفيسة ووفد على بلاط الخليفة سفراء بيزنطة و المانيا و ايطاليا وفرنسا (٣٧) .

ثم بدأ التطور التاريخي في مجال العلاقات الخارجية بأن بدأت الدول الشرقية والغربية تعمل على ارسال سفراء لها مقيمون في البلدان الأخرى، فأرسلت اوربا سفراء لها في الشرق فاقتبسوا عادات الشرقيين، فمنهم من استشرق الى ابعد من ذلك واعتنق الاسلام ونال أخطر المناصب .

واقترضت سياسة اقامة اوربا سفراء لها في الشرق أن تستبدل بهم

(٣٦) حسن الباشا « دراسات في تاريخ الدولة العباسية » ص ٢٩ .

(٣٧) ابن عذاري « البيان المغرب عن تاريخ المغرب » ج ٢ ص ٢٢٩ .

سفرء الشرق فى عواصمها فكان لكل من تركيا وسيام وغارس والهند
سفير .

اما السفراء وملحقوهم الذين تخرجوا من مدارس اللغات الشرقية
وبعثوا الى الشرق واقاموا فيه ، فقد حققوا ما كتبوه فى مواضعه وعاونوا
على جمع مخطوطاته وتعليم لغاته وانشاء المطابع لنشر مصنفاته فكانوا نواة
طبية للاستشراق العلمانى (٣٨) .

(ج) الحملة الفرنسية واثرها على حركة الاستشراق :

تعرضت مصر للحملة الفرنسية من سنة ١٧٩٧ — ١٨٠١ م ، ولا شك
ان هذه الحملة ما هى الا استكمالا لتضية الصراع بين العسالىن الشرقى
والغربى الى جانب الاسباب المباشرة والشخصية التى حدثت بنابليون
بونابرت الى توجيهها ضد مصر .

ويهمنا من هذه الحملة انه كان لها تأثير كبير على تطور حركة
الاستشراق والاهتمام به .

فقد صاحب نابليون فى حملته بعثة علمية قوامها علماء اعلام فى كل
ضرب من ضروب النقسافة فى ذلك العصر ، منهم الاثريون والمهندسون
والاطباء والمؤرخون والمستشرقون والمترجمون اللبسانيون والمصريون
والسوريون ، كما انه عمل على ان يهيىء اسباب الاقامة والاطمئنان
للفرنسيين ، قرأى وجوب درس طبيعة البلاد وأهلها وتاريخها ، وانظمتها
حتى يكون العمل ممكنا ومثمرا ، ولهذا أصدر أمرا بانشاء « المجمع العلمى
المصرى » وكان ذلك فى ٢٢ أغسطس سنة ١٧٩٨ ، وقسم المجمع فى اول
أمره أربعة أقسام : قسم الاقتصاد السياسى ، وقسم الآداب ، وقسم
الفنون ثم قسم الرياضيات والطبعة ، على ان تطبع أعمال المجمع كل
ثلاثة أشهر ، وعين مونتج كمر الرياضيين رئيسا له ، وجعل نفسه وكيله ،
وبدا العلماء أعمالهم بالفعل ليهيئوا جوا صالحا لنجاح الحالة الجديدة (٣٩) .

(٣٨) العقيدى « المستشرقون » ج ١ — ص ١٤٢ .

(٣٩) محمد عبد الرحيم مصطفى « تاريخ مصر الحديث » ص ٣٠ .

وقد أمر نابليون كذلك بتأسيس مطبعة عربية — كان قد استصفها من الفاتيكان — لطبع الكتب والتصريحات والبلاغات والمشورات . ونشرت بعثته بحوث علمائها ورسومهم وخرائطهم في كتاب « وصف مصر » سنة ١٨٠٩ — ١٨١٣ م ثم حل شميليون رموز السكتات الهيروغليفيّة بترجمة حجر رشيد (٤٠) .

وبذلك نرى أن حملة نابليون بونابرت على مصر تعتبر من أهم الأسباب التي أدت إلى زيادة الرغبة في الاستشراق في الغرب وإلى الاهتمام بعلوم الشرق وفتحت السبيل أمام الباحثين هناك ليأتوا إلى البلاد العربية ، لدراسة التراث والعلوم والتأليف فيه ، فامتلات بهم ساحاب المكتبات العربية كمستشرقين يبحثون ويدرسون في وقت كانت فيه البلاد الإسلامية في سبات عميق نظير ما أصابها من تدهور سياسي واستعمار غاشق طاعوا أن يترجموا وأن يحققوا أعدادا وفيرة ، بل معظم كتب التراث الإسلامي حققها مستشرقون أجانب ، أي جانب ضياع كمية ضخمة من المؤلفات الإسلامية التي حملت إلى مكتبات الغرب الأوربي وجامعاته ، ولم ينتبه اليها المثقفون المسلمون ، والعجيب أن الباحث الذي يريد أن يكتب عن التراث الإسلامي الديني أو العلمي أو السياسي أو الحضاري فإنه يجد في المكتبات الأوربية أضعاف أضعاف المخطوطات النادرة والكتب الإسلامية للمؤلفين الأوائل وهذا كله أدى إلى أن أصبح المستشرقون قوة كبيرة في الغرب لها مكانها ولها مركزها العلمي ولها كراسي مستقلة في جميع جامعات أوربا وأمريكا .

الوسائل التي اتبعتها الغرب لتدعيم حركة الاستشراق :

١ — إنشاء كراسي للغات الشرقية في الجامعات الأوربية جميعها مثل جامعة تولوز ، وجامعة بوردو ، وجامعة السوربون في باريس والمدرسة الشرقية في القسطنطينية ، وجامعة ستراسبورج والمعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة ودمشق وطهران وتونس إلى جانب كراسي اللغات الشرقية في جامعات إنجلترا مثل جامعة أكسفورد وكمبريدج وجامعة لندن

(٤٠) العتيقي « المستشرقون » ج ١ ص ١٥٠ .

وجامعة درهام وجامعة فيكتوريا و جامعة ليدز وجامعة ويلز وجامعة
ليفربول وبريستول وشيفيلد وهال وكفلك جامعات اسكتلندا في سانت
اندرور وجلاسجو وابردين انبره وفي ايرلندا في كلية ترينيتي في دبلن
وجامعة ايرلندا الوطنية .

وفي كندا في تورنتو ، اوتاوا ، جامعة لافال ، جامعة مانيتوبا
ومونتريال . وفي المانيا في جامعة هايدلبرج وكولن وجامعة فورزبرج
ومونستر ويون وبرلين وغيرها (١) .

هذا الى جانب الكراس الموجودة للغات الشرقية في جميع جامعات
الغرب وما قدمناه ما هو الامثل لبعض هذه البلاد .

٢ - **انشاء المكتبات الشرقية** التي تحتوى على ملايين من الكتب
والمخطوطات والنفائس العلمية والأدبية والتاريخية .

ومن اهم هذه المكتبات مكتبة باريس الوطنية ، ومكتبة المتحف
البريطاني في لندن ومكتبة الاسكوريال باسبانيا والتي تضم حوالى ١٩٠٠
مخطوط عربى من بقايا المكتبة الاندلسية الاسلامية بقرطبة . ومكتبة فينا
الوطنية التي تحوى مئات من المخطوطات العربية النفيسة وكذلك مكتبة
جامعة ليدن بهولنده وهى تضم مخطوطات نفيسة وفيرة تضى المستشرقون
الهولنديون ترونا متواصلة في جمعها .

وهناك مكتبة برلين الوطنية في المانيا ومكتبة جامعة ميونخ وجامعة
هايدلبرج الى غير ذلك من المكتبات مثل المكتبات الخاصة بمختلف الجامعات .

وهناك نوع آخر من المكتبات الخاصة التى كانت ملكا للمستشرقين
وقف بعضها على المكتبات العامة ، واقتنت البعض الآخر ولجميع دور النشر
الشرقية فهارس لجموعاتها .

(١) نجيب العقيدى : المرجع السابق ج ١ ، ج ٢ ، ج ٣ .

٢ — انشاء المطابع الشرقية (١٦)

دأبت البلاد الغربية على انشاء المطابع التي تحوى الحروف العربية والعبرية ، وبدأت هذه المطابع فى ايطاليا ثم فى فرنسا ، ووجدت فى اسبانيا مطبعة مايسقرى فى مدريد ، ومطبعة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية فى مدريد ايضا . وفى النمسا انشأت المطبعة الامبراطورية والمطبعة الشرقية للاباء المختارين . وفى هولنده مطبعة ليدن وغيرها فى مختلف انحاء اوربا .

٤ — الجمعيات الآسيوية والمجلات الشرقية (١٧) :

عملت معظم بلدان اوربا على تنمية حركة الاستشراق باصدار المجلات والمطبوعات الخاصة بالشرق وهى تعنى جميعها بالعرب فى تحقيق سبق تاريخهم وجغرافيتهم وانسابهم ، وبحث ادبهم وشرائعهم ومذاهبهم وأخلاقتهم ، ودرس لغاتهم وعلومهم وفنونهم فاطلعت الغرب على أصالة الشرق وخصائص تطوره ، وألفت من مجموعها مكتبة نفيسة فيها زبدة أعمال المستشرقين (١٨) .

ومن أهم المجلات الشرقية صحيفة العلماء التى تصدر فى فرنسا نشرة معهد مصر ، المجلة التاريخية ، مجلة تاريخ الأديان ، نشرة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية فى القاهرة ، مجلة الدراسات الاسلامية وهناك الجمعيات الآسيوية مثل الجمعية الملكية الآسيوية لبريطانيا العظمى ، وايرلندا فى لندن ، والسلسلة الجديدة التى تصدر كل ثلاثة شهور ، واتحاد المستشرقين البريطانيين ، الى غير ذلك .

٥ — المتاحف الرقمية :

ونحتوى هذه المتاحف على مجموعات كبيرة من الكتب والمؤلفات الشرقية الى جانب مجموعة كبيرة من الآثار الشرقية ومن أهم هذه المتاحف

(١٢) العقيقى : المرجع السابق ج ١ ، ٢ ، ٣ .

(١٣) العقيقى : المرجع السابق .

(١٤) العقيقى : المرجع السابق ، ج ١ . ص ١٦١ .

المتحف البريطاني ومتحف فيكتوريا ألبرت ومتحف اشمولين في أكسفورد ومتحف جراتس في النمسا . ومتحف الفن الاسلامي في برلين والمتحف الوطني في باريس .

٦ — المؤتمرات الدولية :

بلغت مؤتمرات المستشرقين الدولية (١٨٧٢-١٩٦٤) ٢٦ مؤتمرا ضم الواحد منها مئات العلماء من اعلام المستشرقين والعرب والمسلمين والشرقيين اسهموا فيما بينهم في اقسامه الأربعة عشر عن آسيا وأفريقيا، وتناولوها بالمحاضرات والأبحاث والنظريات والمقترحات . ثم نشروها في مجلدات للاهتمام بها كنظم ومناهج ووسائل ، ثم أصبحت مع دراسات مؤتمراتهم الموضوعية والاقليمية أصولا وأمهات وأسانيد للباحثين (٤٥) .

وتعتبر هذه الوسائل المتعددة عوامل مساعدة لنشر حركة الاستشراق في الغرب الأوربي ، وفي تمهيد السبيل لنشر جميع المؤلفات العديدة التي تصدر في الغرب خاصة بأهم الشرق .

أهداف المستشرقين :

لعلنا بالعرض السابق نكون قد ألقينا الضوء بعض الشيء على التطور التاريخي للعلاقات بين الشرق والغرب ، وكيف احتك كل منهما بالآخر ثم كيف بدأ الغرب يتكالب على الحضارة الاسلامية فأخذ منها من مراكزها المختلفة سواء أكانت في أوربا أم في الشرق ، ثم بعد ذلك بدأت مرحلة الاستقرار والدراسة والانتاج العلمي الوافر في وقت ذهبت فيه البسلاط الاسلامية ووصلت أوربا في عصر النهضة إلى أقصى درجات التقدم العلمي والحضاري . وبذلك نجد أن حركة الاستشراق أصبحت حركة عامسة في أوربا وأصبح لزاما علينا أن نرى أهداف هذه الحركة هل خرجت كلها من منبع واحد ولهدف واحد معين أم اختلفت الاصول والأهداف .

الحقيقة أن الهدف الأول الذي قام من أجله الاستشراق كان خدمة الكنيسة والاستعمار ، فالمعروف أن أول من قام بعملية الاستشراق كانوا

(٤٥) العقيلي « المستشرقون » ج ٣ ص ١١٤٨ .
(م ٣ — الاستشراق)

رهبانا خاضعين لسلطة الكنيسة الكاثوليكية في الغرب وهؤلاء اعتقدوا
الضلالة عن الموضوعية المتفهمة . وقد غلب على كتاباتهم الطعن في الاسلام
والحضارة الاسلامية والثقافات الاسلامية والتاريخ الاسلامي .

وهناك مجموعة من المستشرقين كانوا مرققة وضعوا اقلامهم في
خدمة مصالح بلدانهم الاقتصادية والسياسية والاستعمارية (٤٦) .

وهناك فئة من طلاب الاساطير والغرائب والاهاجي ، ولم تكن حقا
من العلم في شيء فافترضت بافراض العصور الأولى (٤٧) .

وفئة أخرى تعرضت للاسلام دون ان تقصد الطعن عليه ، وانما
درسته دراستها كتبها الدينية ، فقد درج العلماء وفيهم الرهبان على نقد
الكتاب المقدس مثل رايمو روس المتوفى سنة ١٢٦٨ م استاذ اللغيات
الشرقية في جامعة هامبورج الذي خلف مخطوطا في نقد حياة المسيح (٤٨) .

وفئة غيرهم انصفت للاسلام وان لم يبدن به قولا وعملا وكتابة فلم يؤخذ
عليها حقوة على كل ما يبجته فيه ومنها من ذهب به اخلاصه الى
انتشاقه (٤٩) .

ولابد ان هناك فئة أخرى منصفة ارادت البحث العلمي المجرد دون
التعرض للدين ، وهذه الفئة غلبت عليها الحيدة المطلقة والرغبة في
الوصول الى الحقيقة العلمية ، ودراسة التراث العربي الاسلامي لمسا
فيه من حضارات قديمة مزدهرة .

وتعتبر هذه الاغراض من اهم الدوافع التي دفعت المستشرقين الى
الاندراج في هذا السلك ، وبهمنا من امر حركة الاستشراق هذه الحركة
التي تنبتا الكنيسة الكاثوليكية والملوك والامراء الاتطاعيين في اوروبا والتي
كان هدفها الاول والآخر طعن الاسلام بجهالة وضلالة .

(٤٦) العقيلي : المرجع السابق ج ٣ ص ١١٦ .

(٤٧) العقيلي : المرجع السابق ج ٣ ص ١١٦ .

(٤٨) العقيلي : المرجع السابق ج ٣ ص ١١٦ .

(٤٩) العقيلي : المرجع السابق ج ٣ ص ١١٦٢ .

وقبل أن ندخل فى تفاصيل هذه الحركة التى ربطت الاستشراق بالتبشير لابد أن نلخص تطور حركة الاستشراق فى مراحل ثلاث ومى :

المرحلة الأولى :

تلك الحقبة التى تبدأ من القرن الثامن الميلادى وتستمر حتى النهضة الأوروبية الحديثة فى القرن الخامس عشر ، وفيها احتك الإسلام بالغرب سياسيا وحربيا ، وأسس مراكز لحضارته فى جنوب أوربا وجنوبها الغربى ووقف منها موقف المعلم يلقيها حضارة خصبة الجوانب كثيرة الروافد ، امتزج فيها تراثه العربى بتراث الفرس والهند واليونان وغيرهم من الأمم التى دانت لسلطانه ، وكان موقف أوربا من ذلك الدور أشبه بموقفنا نحن من الحضارة الغربية فى أوائل نهضتنا الحديثة (٥٠) .

المرحلة الثانية :

منذ أوائل النهضة الأوروبية حتى القرن الحالى وفيها احتلت دراسة الفلاسفة المسلمين مكانها فى الجامعات القديمة مثل باريس ولوفان وظهر أثر الفكر الإسلامى فى بعض الفلاسفة الغربيين مثل ديكارت وترجمت بعض روائع الأدب الشرقى مثل ألف ليلة وليلة الذى ترجم إلى الفرنسية فى نهاية القرن السابع عشر ، ثم ترجم بعد ذلك إلى غيرها من اللغات ثم اتجهوا بعد ذلك إلى دراسة سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وبدأت تظهر الكتب الأوروبية عن الإسلام وتاريخه والترجمات المختلفة للقرآن وأسست الجمعيات الآسيوية فى إنجلترا وفرنسا فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وأخذ العلماء الأوروبيون ينقبون عن المخطوطات الشرقية ويحققونها وينشرونها .

وفى النصف الثانى من القرن التاسع عشر بدأت سلسلة المؤتمرات الدولية لأولئك المستشرقين يعرضون فيها ما وصلوا إليه فى البحوث الكلاسيكية الإسلامية والعربية والشرقية (٥١) .

(٥٠) هاشم زكريا « المستشرقون والإسلام » ص ١٦٧ .

(٥١) المرجع السابق .

المرحلة الثالثة :

وهي التي نشهد مظاهرها الآن ، ففي مرحلة العناية بالاسلام في اوضاعه واتجاهاته الحديثة ، لم تعد الدراسات الشرقية الكلاسيكية هي الشغل الشاغل للمستشرقين المحدثين او الجمعيات والمعاهد واقسام الدراسات الشرقية في الجامعات الامريكية والاوربية ، بل انتقلت العناية الى دراسة الامم الاسلامية في نهضاتها الحديثة والى ما ينشأ فيها من حركات تجديدية واصلاحية والى مقدار تأثير التعاليم الاسلامية الاصلية في تفكير الشعوب الاسلامية المعاصرة ، وما بين تلك الشعوب من مظاهر الاتفاق او الاختلاف او النزعات والوان التفكير ، ومدى كل واحدة من التوفيق بين تعاليم الدين ومقتضيات الحياة العصرية والمعتدة وعلى الأخصر في التشريع ونظم الاجتماع والاقتصاد واساليب الحكم ، وهل هناك معضلات تواجهها تلك الشعوب في التوفيق بين المعتقدات الدينية ونتائج الفكر العلمي الحديث .

ولقد نظمت جامعة برنستون ، ومكتبة مجلس الشيوخ الامريكي مؤتمرا للثقافة الاسلامية واقدمت ندوة في معهد هوفر بجامعة ستانفورد ومؤتمر في متيسوتا ، معهد الدراسات الاسلامية في كندا .

ويدرس الآن احوال الشرق الاسلامي الحديث والتصوف الاسلامي في جامعات اكسفورد وكمبريدج وجامعات اوربا كافة ، كما انه المسادة الرئيسية في كلية الدراسات الشرقية والافريقية في لندن (٥٢) .

الفصل الثاني

الاستشراق والتبشير

الاستشراق والتبشير

يعتبر التبشير بالدين المسيحى الهدف الأول من أهداف المستشرقين . إذا كنا قد عددنا أهدافا أخرى للاستشراق — فذلك حتى لانعمم فى حكمنا على جميع فئات المستشرقين ؛ وأن نعطي للفئة التى عملت فى هذا المجال — الحيدة المطلقة . وبالبحث العلمى المجرد — حقها من التقدير .

والحقيقة أن فئات كبيرة من التى اعياها التعصب والجهل جرت وراء عملية التبشير رغبة فى الوتوف بمى وجه الاسلام ؛ ومحاولة زعزعة العقيدة من قلوب المسلمين ما استطاعوا الى ذلك سبيلا .

ومن أقوال زعماء المبشرين المستشرقين عن أهداف التبشير قول لورانس براون فى كتابه « الاسلام والارساليات » (١) « إذا اتحد المسلمون فى امبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطرا ؛ وأمكن أن يصبحوا نعمة له أيضا ؛ أما أنا فظنوا متفرقين ، فانهم يظلون حينئذ بلا قوة ولا تأثير » .

ويفصح القس كالهون سيمون عن قوة التبشير فى تفريق المسلمين ، وهو نفس المعنى الذى عبر عنه براون فيما قبل . بقوله فى كتابه « ان الوحدة الاسلامية تجمع آمال الشعوب السود وتساعدهم على التخلص من السيطرة الأوربية ، ولذلك كان التبشير عاملا مهما فى كسر شوكة هذه الحركات ؛ ذلك لأن التبشير يعمل على اظهار الأوربيين فى ثوب جديد جذاب ؛ وعلى سلب الحركة الاسلامية من عنصر القوة والتمركز فيها » (٢) .

فوحدة المسلمين إذا فى نظر التبشير يجب أن تفتت وأن توهن ، ويجب

(١) لورانس براون « الاسلام والارساليات » ص ٤٤-٤٨ .

(٢) ابراهيم خليل « المستشرقون والمبشرون فى العالم العربى والاسلامى » ص ٣٨ .

أن يكون هدف التبشير هو التفرقة في توجيه المسلمين واتجاهاتهم . وهناك بجانب تفقيت وحدة المسلمين هدف آخر هو درء خطر وحدتهم وامتنعاد سلطانهم باستعمار الشعوب الأوروبية واستغلالها واستنزافها ثرواتها . وفي هذا المعنى يقول لورانس براون أيضا « الخطر الحقيقي كامن في نظام الاسلام وفي قوته على التوسع والاختضاع وفي حيويته انه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوربي » (٢) .

ويرى المستشرق الألماني بيكر (٤) « أن هناك عداء من النصرانية للاسلام لأن الاسلام عندما انتشر في العصور الوسطى أقام سدا منيعا في وجه الاستعمار وانتشار النصرانية ، ثم امتد الى البلاد التي كانت خاضعة لصولجائها » .

وقريب من ذلك ما رآه غارذنر (٥) « ان القوة التي تكمن في الاسلام هي التي تخيف أوروبا ، ويحاول المبشرون أن يروا العداوة بين الاسلام وبين الغرب دينية ، ولكن الحقيقة لا تلبث أن تظهر في فلتات لسانهم ، فإذا هي سياسية » .

ان يوليوس رشتريث يؤنب النصارى على قصر نظرهم في اثناء المصور المتطاولة التي تلت ظهور الاسلام ، فانهم كانوا فيها وادعين غافلين وكانت الامبراطورية البيزنطية تغيب شيئا فشيئا في الامبراطورية الاسلامية حتى سقطت القسطنطينية سنة ١٤٥٣م بيد الاتراك العثمانيين (٦) . ولا ريب في ان رشتريث يتألم للناحية السياسية لانه هو نفسه يذكر ان سكان الامبراطورية الشرقية كانوا نصارى بالاسم .

وعلى هذا الأساس اصبح الاتراك خطرا على أوروبا منذ دخلوا في الاسلام ، لا لانهم مسلمون بل لانهم قد أصبحوا قوة تستطيع ان تقف في وجه الاطماع الأوروبية ، حتى السنوسية ، وهي فرقة من المرابطين المجاهدين

(٣) المرجع السابق .

(٤) مصطفى خالدي « التبشير والاستعمار » ص ٣٦ .

(٥) المرجع السابق .

(٦) المرجع السابق ص ٣٧ .

نشأت في طرابلس الغرب قد أصبحت على قلة اشياعها وقلة انصارها قوة
نرهب الاستعمار لا لشيء الا لان الاتحاد قوة تفسد على المستعمرين
اعمالهم . ولقد بالغ المبشر صموئيل زويمر حينما هاله أن يرى نفرا من
المصري يدعون الى مصادقة المسلمين في الدين ؛ ان هذه الصداقة في
راى زويمر تخلق في نفس المصري جبنا عن التبشير (٧) .

ومن المعروف بين جمهرة المبشرين المستشرقين أن صموئيل زويمر
هذا كان يلقب « بالمختار الى العالم الاسلامي » ، وكافته مهمته تحويل
العالم الاسلامي عن عقيدته ، ولم يكن يستكثر عن مهمته أن يتصدى لتحويل
مكة والمدينة في مقدمة المعامل الاسلامية ، ولا تحويل القاهرة بما اشتملت
عليه من معاهد الاسلام وذكرياته الباقية (٨) ، بل ان هناك مجموعة اخرى
ساندت صموئيل زويمر هذا افكاره كانت تقدم العون الواسع في القضاء
على الاسلام واعادته الى الصحراء من حيث جاء (٩) .

ومن مجموع هذه الآراء السابقة التي احببت ان أسوقها في مقدمة
الموضوع لابد أننا نكون قد اقتنعنا أن ممارسة الاستشراق من أجل التبشير
وخدمة الدين المسيحي لم تمت بظهور النزعة العلمية ، فقد ظل عدد من
خدام المسيحية يمارسون الاستشراق لهذا الغرض نفسه وظل هذا
الوضع الى يومنا هذا .

ولابد لنا أن نتتبع الوسائل التي يتخذها هؤلاء المبشرون المستشرقون
في تحقيق مخططاتهم ، وسنرى أن واحد منهم وهو هـ . هـ وجيسوب
يقول : « من الضروري أن يستخدم المبشرون جميع الطرق في سبيل التبشير
وان يستغلوا جميع المناسبات ، فمناعة الطب والتعليم والوعظ ونقل الكتب
من لغة الى لغة كلها يجب أن توجه توجيهها يفيد التبشير » (١٠) .

والمبشرون مجتمعون على أن جميع الوسائل مهما كانت يجب ان تستغل
في سبيل التبشير ، حتى أعمال البر يجب أن تستغل استفلا لا بحثا من ذلك

(٧) المرجع السابق ص ٢٨ .

(٨) عباس العقاد « ما يقال عن الاسلام » ص ١٦٩-١٧٠ .

(٩) محمد الغزالي « قذائف الحق » ص ٢٥ .

(١٠) Jessup, H.M. Fifty three years in Syria. P. ٥٥

تولهم « كان التطبيب والتعليم من وسائل التبشيرة ويجب أن يربا كذلك ،
أما أعمال الاحسان فيجب أن نستعمل بحكمة كيلا نذهب في غير سبيلها ،
يجب أن تعطى الأموال أولا للبعيدون عن الكنيسة ثم نقل تدريجيا كلما اقترب
أولئك من الدخول في الكنيسة . فإذا دخلوها منع عنهم الاحسان مرة
واحدة » ومن وسائلهم أنهم إذا دخل على خدمتهم رجل لا ينتمى الى مذهبهم
حملوه على الدخول فيه .

ولابد لنا ان نوضح نواحيها دقيقا الاسلوب الذى يتخذه المبشرون
فى نشر عقائدهم وفكرهم .

وأول هذه الوسائل هى الوسائل الثقافية ، فقد اتخذ المبشرون من
التربية والتعليم وسيلتهم الأولى فى التأثير والتغيير الذى ينشدونه ، وقد
ركزوا نشاطهم فى هذا الجانب على الجبهات والمستويات مسالكون الى
غايتهم طرقا شتى منها :

١ - المتفائل المبشرين الى الغرب :

بمحاولة التأثير الفكرى والثقافى على عقليتهم ، ومحاولة بث الشكوك
حول العقيدة الاسلاميه ، وأغراهم بوسائل التقدم المدنى الباهرة فى الغرب
حتى يفتنوا عن دينهم ، فبذلك يعودون الى بلادهم وقد تغيرت أفكارهم
وقيمهم ونظرتهم الى الدين والى الحياة والناس والى الماضى والحاضر والى
النظم والشرائع والآداب والتقاليد وبذا يتضح ذلك فى سلوكهم وأخلاقهم
وعلاقاتهم وفيما يكتبون وينتجون فى ميدان الفكر والثقافة والتوجيه .

٢ - المدارس التبشيرية والأجنبية :

اتخذ المبشرون من المدارس العديدة التى انشاوها فى الشرق الاسلامى
والتي حاولوا أن بضيقوا بها الخناق على المدارس والمؤسسات الوطنية
أن يأخذوا الطفل منذ نعومة أظفاره عجينة لينة ، فيبعده عن الاسلام
بقدر ما يقربوه من النصرانية ، ويحببوه فى حضارة الغرب بقدر ما يبعده
فى حضارة الشرق (١١) .

(١١) يوسف القرضاوى « الحلول المستبعدة » ص ٢٤ .

وقد صرحت المبشرة « أنا ميلجان » عن هدف هذه المدارس ومهمتها في بلاد العرب والمسلمين فقالت (١٢) :

« ان المدارس اقوى قوه لجعل الناشيين نحت تأثير التعليم المسيحى وهذا التأثير يستمر حتى يشمل أولئك الذين سيصبغون يوما ما نأده » .
وتقول أيضا عن كلية البنات الخاصة بالقاهرة :

« في كلية البنات في القاهرة بنات آباؤهن « باشوات وبكوات » وليس ثمة مكان آخر يمكن أن يجتمع فيه مثل هذا العدد من البنسلمات المسلمات تحت النفوذ المسيحى ، وليس ثمة طريق الى دحض الاسلام أقصر من هذه المدرسة » .

وكانت كل المذاهب المسيحية تقوم بجهودها التبشيرية في جميع بلدان المسلمين .

ومن المنشور الذى أصدرته الجامعة الامريكية في بيروت سنة ١٩٠٩م ردا على احتجاج الطلاب المسلمين لاجبارهم على الدخول يوميا الى الكنيسة يوضح من المادة الرابعة منه طابع هذه المؤسسة وأمثالها ونص المادة (١٢) :
« ان هذه الكلية مسيحية أسست بأموال شعب مسيحي ، هم اشنروا الأرض وهم اقاموا الأبنية وهم انشأوا المستشفى وجهازه ، ولا يمكن للمؤسسة ان تستمر اذا لم يساعدوا هؤلاء ، وكل هذا قد فعله هؤلاء ليوجدوا تعليما يكون الانجيل من مواده فنعرض منافع الحقيقة المسيحية على كل تلميذ ، وكل طالب يدخل مؤسستنا يجب ان يعرف سابقا ماذا يطلب منه » .

٣ — المدارس الحديثة :

وهو انشاء مدارس تقوم الدراسة فيها على أسس غربية ، يشرف عليها المبشرون ويراقبونها ويوجهونها ، ويضع لها المبشرون المناهج والكتب التى تدرس فيها .

(١٢) محمود شاكر « أباطيل وأسمار » ص ٤٢ .
(١٣) « جهود الجوى » المبشرون والمستشرقون » ص ١٠/٩ .

يقول المبشرون تكلى (١٤) :

« يجب أن نشجع انشاء المدارس ، وأن نشجع على الاخص التعليم الغربى ان كثيرين من المسلمين قد زرع اعتقادهم حينما تعلموا اللغة الانجليزية ، ان الكتب المدرسية الغربية تجعل الاعتقاد بكتاب شرقى مقدس أمرا صعبا جدا » .

وهذا التصريح من جانب هذا المبشر يدلنا على أن غاية هؤلاء المبشرين ليست دينية خالصة كما يظن بعض الناس وأنهم لا يرجون بعملهم هذا الله والدار الآخرة . فلو كان هذا هدفهم لاتجهوا أول ما يتجهون الى الملحدين والماديين الذين يكونون معظم سكان أوربا أو انجهوا الى الشعوب الوثنية . بدل أن يتجهوا الى أعظم أمة مؤمنة موحدة فى الأرض وهى أمة الاسلام .

ومما يؤكد هذا قول القس « زويجر » فى وصاياہ للمبشرين :

« ينبغى للمبشرين ألا يقتنطوا اذا راوا نتيجة تبشيرهم للمسلمين ضعيفة اذ من المحقق ان المسلمين قد نما فى قلوبهم الميل الشديد الى عيسوم الاوربيين وتحرير النساء » .

والغريب أن المبشرين الذين اتخذوا من التعليم وسيلة هامة للتبشير لا نجدهم يهتمون بالعلوم العلمية ، بل حاولوا أن يجعلوا جميع مواد التعليم تخدم المسيحية والفكر المسيحى . ويرى هنرى جيسوب (١٥) « ان التعليم فى مدارس الارسلانيات المسيحية إنما هو واسطة الى غاية فقط ، هذه الغاية هى قيادة الناس الى المسيح ، وتعليمهم حتى يصبحوا أفرادا مسيحيين وشعوبا مسيحية ، ولكن حينما يخطو التعليم وراء هذه الحدود ليصبح غاية فى نفسه وليخرج لنا خيرة علماء الفلك وطبقات الأرض وعلماء النبات ، وخير الجراحين والأطباء فى سبيل الزهو العلمى ، فأننا لا نتردد حينئذ فى أن نقول ان رسالة مثل هذه قد خرجت عن المدى التبشيرى المسيحى الى مدى علمانى محض ، الى مدى علمى دنيوى ، مثل هذا العمل يمكن أن

(١٤) مصطفى خالدى « التبشير والاستعمار » ص ٩٨ .
(١٥) H.H. Jessup. op cit. P. 378.

قوم به جامعات هايدلبرج وكمبردج وهارفارد وشيفيلد ، لا الجمعيات التبشيرية التي تسعى الى اهداف روحية فحسب » .

ويؤكد هذه الفكرة المستر نبرون الذي جاء سنة ١٩٤٨ م لتسلم زمام الجامعة الامريكية في بيروت فيقول (١٦) « لقد أدى البرهان الى ان التعليم اثنى وسيلة استغلها المبشرون الامريكيون في سعيهم لتنصير سورية ولبنان ومن اجل ذلك تقرر ان يختار رئيس الكلية البروتستانتية الانجيلية « الجامعة الامريكية اليوم » من مبشرى الارسالية السورية » .

لذلك نرى ان المبشرين استغلوا التعاليم لان له اثرا فعالا بل هو اقوى وسائل التبشير ، وعلى هذا الاساس بدأ المبشرون في انشاء مدارسهم وكلياتهم ليؤثروا في قادة الراى في البلاد وفي الجيل الناشئ في الشرق الأدنى خاصة .

٤ - استغلال الطب كوسيلة للتبشير :

كان المبشرون يتخذون من زيارة المسجونين ومن العمى في المستشفيات وسيلة الى التبشير ، وفي الحرب العالمية الاولى اخذت الدولة العثمانية عددا من الراهبات للعمل في المستشفيات ، فقال الكتاب المئوى اليسوعى عن هؤلاء « وفي منصبهن الجديد بقيت الاخوات مبشرات يلقن التعليم المسيحى ، ويعددن للمناولة الاولى ويعلمن الصلوات على الرغم من التحذير والتهديد اللذين كان المفتشون الاتراك يوجهونها اليهن » (١٧) .

وهناك طريقة اخرى وهو انشاء مستشفيات مسيحية ، فيتوافد المرضى على العيادات الخارجية بها ، فيقوم الكاتب وهو واعظ انجيلي بتحرير بطاقة للمريض ، كما تقوم الممرضة بمعرفة شخصية المريض وظروفها الخاصة ، وهذه التحريات كلها تصل تباعا الى مكتب تسييس المستشفى لتبويبها وتصنيفها .

ويلقى واعظ من قبل تسييس المستشفى قصة دينية فتتسمرة على

(١٦) مصطفى خالدي « التبشير والاستعمار » ص ٦٧ .

(١٧) المرجع السابق ص ٤٩ .

جمهور المرضى المنتظرين ، فإذا دخل المريض المستشفى ، فإنه يستمتع
لدرس ديني في أصيل كل يوم ، وقد يتبعه عرض للفانوس السحري ، ثم
توزع على المرضى النشرات لقراءتها والتسلية بها .

وفي هذا كله تعتد بمكتب التفسير أو بمنزله ندوات تبشيرية فردية
لن يقبل على المسيحية ، وإذا وثق التفسير باخلاصه أغدق عليه الهبات
ما ينسبه الأهل والأصناف (١٨) .

٥ - الصحافة والأعلام والنشرات الدورية والكتبات :

لم يقتصر نشاط الاستعمار الغربي على ميدان التعليم بمختلف طرقه
وأساليبه ، بل تعداه إلى ميدان الأعلام والصحافة والكتبات فهذه الميادين
لا يقيد ما يقيد المدرسة من مناهج ، ولا تختص بعدد محدود من التلاميذ ،
بل هي وسائل توجه الرأي العام .

ويرى المستشرق جب في كتابه « وجهة الإسلام » متحدثا عن أهمية
الصحافة في مجال الفزو الفكري (١٩) .

« الواقع أن المدارس والمعاهد العاربة لا تكن ، فخرست هي في حقيقة
الأمر إلا الخطوة الأولى في الطريق ، لأنها لا تغني شيئا في قيادة الاتجاهات
السياسية والإدارية والوصول إلى هذا التطور الأبعد — الذي بدونونه تظل
الأشكال الخارجية مجرد مظاهر سطحية — يجب ألا ينحصر الأمر في الاعتماد
على التعليم في المدارس الابتدائية والثانوية ، بل يجب أن يكون الاهتمام
الأكبر منصوبا إلى خلق قدرات عام ، والسبيل إلى ذلك هو الاعتماد على
الصحافة . ويقرر جب أن الصحافة هي أقوى الأدوات الأوروبية وأعظمها
نفوذا في العالم الإسلامي .

٦ - الفزو الاجتماعي :

المقصود به إدخال العادات والتقاليد والأنواق الغربية في حياة
الأسرة المسلمة ، والمجتمع المسلم ، واستغلال الوسيطتين المسالمتين

(١٨) إبراهيم خليل « المستشرقون والمبشرون » ص ٦٠ .

(١٩) محمد حسين « الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر » ص ٢٠٢ .

فى تحبيب ذلك الى النفس . واضفاء نفوت الرقى والنمى على كل من
يسلخون عن شخصيتهم الدينية والقومية ويمشون فى ركاب غاصبيهم
بابعين مقلدين (٢٠) .

ومن مجموع الوسائل السابقة التى ينفذها المبشرون لنشر مبادئهم
واغكارهم لخدمة الدين المسيحى . نجد أنهم يحاولون ان ينفذوا داخل المجتمع
الاسلامى ليفتنوا المسلمين عن دينهم ، والحقيقة ان معظم المبشرين حينما
ينعرضون فى كازم للدين الاسلامى ، نجد أنهم يخضعون لآفة هى آفة الجهل
بالحقائق والمعجز عن فهم الشرق والشرقيين . كما يفهمون هم انفسهم فى
حاضرهم وماضيتهم .

والعجيب ان هؤلاء المبشرين حينما يكتبون عن الاسلام لا يكتبون من
واقع المصادر التاريخية الاصلية القديمة ، وانما يتركونها فى مكتبات
علماء الدين وورثة اللاهوتيين من ابناء القرون الوسطى . ويخرجون انتاجا
لا يعتمد على اصول صحيحة فيكون ملؤا بالباطيل والاعايط ، فبسم عقول
الدارسين من المبشرين ، فيخرجون مؤمنين : - بحق دعوات التبشير ،
وصواب الحملة على الاسلام كما فهموه ، ولو أنهم فهموا اسرار اباطيلهم
لارتدوا على انفسهم واستطاع الاسلام ان يغزوهم فى معانيلهم ، فاذا هم
بمشرون انفسهم ان يفرقوا بين انحاء العالم المستبشرين فى تبشير المسلمين
وتبشير غير المسلمين من الاسلام (٢١) .

ولذلك اصبح التبشير بالنسبة للعالم الغربى والمبشورية بالذات مهنة
يستقرون بها الرزق ، وكل هدفهم تشويه الاسلام ، فهم اصحاب مصلحة
فى تشويه الدين الاسلامى وتمثيل المسلمين فى الصورة التى تنكس عند
النوم جذوة التعصب وتملى لهم فى الجهالة والخفلة ، فلا يتم ان تظهر
الحقيقة لهم ولم يستأجرونها ويرسلونهم للتبشير (٢٢) .

(٢٠) يوسف القرضاوى « الحلول المستوردة » ص ٣٢ .

(٢١) عباس الحقاد « ما يقال عن الاسلام » ص ٢٠٦ .

(٢٢) المرجع السابق ص ١٠ .

الفصل الثالث

الإسلام وموقف المستشرقين منه

الإسلام وموقف المستشرقين منه

عمل المستشرقون منذ بدء ظهور حركة الاستشراق في الغرب على الهجوم على الدين الاسلامي ، وعلى النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم .

والحقيقة التي لا جدال فيها ان الاسلام الذي بعث به محمد صلى الله عليه وسلم وكان القرآن مصدره الأول ليس — كما يظن الحاقدون — دينا لاهوتيا وليس عقيدة فقط تعنى بالجانب الروحي للانسان دون ان تعنى بتنظيم علاقته بالكون ، وعلاقته بالحياة وعلاقته باخوانه بني الانسان افرادا واسرا ومجتمعا ودولا .

كلا ان الاسلام عقيدة شاملة ينبثق عنها نظام عالمي كامل ؛ تقوم على اساسه امة عالمية متوازنة ابرز سماتها ما وصفها به القرآن « وكذلك جعلناكم امة وسطا » (١) وتوله تعالى « كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » (٢) .

والعقيدة الاسلامية مزايا وخصائص لا تتوفر لغيرها من العقائد الدينية فهي عقيدة واضحة بسيطة لا تعقيد فيها تتلخص في ان وراء هذا العالم المنسق البديع المحكم ربا واحدا خلقه ونظمه وقدر كل شيء فيه تقديرا وهذا الرب والاله ليس له شريك ولا شبيه ، ولا صاحبة ولا ولد ، بل له ما في السموات والارض كل له قانتون .

وهذه عقيدة واضحة مقبولة ، فالعقل دائما يطلب الترابط والوحدة وراء التنوع والكثرة ؛ ويريد ان يرجع الاشياء دوما الى سبب واحد والواقع المطرد يثبت ابدا ان تعدد الارادات لا يفتج عن اثر متكامل او نظام

(١) سورة البقرة ، آية ١٤١ .

(٢) سورة آل عمران ، آية ١٦٠ .

منسق ، والقرآن يقرر هذه الحقيقة فيقول : « لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا » (٢١) « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من آله إذا لذهب كل آله ما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض » (٢٢) .

وهي عقيدة ليست غريبة عن الفطرية . ولا مناقضة لنا ، بل هي منطبقة عليها انطباق المفتاح المحدد على قفله المحكم ، وهذا هو صريح القرآن « فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ذلك الدين الثيب . ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (٢٣) .

وهي عقيدة ثابتة محددة لا تتبلب الزيادة والنقصان ، ولا التحريف والتبديل فليس لحاكم من الحكام أو مجمع من المجمع العلمية أو مؤتمر من المؤتمرات الدينية أن يضيف إليها أو يحور فيها وكل تحوير أو إضافة مردود على صاحبه ونبي الإسلام يقول « من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد » (٢٤) أي مردود عليه والقرآن يقول : « أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله » (٢٥) وعلى هذا فكل البدع والخرافات والإضافات التي لصقت بمعتقد المسامحين أو دبست في بعض كتبهم أو أشيعت بين عامتهم باطلة مردودة لا يقرها الإسلام ولا تؤخذ حجة عليه . وكل ما هو معمول به في الإسلام أنه قد اتصلت بالقرآن — بعد أن انتقل الرسول الكريم إلى الرفيق الأعلى — أفهام العلماء والأئمة ، نعم لم يكن من آياته نصا قى معنى واحد . ومن هذا الجانب اتسع ميدان الفكر الإنساني وكثرت الآراء والمذاهب في النظريات والعمليات لا على أنها دين يلتزم وإنما هي آراء وأفهام غيما هو من القرآن محتمل للآراء والأفهام برد منها كل ذي رأى منها راية إلى الدلالة التي غيما هو من النص التراتبي بمعونة ما صبح عنده من أهوال الرسول أو أفعاله أو من القواعد العامة التي ترمى إليها روح الدين عامة ، وهذا الصنيع لم يكن من هؤلاء الأئمة وفي معتقدتهم إلا اجتهادا فرديا

(٢١) سورة الأنبياء ، آية ٢٢ .

(٢٢) سورة المؤمنون ، آية ٩١ .

(٢٣) سورة الروم ، آية ٣٠ .

(٢٤) القرضاي والعسال « الإسلام بين شبهات الضالين » ص ١٥ .

(٢٥) سورة الشورى آية ٢١ .

” يوجب واحد منهم على أحد من الناس أن يبيعه . بل تركوا قديرهم ممن له أهلية الفهم حرية التفكير والنظر .

أما العقائد الأصلية كالإيمان بالله واليوم الآخر وأصول الشريعة بوجوب الصلاة والزكاة وحرمة النفس والعرض والمال ، فإن نصوصها جاءت في القرآن بيّنة واضحة لا تحتمل اجتيادا ولا افهاما .

ومن هنا كثرت الآراء والمذاهب فيما يتصل بالفروع التابعة للعقائد الأصلية وفيما يتصل بالعمليات التابعة لأصول الشرائع والأحكام (٨) .

وإذا دلت طبيعة الإسلام هذه على شيء فانما تدل على أنه دين ينسج للحرية الفكرية العاملة . وأنه لا يقف فيما وراء عقائده الأصلية وأصول شريعته على لون واحد من التفكير أو منهج واحد من التشريع . وقد كان بتلك الحرية دينا يسير جميع أنواع الثقافات الصحيحة والحضارات النافعة التي يتفتق عنها العقل البشري في صلاح البشرية وتقدمها مهما ارتقى العمل وعنت الحياة .

وقد بدا المستشرقون يجدون في هذا الدين القوى المتين مادة خصبة لاستعراض آرائهم وعرض ردودهم على الإسلام ، كل منهم كما ذكرنا له دافع قوى وراء كتاباته هذه ، فمنهم من يخدم السياسة ويصطنع لغة الدعاية تارة ، ولغة الدبلوماسية تارة أخرى ، ومنهم هؤلاء المستشرقون الذين نشأوا في العصر الحديث بمعزل عن دوائر التبشير ودوائر السياسة ومنهم من ينشد الرأي خالصا لوجه الحقيقة العلمية ولكنه مشوب بالقصور الذي لا مفر منه لمن يكتب عن الأدب في لغة أخرى وهو ليس من أبنائها ، ولا هو من الأدباء في لغته التي نشأ عليها . وبعضهم لا رأى له في أدب بلاده لأنه لم يشغل به . ولم يتأهب له بعدته من الذوق والنظنة التي تؤهله للمخنص فيه . فليست معرفته بالعربية لمدة كافية له في تقدير الأدب العربي لأنه يعرف لغته . ولا معول على رأيه في أدبها بين قومه (٩) .

(٨) إبراهيم اللبان : المستشرقون والإسلام ص ٣٤ .

(٩) عباس العقاد : ما يقال عن الإسلام ص ٦ .

ويختبئ عن الإسلام في أناس يتشيعون له بمقدار ثورتهم على سلطة الدين في بلادهم . فهم يطلعون محاسنه ويقابلون بها مساوئ السلطة التي يثورون عليها ، ولا يندر فيهم من ينصف الإسلام ويهتدى الى محاسنه السمحة ، وان لم يدين به ولم يكن على دين غيره (١٠) .

ومن حتنا — بل من واجبنا أن نعرف ما يقال عنا ، وان نعرف كل قول من تلك الأقوال بقيمته وقيمه من مصدر عنه ، لأننا قد نعرف أنفسنا من شتى نواحيها كلما عرفناها كما ينظر اليها الغرباء عنا . ومرفنا مبلغ الصدق والفهم فيما يصفوننا به من هوى وجهالة وعن دراية وحسن نية .

ورأيت أن أبدأ كلامي عن مزجة الهجوم التي يقوم بها المستشرقون ضد الإسلام بعرض لآراء بعضهم وهي آراء تنصف الإسلام فينبى الإسلام والمسلمين ، بل أننا أخذناها كشهادة لنا من عدونا ، (والنخل ما شهدت به الأعداء) .

واثرت أن أبدأ بعرض لوجهة نظر حديثة وبأحدث كتاب صدر في نهاية سنة ١٩٧٨ م وهو « الخالدون مائة » (١١) والذي ألفه ميخائيل هارت العالم الأمريكي الذي بدأ ينقب في جميع مشاهير العالم من رسل وأنبياء ورجال دين وعلماء وفنانين وأدباء الى غير ذلك من أنواع المشاهير ، وبعد أن درسهم دراسة محضة ودقيقة على اعتبارات كثيرة وجد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم على رأس الشخصيات المائة التي اختارها لكتابه . وان ما جاء به هذا الرسول هو الحق على الرغم من أن هذا الكاتب مسيحي ولا يدين بالإسلام ، يقول ميخائيل هارت :

« لقد اخترت محمدا (صلى الله عليه وسلم) في أول هذه القائمة ولابد أن يندهش كثيرون لهذا الاختيار ، ومعهم حق في ذلك ، ولكن محمدا

(١٠) المرجع السابق .

(11) M. Hart. The 100 A Ranking of the most-influntial persons—in History.

عليه السلام هو الانسان الوحيد في التاريخ الذى نجح فشده بطلبه على
المستوى الدينى والدنيوى .

وهو قد دعا الى الاسلام ونشره كواحد من اعظم الديانات ، واصبح
قائدا سياسيا وعسكريا ودينيا وبعد ثلاثة عشر قرنا من وفاته . فان أمر
محمد عليه السلام لا يزال قويا متجددا .

وظل الكتائب يستعرض تاريخ الرسول صلعم منذ ولادته ونشأته
وتربيته وأخلاقه ووضعته فى قومه ثم زواجه وبعثته ودوره فى نشر الاسلام
وما لاقاه من اضطهاد فى الدور المسكر ثم هجرته وما قدمه من جهد فى
نشر الدعوة ومحاربة مشركى مكة حتى انتشر الاسلام فى جميع أرجاء
الجزيرة العربية ، ويذكر ضمن كتابه قوله « والاسلام مثل كل الديانات
السكبرى كان له أثر عميق فى حياة المؤمنين به ، ولذلك غمضوا الديانات
السكبرى ودعاتها موجودون فى قائمة المائة الخالدين .

وربما بدا شيئا غريبا حقا أن يكون الرسول محمد صلى الله عليه
وسلم على رأس هذه القائمة ، رغم أن عدد المسيحيين ضعف عدد
المسلمين ، وربما بدا غريبا أن يكون الرسول عليه السلام هو الرقم الأول
فى هذه القائمة ، بينما عيسى عليه السلام الرقم الثالث وموسى عليه
السلام الرقم السادس عشر .

ولسكن لذلك أسباب : من بينها أن الرسول محمدا صلى الله عليه
وسلم كان دوره أخطر وأعظم فى نشر الاسلام وتدعيمه وأرساء قواعد
شريعته وأعظم وأكثر مما كان لعيسى عليه السلام فى الديانة المسيحية،
وعلى الرغم من أن عيسى عليه السلام هو المسئول عن مبادئ الأخلاق فى
المسيحية ، إلا أن القسديس بولس هو الذى أرسى أصول الشريعة
المسيحية ، وهو أيضا المسئول عن كتابة الكثير مما جاء فى كتاب « العهد
الجديد » . أما الرسول صلى الله عليه وسلم فهو المسئول الأول والأخير
من أرساء قواعد الاسلام وأصول الشريعة والسلوك الاجتماعى والأخلاقى
وأصول المعاملات بين الناس فى حياتهم الدينية والدنيوية ، كما أن القرآن
الكريم قد نزل عليه وحده وفى القرآن الكريم وجد المسلمون كل
ما يحتاجون اليه فى دنياهم وآخرتهم . والقرآن الكريم نزل علم الرسول

صلى الله عليه وسلم كاملاً : وسجلت آياته وهو ما يزال حياً وكان تسجيله
فى منتهى الدقة ، فلم يتغير منه حرف واحد وليس فى المسيحية شىء مثل
ذلك . فلا يوجد كتاب واحد محكم دقيق لتعاليم المسيحية يشبه القرآن
السكريم وكان أثر القرآن السكريم على الناس بالغ العمق ولذلك كان أثر
محمد صلى الله عليه وسلم أكثر وأعمق من الأثر الذى تركه عيسى عليه
السلام على الديانة المسيحية .

فعلى المستوى الدينى كان أثر محمد صلى الله عليه وسلم قوياً فى
تاريخ البشرية وكذلك كان عيسى عليه السلام . وكان الرسول عليه السلام
على خلاف عيسى عليه السلام . رجلاً دنيوياً ، فكان زوجاً وأباً وكان يعمل
فى التجارة ويرعى الغنم وكان يحارب ويصايب فى الحروب ويمرض .
ثم مات .

ولما كان الرسول صلعم قوة جبارة فيمكن أن يقال أيضاً أنه
أعظم زعيم سياسى عرفه التاريخ . . فهذا الامتزاج بين الدين والدنيا هو
الذى جعلنى أؤمن بأن محمداً صلى الله عليه وسلم هو أعظم شخصيات
أثراً فى تاريخ الإنسانية كلها .

هذا رأى حديث ينصف الاسلام ورسول الاسلام ويعطيه حقه :
وأصبح رسول الله بشهادتهم أعظم انسان فى الوجود .

وهناك مؤرخ آخر أنصف الاسلام وتعاليم الاسلام وحضارته وهو
العالم سير توماس أرنولد فى كتابه « الدعوة الى الاسلام » (١٢) .

يقول : « لم تجيء مهمة تبليغ الرسالة فى تاريخ الاسلام بعد تروث
وتفكير واسكنها كانت ملقاة على عاتق المؤمنين منذ البداية ، وقد نرى ذلك
واضحاً فى هذه الآيات القرآنية التى ننقلها هنا مرتبة بحسب تاريخ نزولها .
« ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي
أحسن » (١٣) .

(١٢) توماس أرنولد « الدعوة الى الاسلام » ص ٢٧-٢٨ .

(١٣) سورة النحل آية ١٢٥ ذكرت خطأ فى الترجمة العربية ١٢٦ .

« وأن الذين أوردوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب فلذلك جادلناهم بما هموا بهم وقولهم آمنا بما أنزل الله من كتاب وأنزلنا العدل بينهم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم » الله اجمع بيننا واليه المصير « (١٤) .

وفي الآيات المدنية نجد مثل هذه التعاليم - وقد نزلت على محمد بعد أن أصبح على رأس جيشه الكبير في ذروة سلطانه .

« وقل للذين آمنوا أتوا الكتاب والأمين المسلمتم ؟ فإن آمنوا نقصد أمنوا وإن تولوا فانما عليك البلاغ والله بصير بالعباد » (١٥) .

« نذلك يبين الله لكم ديانته لعلكم تهتدون » ولئن كن منكم أمم يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » .

وهكذا كان الإسلام منذ بدء ظهوره دين دعوة من الناحية النظرية أو الناحية التطبيقية . وقد كانت حياة محمد تمثل هذه التعاليم ذاتها . وكان النبي نفسه يقوم على رأس طبقات متعاقبة من الدعوة المسلمين . الذين وغفروا إلى إيجاد سبيل إلى قلوب الكفار ، على أنه ينبغي ألا نلتزم على روح الدعوة الإسلامية في قسوة المظهد — أو عسف المتعصب ولا حتى في مآثر المحارب المسلم ، ذلك البطل الأسطوري الذي حمل السيف في إحدى يديه وحمل القرآن في اليد الأخرى وإنما نلتزمها في تلك الأعمال الوديعة الهادئة التي قام بها الدعوة وأصحاب المهن الذين حملوا عقيدتهم إلى كل صقع من الأرض ، على أن هؤلاء الدعوة لم يلجئوا إلى اتخاذ مثل هذه الأساليب السلمية في نشر هذا الدين عن طريق الدعوة والاعتناع ، بخلاف ما زعم بعضهم حينما جعلت الظروف القوة والعنف أمراً مستحيلاً ، يتنافى مع الأساليب السياسية ، فلقد جاء القرآن مشدداً في الحض على هذه الطرق السلمية في غير آية منه مثال ذلك :

(١٤) سورة الشورى آية ١٤-١٥ ذكرت خطأ في المرجع السابق آية ١٣ - ١٤ .

(١٥) سورة آل عمران آية ٢٠ ذكرت خطأ في المرجع السابق آية ١٩

« واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا ، وذرني والمكذبين
أولى النعمة ومهلهم قليلا » (١٦) .

« الا بلاغا من الله ورسالاته » (١٧) .

« قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزى قوما
بما كانوا يكسبون » (١٨) .

« وقال الذين اشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن
ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على
الرسل الا البلاغ المبين » (١٩) .

« فان تولوا فانا عطفك البلاغ المبين » (٢٠) .

« ولا تجادلوا اهل الكتاب الا بالتي هي احسن الا الذين ظلموا
منهم ومولوا آمنا بالذي انزل اليك وانزل اليكم . والهكم واحد ونحن له
مسلمون » (٢١) .

« فان اعرضوا فما ارسلناك عليهم حفيظا ان عليك الا البلاغ » (٢٢)
« ولو شاء ربك لكان من فى الارض جميعا ، امانت تكره الناس حتى
يكونوا مؤمنين » (٢٣) .

« وما ارسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا » (٢٤) .

ولم تكن هذه التعاليم مقصورة على السور المسكية : وانما وردت
بكثرة فى الآيات المدنية كقوله تعالى : « لا اكراه فى الدين » (٢٥) .

(١٦) سورة الزمل آية ١٠ .

(١٧) الجن آية ٢٣ ذكرت خطأ فى المرجع آية ٢٤ .

(١٨) الجاثية آية ١٤ ذكرت خطأ ١٣ .

(١٩) النحل آية ٣٥ ذكرت خطأ ٣٧ .

(٢٠) النحل آية ٨١ ذكرت خطأ ٨٤ .

(٢١) الشكوت آية ٤٦ ذكرت خطأ ٤٥ .

(٢٢) سورة الشورى آية ٤٨ ذكرت خطأ ٤٧ .

(٢٣) سورة يونس آية ٩٩ .

(٢٤) سورة سبأ آية ٢٨ ذكرت خطأ ٢٧٩ بالرغم من ان عدد آيات

هذه السورة ٥٤ آية .

(٢٥) سورة البقرة ٢٥٦ ذكرت خطأ ٢٥٧ .

« وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فإنما عنى رسولنا
ابلاغ المبين » (٢٦) .

« قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين » (٢٧) .

« ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلا منهم فاعف عنهم واصفح
إن الله يحب المحسنين » (٢٨) .

وهناك أيضا من المستشرقين أمثال المستشرق قزلى فى كتابه « اليونان
تحت حكم الرومان » (٢٩) « أن نجاح محمد كمشرع بين أقدم الأمم وأثبت
البلدان قدما فى القسانون مدى أجيال طويلة فى شتى نواحي الهيكل
الاجتماعى دليل على أن هذا الرجل الخارق قد كون من مزيج من كفايات
ممتازة » .

أما وليد موير الانجليزى فيقول فى كتابه « حياة محمد » (٣٠)
« ومن صفاته عليه السلام الجديرة بالتنويه والاحترام اللتان
كان يعامل بهما أتباعه حتى أقلهم شأنًا ، فالتواضع والرافة الإنسانية
وانكار الذات والسماحة والأخاء تغلغت فى نفسه ووثقت به محبة كل
من حوله » .

أما السير توماس كارليل فيقول فى كتابه « الأبطال » (٣١) « لقد
أصبح من العار على أى فرد متمدن من أبناء هذا العصر أن يصفى الى
تلك الاتهامات التى وجهت الى الاسلام وإلى نبيه ، وواجبنا أن نحارب
ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة ، فإن الرسالة التى أداها
ذلك الرسول الكريم مازالت السراج المنير لنحو أربعمائة مليون من
الناس »

(٢٦) سورة التغابن آية ١٢ .

(٢٧) سورة الحج آية ٤٩ ذكرت خطأ آية ٤٨ .

(٢٨) سورة المسائدة ١٣ ذكرت خطأ آية ١٦ .

(٢٩) منير البعلبكي « دفاع عن الاسلام » ص ٤٧ .

(٣٠) المرجع السابق .

(31) T.A Cariel. The Herows and Herows Warshig P. 13

أما برنارد شو فيقول (٢٢) « لقد وضعت دائما ديني (صليهم) موضع الاعتبار السامي بسبب حيويته المدهشة : فهو الدين الوحيد الذي يلوح لي انه حائز أهلية الهضم لأطوار الحياة المختلفة بحيث يستطيع أن يكون جوابا لكل جيل من الناس » .

وبذلك نرى أن هناك فريقا من المستشرقين المنصفين حاولوا أن يكونوا وجهة نظر محايدة . وأن يكونوا أمناء في دراساتهم : وأن يتخلصوا عن العصبية والتعصب في عرضهم للإسلام ومبادئه .

ولكن منهم فريقا القوا عن المسلمين عامة وعن المسلمين العرب خاصة ومعظمهم ممن يدعون بالمذاهب الفاشية أو النازية في السياسة والاحداث وطائفة أخرى هي طائفة الماديين المحدثين الذين يدعون إلى الهدم المجاعات القائمة . ويقولون بأن الأديان كافة عقيدة تعترض الإصلاح الاجتماعي الذي يلقي الروحانيات ويستبدل بها الماديات في كل مطلب من مطالب الدنيا ولا حياة غيرها للإنسان .

ونصيب الإسلام عند هؤلاء المحدثين الماديين أوفر الانحسبة وأولاه بالتقديم في خطة الهدم والتشويه لأن المسيحية لاتزاحم مذهبهم الاجتماعي بمذهب شامل لمساكن التشريع والنظم الاجتماعية والحكومة . ولحسن الإسلام يقيم المجتمع على نظامه : ويقرر الحقوق والواجبات بنظامه ويحيط بشئون الدين والدنيا في حياة الأفراد وحياة الجماعات وتغيير البقاء الجديد على أساسه الخالد دون أن يضطر المسلم إلى إنكار قواعد من قواعد العبادات فيه والمعاملات (٢٣) .

لهذا لا بد أن نصل إلى نتيجة هامة وهي أن عمل المستشرقين يفتقر في كثير من الأحوال الطابع العلمي الصحيح . لهذا السبب ولغيره من الأسباب . ولم يكن الانحراف عن جادة البحث العلمي خاصا بطائفة من المستشرقين دون أخرى : فقد كان من الصعب عليهم وأكثرهم مسيحيون ومندنيون أن ينسوا أنهم يدرسون ديننا ينكر عقيدة التثليث وعقيدة الصلب

(٢٢) منير البعلبكي « دفاع عن الإسلام » ص ٤٨ .

(٢٣) عباس العقاد « مايقال عن الإسلام » ص ٩ .

والفداء . وهما أسس الدين المسيحى ، كما كان من المفسر أيضا ان
سماخلوا عن الفتوحات الاسلامية التى بدأت فى عهد الخليفة الاول فى صدر
عقبت على المسيحية وأحلت الاسلام محلها .

الحقيقة ان هذه الحقائق عملت عملها فى نفوسهم فدفعتهم الى
الانحراف والتخلي عن مبدأ الحيادة التامة فيما يتعاملون من دراساتهم ومن
عنا صار من الطبيعى الا نأخذ نتائجهم بروح التسليم والثقة واصبح من
الواجب ان ننظر اليها بعين الحذر والتحفظ .

ومما يؤكد قولنا هذا هو ان هناك فريقا آخر من المستشرقين الذين
حاولوا ان يتجردوا من العواطف الدينية ، وقد أعربوا عن انكارهم للانحراف
العلمى الذى وقع فيه كثير من زملائهم وسنورد بعضا مما قالوه من هذا
الصدد .

يقول الأستاذ مونجمرى وات (٢٤) .

« جد الباحثون منذ القرن الثانى عشر فى تعديل الصور المشوهة
التي تولدت فى أوروبا عن الاسلام : وعلى رغم الجهد العلمى الذى بذل
فى هذا السبيل ، فإن آثار هذا الموقف المجافى للحقيقة التي أحدثتها كتابات
القرون الوسطى فى أوروبا لازالت قائمة : فالبحوث والدراسات الموضوعية
لم تقدر بعد على اجتثاثها » .

ويقول الأستاذ برنارد لويس فى كتابه « العرب فى التاريخ » (٢٥)
« لا تزال آثار التعصب الدينى الغربى ظاهرة فى دوافع عدد من العلماء
المصاعرين ومستقرة فى الغالب وراء الحواشى المخصوصة فى الأبحاث
العلمية » .

ويقول الأستاذ المستشرق الانجليزى جيب فى كلامه عن بحوث
المستشرقين « لقد قامت فى صفوفهم فى السنوات الأخيرة محاولة ايجابية

(٢٤) ابراهيم اللبان « والمستشرقون والاسلام » ص ٢٦ .

(٢٥) برنارد لويس « العرب فى التاريخ » ص ٦٢ .

تحاول النفوذ بصدق وإخلاص الى أعماق الفكر الدينى للمسلمين ، بدل السطحية الناضجة التى اصطفت بها دراساتهم السابقة » (٣٦) .

وعلى الرغم من ذلك ، فإن التأثير بالأحكام التى سبق أن صدرت عن الاسلام واتخذت صورة تقليد منهجى فى الغرب مازال قويا فى بحوثهم » .

ويقول الأستاذ نورمان دانيل « على رغم المحاولات الجدية المخلصة التى بذلها بعض الباحثين فى العصور الحديثة للتحرر من المواقف التقليدية للكتاب المسيحيين عن الاسلام ، فإنهم لم يتمكنوا أن يتجردوا ، أنها مجردا تماما كما يتوهمون (٣٧) .

لا نريد أن نخشى الى أبعد من هذا فى إيراد الأحكام التى صدرت من بعض المستشرقين المصنفين على زملائهم المتعصبين ، فهذا القدر كاف بالنسبة لغرضنا .

(٣٦) ابراهيم اللبان « المرجع السابق » ص ٣٦ .

(٣٧) المرجع السابق ص ٣٧ .

هجوم المستشرقين على الإسلام

من أهم من كتب في الهجوم على العقيدة الإسلامية المستشرق اليهودي الأصل المجري المولد جولدزيهر والذي يعتبر من أشهر علماء الغرب في مجال الاستشراق ، لأنه قد قصد أشهر مدارس الاستشراق للرئاسة في برلين ولييزج وبودابست ، وسافر إلى سوريا سنة ١٨٧٣ وصحبها الشيخ طاهر الجزائري ، ثم توجه إلى فلسطين ومصر ، حيث تطلع في العربية على شيوخ الأزهر (١) وعلى الرغم من ذلك إلا أنه في جميع آرائه وأحكامه عن الإسلام لم يتخل عن نزعته اليهودية فالف كتابا عن « تاريخ الجنس البشري » صور فيه الإسلام أنه من وضع محمد عليه الصلاة والسلام وأن محمدا كان تلميذا لليهود .

والواقع أن فكرة استمداد الرسول القرآن من اليهودية قد استخدمها المستشرقون أوسع استخدام ، فاتهم لم يقتصر على أن ادعوا أن الرسول استمد القصص القرآني من قصص التوراة ، بل ذهبوا إلى أبعد من هذا ، فادعوا أن الرسول استمد كثيرا من أحكام الشريعة الإسلامية وفي قاموس الإسلام لهيوز ترى نماذج كثيرة لهذه المحاولة ففى مادة اليهودية يحاول هيوز أن يرينا كيف اعتب الرسول على اليهودية فانتبس منها كثيرا من أحكام الطهارة وغيرها (٢) .

ويشارك جولدزيهر رأيه « جورج سيل » وهو أحد مترجمي القرآن المبكرين يقول في مقدمة ترجمته :

« أن محمدا كان في الحقيقة مؤلف القرآن والمخترع الرئيسي له فلم لايقبل الجدل ، وإن كان من المرجح ، مع ذلك أن المعاونة التي حصل

(١) نجيب العتيقي « المستشرقون » ص ٢٨١ .

(٢) اللبان « المرجع السابق » ص ٤٥ .

عليها من غيره في خطته هذه لم تكن معاونة يسيرة ، وهذا واضح في أن مواطنيه لم يتركوا الاعتراض عليه بذلك نفسه « (٢) .

وإذا كان جورج سسيل قد بت في مصدر القرآن على النحو السابق فجعل الرسول مؤلفه دون موارد ، فإن الاستاذ « ريتشارد بل » مؤلف كتاب مقدمة القرآن قد سد النقص الذي تركه جورج سسيل في تلك الاكثوية فاستظهر أن الرسول قد استمد من الكتاب المقدس كثيرا مما جاء في القرآن وبخاصة القصص فهو يقول :

« واعتماده على الكتاب المقدس وبخاصة العهد القديم في قسم القصص فبعض قصص العقاب كقصص عاد وثمود مستمد من مصادر عربية ولكن الجانب الأكبر من المادة التي استعملها محمد تفسر تعاليمه يدعمها قد استمدته من مصادر يهودية ومسيحية . وعنده أنه حصل على أربع فرصة للاستمداد من الكتاب المقدس حينما هاجر الى المدينة فهو يقول « وفي المدينة كان محمد بالنسبة لمعرفة ما في كتاب العهد القديم في وضع افضل من وضعه السابق في مكة فقد كان على اتصال بالجاليات اليهودية التي كانت دون شك تضم ربايين ومثقفين ، وهناك دلائل على انه انتفع بهذه الفرصة فحصل على قسط غير قليل من المعرفة بكتب موسى على الأقل » (٤) .

التي جانب ماكتبه جورج سسيل ، فهناك ماكتبه ج . ايزاك في كتابه « محاضرات للشرق الأدنى في العصور الوسطى » جاء فيه ص ٣١ .
وانفق أحمد في أثناء رحلاته أن يتعرف شبيها قليلا من عقائد اليهود والنصارى ، ولما اشرف على الأربعين أخذت تتراءى له رؤى اقنعته بأن الله اختاره رسولا .

ص ٣٢ : والقرآن مجموع ملاحظات كان تلاميذه يدونونها بينما هو يتكلم « وقد أمر محمد أتباعه أن يحملوا الصالح على الاسلام بالسيف ١٥٠ اقتضت الضرورة .

(٣) اللبان « المرجع السابق » ص ٤٣-٤٤ .

(٤) المرجع السابق ص ٤٥ .

ص ٣٦ : ويثبتنا كل من محمد بعد كان المؤمن به بدونه ، كلساته
على عجل .

ص ١٢٦ : ودخلت فلسطين في سلطان الكفرة منذ القرن التاسع
الميلادي (٥) .

وهناك كتاب آخر اسمه « تاريخ فرنسا » تأليف هـ غيومان ،
فـ لوستير . . جاء فيه :

ص ٨٠ — ٨١ : « ان محمدا مؤسس دين المسلمين ، قصد امر
اتباعه ان يخضعوا العالم ، وان يبدلوا جميع الاديان بدينه هـ ، ما اعظم
الفرق بين هؤلاء الوثنيين ، وبين النصارى ، ان هؤلاء العرب قد فرضوا
دينهم بالقوة وقالوا للناس « اسلموا او تموتوا » في حين ان اتباع المسيح
يحووا النفوس ببرهم واحسانهم . باذا كانت حال العالم لو ان العرب
انتصروا علينا ، اذن لكنا نحن اليوم مسلمين كالجزائريين والمراكشيين (٦)

وهي مسألة وضع القرآن بسر المستشرقون في عذا الاتجاه الخاطيء
بمؤكدون على آرائهم في ان القرآن الكريم ، وضوع وليس وحيدا من
عند الله ، انه مرآة لانقي خاص من الحياة هو افق من عقائد تلك العقائد
المنتشرة في رقعة الجزيرة العربية لاسواها . ومن هؤلاء المستشرقين
المستشرق الانجليزي حب استاذ الدراسات العربية بجامعة هارفارد
بالولايات المتحدة . في كتابه « المذهب الحمدي » وكتاب سفيكر تسدل
« مصادر الاسلام » فيها يؤكدان ان شرائع الاسلام تأسست من شرائع
الاديان المعاصرة له والمنتشرة وقتئذ في الشرق الا وهي اليهودية والمسيحية
والهندية ، الصابئة والفارسية والجاهلية (٧) .

ويحسن بنا ان نورد نموذجا لافتراءاتهم في هذا الموضوع ليتبين لنا
بدي خطورة ما يكتبون في كتبهم .

(٥) مصطفى خالدي « التبشير والاستعمار » ص ٧٤ .

(٦) المرجع السابق ص ٧٥ .

(٧) ابراهيم خليل « المستشرقون والمبشرون » ص ٣١ .

(م هـ — الاستشراق)

لقد زعموا أن الاسلام اخذ من الجاهلية صلاة الجمعة وصوم عاشوراء
وتجليب البيت الحرام وحذف الذكر في المرات مثل حظ الأنثيين ، التكبير ،
الأشهر الحرم ، والحج والعمرة ، نفث الابط والوضوء والاغتسال والختان
ومتاعيم الأظفار .

واخذ من الصابئة الصلوات الخمس ، والصلاة على الميت ، وصيام
شهر رمضان ، والقبلة وتعظيم مكة ، وتحريم الميتة ولحم الخنزير ، وتحريم
الزواج من القرابات .

واخذ من الهندية والفارسية ، قصة المعراج والجنسية والحوار
والولدان والصراط .

واخذ من اليهودية ، قصة قابيل وهابيل ، وقصة ابراهيم وقصة
ملكة سبا وقصة يوسف .

واخذ من النصرانية قصة اهل الكهف وقصة مريم العذراء وقصة
طفولة يسوع .

ومن هذا يخلصون بأرائهم الى القول بأن القرآن ليس وحياً من
الله اذ انه لو كان وحياً من عند الله لكان للناس جميعاً في كل مكان وكل
زمان (٨) وأمام هذه النزعات الخطيرة ضد الاسلام يقول الله سبحانه
في شأن القرآن « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » (٩) ويقول عن
الرسول الكريم وعن العرب الذين بعث فيهم « هو الذب بعث في الأميين
رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان
كانوا من قبل لفي ضلال مبين ، وآخرين منهم لم يلحقوا بهم وهو العزيز
الحكيم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » (١٠)
ويقول « انه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ولا
يقول كاهن قليلاً ما تذكرون تنزيل من رب العالمين » (١١) ويقول « الذين
يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجديونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل

(٨) ابراهيم خليل « المستشرقون والمبشرون » ص ٨٤ .

(٩) سورة الحجر آية ١٥ .

(١٠) سورة الجمعة آية ٢ : ٤ .

(١١) سورة الحاقة آية ٤٠-٤٣ .

يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر » (١٢) ويقول جل وعلا في عموم رسالته « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (١٣) .

ويرى الأستاذ عباس العقاد في هؤلاء الذين ينتقدون القرآن « المبشرين المتخصصين لنقد القرآن وعقائد الاسلام آفة من هذه الآفات ، فليس غيبن عرفناهم منهم واحد يسلم من التخطي في التفكير كما يتخطى المصابون بالعلل العقلية ، أو يملكه التعصب الذميم فيقوده الى المغالطة ، ويسول له أن يحجب الحقيقة عن عينيه بيديه ، أو يعمل عمل المحترف الذي يحتال لصناعته بما وسعه من وسائل الترويج والتضليل ، ولا يعنيه إلا أن يعرض بضاعته ويهيئ لها أسباب النفاق في السوق ، وربما اكتفى من النفاق باقتناع صاحب البضاعة بصدق الخدمة في العرض والترويج » (١٤) فالقرآن الكريم معجزة خالدة لرسالة خالدة ، ودراسته تنفي أن يكون شيء من كلام البشر ، والموازنة بينه وبين الأحاديث النبوية تؤكد أن أنبي محمد صلى الله عليه وسلم لا قدر له على الاتيان بقرآن مثله وما فيه من تشريع ديني واجتماعي وسياسي وقوانين ومعاملات وشئون أسرة وعلاقات خارجية ونظام حروب لا يمكن أن يقوم به فرد واحد مهما كانت دراسته ، الى جانب اخبار القرآن بأقاصيص الأمم السابقة وأنباؤه بحوادث مستقبلية ، وتحذره عن خواطر انفسنا ونوازعنا وغرائزنا مالم نهتد اليه الا في ضوء علم النفس الحديث ، وقد الفت كتب عديدة لدرس الاعجاز القرآني (١٥) .

فمن ذلك نخلص الى أن جميع هذه الافتراءات التي يفترى بها المستشرقون على القرآن الكريم ، الذي هو مصدر الهى بلفظه ومعناه ، ليس من عمل محمد ، وإنما هو قول وحى كريم هو جبريل تلقاه من لدن حكيم عليم ثم أوحاه بلسان عربي مبين الى قلب محمد فتلقفه محمد منه كما يتلقن

(١٢) سورة الاعراف آية ١٥٧ .

(١٣) سورة سبأ آية ٢٨ .

(١٤) عباس العقاد « مايقال عن الاسلام » ص ١٦٩ .

(١٥) عبد الجليل شليبي « الاسلام والمستشرقون » ص ٦٩ .

التلميذ من استاذة نصا من النصوص ولم يكن له من عمل بعد ذلك الا :

- ١ — الوعى والحفظ « سنقرئك فلا تنسى » .
- ٢ — الحكاية والتبليغ « وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا » .
- ٣ — البيان والتفسير « وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم » .
- ٤ — التطبيق والتنفيذ « انا انزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما اراك الله » (١٦) .

وقد نقل اليها هذا القرآن كاملا متواترا نقلته اجيال عن اجيال تلاوة باللسنة ، وحفظا فى الصدور ، وكتابة فى المصاحف وشهادة فى التاريخ بتواتر هذا الكتاب شهادة ناصعة لا يماثلها ولا يدينها شهادة لكتاب غيره ظهر على وجه الارض . هذا الكتاب هو المصدر الوحيد لمعتقد الاسلام والمصدر الاول لنظمه وتشريعاته وآدابه وتوجيهاته وقد تلقاه المسلمون بالشرح والتفسير والتحليل ، كل فى مجال عمله واختصاصه واستنبطوا منه احكام دينهم وأصول مجتمعهم ، هذا فى مجال العقيدة ، وذاك فى مجال الفقه والتشريع وثالث فى مجال الآداب والأخلاق . وقد وضعوا الأسس السليمة والقواعد المتينة لفهم هذا الكتاب والاستنباط منه وفق ما عرفوه من أساليب لغتهم العربية وما خطبه لهم النبي من توجيهات وما فهموه من جملة تعاليم الاسلام وروحه العامة .

ولم يجد هؤلاء العلماء فى آيات هذا الكتاب الا التناسق والاتلاف فهى يصدق بعضها بعضا ويفسر بعضها بعضا وما يظنه القاصرون الذين يجهلون اسرار اللغة العربية واساليبها تعارضا او اختلافا فما هو بالتعارض او الاختلاف ، وانما هى نصوص عامة تقبدها نصوص خاصة او آية مطلقة تفسرها آية مقيدة وهكذا (١٧) .

نعم ان فى القرآن آيات محكمات وأخر متشابهات ، كما قال تعالى :
« هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر

(١٦) الفرضاوى والميسال « الاسلام بين شبهات الضالين » ص ٣٥

(١٧) المرجع السابق ص ٣٦ .

منقسابها : فاما الذين في قلوبهم زيغ فيبتغون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله الى الله والراسخون في العلم يقولون امنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا اولو الالباب » (١٨) .

ويقف المستشرقون المعاصرون عند نصوص معينة من القرآن ينخدون من فهمهم الخاطيء لها دليلا على أن محمدا استقى تعاليمه من الكتابيين وليس فيها دليل على ما يريدون . فقد ذكر المستشرق الانجليزى الفرجيوم (١٩) والمستشرق الأمريكى فردريك بلس ان الآية انثى نقول : « يا اخت هارون ما كان أبوك امرا سوا وما كانت أمك بغيا » (٢٠) قد اختلطت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول جيوم ان محمدا كان دارسا مبتدئا للكتاب المقدس فظن أن مريم أم عيسى عليه السلام هي مريم اخت هارون ، مع ان بين عيسى وهرون زمنا طويلا . ويقول بلس « خاطب القرآن السكريم مريم على لسان قومها بعد أن ولدت عيسى ولم يكن لها زوج بقوله يا اخت هارون ما كان أبوك امرا سوا وما كانت أمك بغيا ، ويقول كيف تكون مريم اخت موسى هي التي عاشت قبل المسيح بالث وأربعمئة عام هي أم المسيح » .

ومن العجيب ان يتناقل الفكرة آخرون ويتمسكوا بها ، وكلمة اخت في اللغة العربية لاتعنى فقط الأخوة في النسب ، وانما تعنى مع ذلك الشبيه والمائل . وقد كانت مريم أم المسيح معروفة بورعها وتقاها وهي الأنثى الوحيدة التي تقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا . وكانت تشبه بهارون في ورعها وتقاها (٢١) .

رسالة ١ : اء اءلف فنمار وهو دكتور في الفلسفة فهم هذه تعالى مخاطبا رسوله السكريم : « أمأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » (٢٢) ولم يفهم المعنى الصحيح البسيط وأن الجملة استنهام إنكارى لا استنهام عادى » (٢٣) .

(١٨) سورة آل عمران آية ٧ .
(19) A. Guillaume The legacy of Israel. P. 18.

(٢٠) مصطفى خالدى « التبشير والاستعمار » ص ٤١ .
(٢١) سورة مريم آية ٢٨ .
(٢٢) سورة يونس آية ٩٩ .
(٢٣) مصطفى خالدى « التبشير والاستعمار » ص ٤١ .

وعلى الرغم من هذا الهجوم المستعر الا ان هناك عتولا مستنيرة حاولت ان تقف موقف الجسدية والبحث العلمى الفزيه ، فنرى المستشرق ديزيريه بلانشيه مؤلف كتاب « دراسات فى التاريخ الدينى » يقول « لقد أتى محمد بكتاب تحدى به البشر جميعا أن يأتوا بسورة من مثله فقمعد بهم المعجز وشملتهم الخيبة ويهتوا أمام ذلك الاحراج القوى الذى اغلق فى وجوههم كل باب » (٢٤) .

ويقول الأستاذ ديرمانجيم « لقد تحدى محمد الانس والجن أن يأتوا بمثله وهذا هو برهان رسالته بالمعنى الكامل ، ولم يكن الأمر فى القرآن متعلقا بقيمة أدبية استثنائية . فان محمدا كان يحتقر الشعراء ودفع عن نفسه أن يكون واحدا منهم . ولكن الأمر متعلق بشيء آخر غير هذه القيمة وهو الفرق بين وحى الاله وتلقين الشياطين » (٢٥) .

فبذلك فالقرآن برىء وأكبر من أن ينال منه هؤلاء الحائسون فهو معجزة دالة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يبلنفسه عن ربه ، فالقرآن كلام الله تحدى به الغرب أن يأتوا بمثله فمعجزوا « فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين » (٢٦) وقوله تعالى : « وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبيدنا فأتوا بسورة من مثله » (٢٧) وقوله تعالى : « لنن اجتماعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » (٢٨) وقوله تعالى « ام يقولون افترناه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين » (٢٩) .

وفعللا لم يجرؤ أحد على مر العصور على التحدى وعلى الاتيان بمثله ، خاصة وأن القرآن نزل على قوم يتمتعون بالبلاغة والفصاحة ومنهم الشعراء والخطباء ، فلم يبق الا كلام الله وليس كلام البشر ، وظل القرآن يتحدى على مر العصور ، فالقرآن اذا معجزة خالدة تشهدا بحن الان كما

(٢٤) محمد غلاب « نظرات استشرافية » ص ٣١ .

(٢٥) محمد غلاب « نظرات استشرافية فى الاسلام » ص ٣١ .

(٢٦) سورة الطور آية ٣٤ .

(٢٧) سورة البقرة آية ٢٣ .

(٢٨) سورة الاسراء آية ٨٨ .

(٢٩) سورة يونس آية ٣٨ .

شهادتها الذين أنزل القرآن فيهم لم تغب منه كلمة ، ولم تضم اليه أخرى .
وكما جاء فيه « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » (٢٠) وجاء ايضا
« وترآنا فرقتاه لتقراه على الناس على مكث » (٢١) .

موقف المستشرقين من السنة النبوية :

يزعم المستشرق المجري جولدزيهر أن الاسلام دين تطور على يد
المسلمين ، وذلك بكثرة الاضافات التي جعلت كيان هذا الدين يصل الى
حد لم يعرفه محمد صلى الله عليه وسلم . واول هذه الاضافات السنة ،
فان الوفاء الأحاديث التي ثبت ان الرسول صلى الله عليه وسلم نطق بها
هي من صنع العلماء الذين ارادوا أن يجعلوا من الاسلام ديناً كبيراً شاملاً ،
فخلقوا هذه الأحاديث ويذكر « ان تعاليم القرآن نجد تكملتها واستمرارها
في مجموعة الأحاديث المتواترة ، وهي وان لم ترو عن النبي « صلى الله
عليه وسلم » مباشرة ، تعتبر أساسية لتمييز روح الاسلام » (٢٢) .

ويقول ايضا « ان هذه الأحاديث وغيرها من النصوص المماثلة والتي
يسهل علينا جمعها لاثمّل الأخلاق فحسب بل انها لتعبر عن العاطفة العامة
لفقهاء المسلمين ، ولكن الاسلام خلال توسعه التالي وبفعل التأثيرات
الاجنبية ترك مجالا لدقة العلماء المعنيين ولعلماء العقائد » (٢٣) .

ولابد لنا قبل ان نرد على هذا الهجوم ان نعرف معنى السنة ، فالسنة
ليست الا الطريقة العملية المنضبطة التي نقلت عن الرسول نقلا متواترا
عمليا معروفا عند السكافة ، ومن الوصايا بها على هذا المعنى ماورد من
أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء
الرائدين من بعدي » وقوله صلى الله عليه وسلم « من رغب عن سنتي
فليس مني » فان سبيلها في هذين هو سبيلها في الرخصة السابقة (٢٤) .

(٣٠) سورة الحجر آية ٩ .

(٣١) سورة الاسراء آية ١٠٩ .

(٣٢) جولدزيهر « العقيدة والشرعية » ص ٣١ .

(٣٣) المرجع السابق ص ٣٣ .

(٣٤) حمود شلتوت « الاسلام عقيدة وشرعية » ص ٤١ .

وقد أخذت كلمة سنة عند علماء الأصول معنى آخر وهو ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم من أقوال أو أفعال أو تقريرات . وكأنت بهذا المعنى المصدر الثانى من المصادر التشريعية ، يستنبطون منها كما يستنبطون من المصدر الأول وهو القرآن ، ويرجعون إليها فى فهم المراد منه .

أما الفرق بين القرآن والسنة فيرجع أولا الى أن القرآن قد اتخذ له الرسول صلى الله عليه وسلم كتابا يكتبونه ، ويرتبونه بآياته وسوره حسب ما أمر به من الله ، بينما السنة لم يتخذ لها كتابا ، ولم يكتب منها الا القليل ، بل ورد النهى عن كتابتها بحفظها فى الصدور .

ثانيا : القرآن لم ينقل منه شيء بالمعنى . ومنع ذلك فيه ممعا باتا فى حين أن السنة قد أبيع فيها ذلك ، ونقل كثير منها بالمعنى ، ولا يخفى تفاوت الناس فى فهم المعنى وأسلوب التعبير والنقل .

ثالثا : القرآن نقل الينسا بالتواتر حفظا وكتابة ، ولسكن السنة ، قد نقل معظمها بطرق الأحاد ، ولم يتواتر منها الا القليل .

رابعا : كان الأصحاب يراجعون النبي صلى الله عليه وسلم عند اختلافهم فى حرف من القرآن ، وكان يحكم بينهم فيه ، أما بتعيين احدى القراءتين أو بإجازتهما ، ولسكن السنة لم يعهد فيها شيء من ذلك (٢٥) .

هذه هى حقيقة السنة المحمدية التى حاول هذا المستشرق وغيره الحط من شأنها ورميها باتهامات كثيرة كما رأينا . فسكيف نكون هذه الاتهامات والرسول الذى أثرت عنه هذه السنة ظل قرابة ربع قرن يعظ الناس ويعلمهم ويربيهم ويفتيهم ويبصرهم بما يدعون ويفعلون .

وكان عمله وقوله بداهة يسيران بين يدي الوحي النازل عليه من السماء ، وهذا التراث من الأموال والأعمال تلقفه المسلمون بعناية وتقديره بحكمة والموازن التى وضموها لقبول السنن وردها لاتعرف الدنيا ادق ولا اعدل منها .

فالسنة كما ذكرنا في المصدر الثاني في الاسلام . واذا ثبت ان
محمد رسول الله يوحى اليه كان لما يقوله ويهدي اليه في بيان هذا
الاسلام وتوضيح معالمه وتطبيقه في الحياة منزلة الوحي المعنوي .

« وما اتاكم الرسول فخذوه . وما نهاكم عنه فانتهوا » هذه السنة
مشت في رحاب القرآن ، وعبرت عن روحه شارحة موضعه ، وتركزت
لانساس ابواب الفهم والتجديد في امور حياتهم المتطورة التي تتجمل
بوسائل المعاش التي تتغير بتغير البيئات والازمان ، وفي ذلك يقول
رسول الله صلى الله عليه وسلم « انتم اعلم بشئون دنياكم » (١٦) .

وقد وجدت هذه السنة من الرعاية في حفظها وجمعها وتقنينها من
اندخيل عليها ، مالا يزال التاريخ العلمى يذكره بالفخر والاعجاب .

فقد حاول اعداء الاسلام ان يفسدوا فيها ما ليس منها ليكذبوا نقاءها
فرضعوا احاديث مكذوبة ، وروايات ملفقة ، ونسبوا زورا الى رسول
الله منتهزين ماحاق بالمسلمين من غتن في فترة من الدهر ، ولكن سرعان
ما وقف الافذاذ من سلف هذه الامة الذين كرسوا حياتهم بطونون البلاد
وبجوبون القفار بحثا عن صحيح السنة ، وكشفا عن زائفها ، وكان العهد قريبا
بالرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته ، والامة العربية امة حفظ ووعي ،
فوضع هؤلاء العلماء الاصول والقواعد للرواية وبحثوا عن الرجال وجرحوا
وعدلوا ، والقوا الكتب الكثيرة في التاريخ والسير والاسماء ، ولم
يأخذوا الا عن ثقة عدل حافظ ضابط ، حتى لقد افردوا كتباً للنقاسة من
الرواة ، وكتباً للضعفاء ، وذلك جهد لم يعرف لامة في صيانة تراثها
وتراث نبيها .

وما يقال انهم اهتموا بسند الحديث ورواته دون موضوعه او مثله
فهذا كلام غير صحيح ، لانهم اهتموا بالموضوع فرددوا الحديث الشاذ المخالف
لما عرفوا من اصول ورددوا الاحاديث لعل قاذحة تتصل احيانا بالموضوع
كما تتصل بالسند ، نعم انهم وجهوا جل همهم الى السند والرواة لأن
الموضوع تختلف العقول في قبوله ، ورده حسب عصورهم وثقافتهم وما

خان يعتبر صحيحا مقبولا بالأمس قد يعتبر خطأ مرفوضا اليوم وبالعكس (٣٧)
فقاموا بما عليهم في نقد الرواه وتجلية حالهم وتركوا لمن يأتي بعدهم مهمة
الحكم على موضوع الحديث بما يتفق وما عندهم من وسائل الفهم وموازن
النقد . وهناك رد على جولدزيهر من قبل الأستاذ الغزالي يقول : وهنسا
فتسأل نحن : كيف يتصور هذا المستشرق أن الاسلام ينمو ؟ أن المقطوع
به لديننا وفق النصوص المجمع عليها . ان الاسلام في حياة الرسول
اكتمل في عقائده وعباداته وأخلاقه وأحكامه ، ونصوصه وقواعده ، وان
الرسول انتقل الى الرفيق الأعلى وترك الاسلام على هذا النحو ، وأن
المسلمين من القرن الأول الى يوم النساس هذا يعتبرون أي تزيد على الدين
بدعة تحارب ، ويرفضون من أي مخلوق ومن أي جماعة أن يضموا الى
هذا الدين جسديدا ، فكيف ساع لهذا المستشرق أن يركب هذا
الشطط ؟ (٣٨) .

الفقه الاسلامي والمستشرقون :

لم ينج الفقه الاسلامي من هجمات المستشرقين بل انهم بدأوا يشككون
فيه ، ويذكرون ان هذا الفقه مستمد من القانون الروماني ومعتمد عليه
اعتمادا كبيرا ، كما أنهم عدلوا مواد هذا القانون طبقا للظروف المحلية
وان هذا التراث الذي خلفوه ليسوا بأربابه وان الامامين مثلا الاوزاعي
والشافعي قد درسا القانون الروماني في مدرسة بيروت القانونية (٣٩)
ومن المستشرقين الذين يزعمون ذلك جولدزيهر في كتاب « العقيدة والشرعية
في الاسلام » وكذلك دي بور الذي يقول « بعد أن فتح المسلمون بلادا
ذات مدنيات قديمة نشأت حاجات لم يكن للاسلام عهد بها وحلت محل
نسئون الحياة العربية البسيطة عادات وأنظمة لم يرشد لها التشريع
ارشادا دقيقا الى وجه الحق فيها ، ولم يرد في السنة بالنفي ولا بالتأويل
ما يبين الطريق الى معالجتها . ثم اخذ عدد الوقائع الجزئية يزداد يوما بعد
يوم وهي لم ترد فيها نصوص ولم يكن للمسلمين بد من الحكم فيها ، اما
بما يتفق مع العقل ، واما بما يهديهم اليه ادراكهم لمعنى الخير ، ولا بد من

(٣٧) القرضاوى والعسال « المرجع السابق » ص ٣٨ .

(٣٨) محمد الغزالي « دفاع عن العقيدة والشرعية » ص ٦٤ .

(٣٩) محمد الدسوقي « الاسلام والمستشرقون » ص ٤١ .

أن يكون القانون الروماني قد ظل زمنا طويلا يؤثر تأثيرا كبيرا في هذا الاتجاه في الشام والعراق وهما من ولايات الامبراطورية الرومانية « (٤٠)

ويقول المستشرق ايموس « ان الشرع المحمدي ليس الا القانون الروماني للامبراطورية الشرقية معدلا وفق الاحوال السياسية في الممتلكات العربية » (٤١) .

ويقال المستشرقون في حكمهم على الفقه الاسلامي حتى نرى منهم طائفة تذكر ان الفقه اعتمد اعتمادا كبيرا على الاجتهادات التي تجعله بذلك دينا مصفيا ، كما أنهم وعلى رأسهم المستشرق الأمريكي ارنست جاريسون في كتابه « The march of faith » يذكرون ان الاسلام ماهو الا عمليات فقهية وهي عبارة عن مزيج مشوه من الاراء والمدركات الخاطئة (٤٢) .

ومن هؤلاء المستشرقين أيضا سالون اسنرتزن الذي تخصص في الفقه والتاريخ الاسلامي ، وكذلك المستشرق الفرنسي دي كوروا المتخصص في التشريع الاسلامي والمذاهب الاسلامية وكذلك المستشرق الفرنسي بوتييه الذي درس مذاهب المسلمين ، مبين الذي ترجم الاجازة في غنون التدريس عند الاسلام في المذهب الحنفي والجهناد والزكاة والنشارع الاسلامية (٤٣) .

ولكن هناك بعض المنصفين مثل المستشرق الايطالي فليبي الذي كتب موضوعا عن « نظرات في علاقات الفقه الاسلامي بالقانون الروماني وفيه يذكر ان دومينيكو غانيبي كان اول من زعم ان القانون الاسلامي في جوهره مستمد من القانون الروماني ، ولكنه كان لايعرف العربية ولا التركية بل اهتم بالمسائل القانونية والقضائية » (٤٤) .

(٤٠) محمد الدسوقي « الاسلام والمستشرقون » ص ٤٩-٥٠ .

(٤١) محمد الدسوقي « الاسلام والمستشرقون » ص ٥٠ .

(42) Garrison. The March of faith P. 66.

(٤٣) نجيب العقيلي « المستشرقون » ج ٢ مفرق .

(٤٤) صلاح الدين المنجد « المنتقى في دراسات المستشرقين » ص ٤٦ .

وانتشر هذا الرأي حتى قالوا ان هناك مقارنة بين قوتين حقيقيتين والتشريع الاسلامي ، وزعموا ان القواعد الرومانية دخلت في الاسلام في زي الاحاديث الموضوعة التي نسبت الى محمد .

ومن هؤلاء هنري هيوك الذي قال ان الفقه الاسلامي في الاساس ليس الا القانون الروماني بتعديل لا يذكر (٤٥) .

ويذكر الأستاذ نلينو أدلة مقنعة على خطأ هذه الآراء بين ذلك أنهم يتصيدون بكل جهد التشابهات ويهملون الإشارة الى الاختلافات التي تعتبر أمحطا بين قيمة التشابهات وقدرها ، كما أنهم أهملوا الفرق العظيم الذي يوجد بين الغرب القديم وبين العالم الاسلامي في تصور القسانون وفي مصادره ، كما أن الغرب كان يخلط عندما يتكلم عن القانون الوضعي بينه وبين الفقه الاسلامي لأنه لا توجد ترجمة حرفية للانجليزية مثلا لكلمة فقه الا Law بمعنى قانون وشتان بين الفقه الذي يبحث علاقة المؤمن بالله وبينفسه وبمسائر ابنسائه جنسه وبالعبادات والاحوال الشخصية والوراثية والحقوق المالية والأوقاف والحدود والسير ، ولذلك نجد ان مايفهمه علماء أوروبا عن الفقه الاسلامي هو اختلاف بين القضايا الفقهية » (٤٦) .

والحقيقة ان المزايم الضالة التي نادى بها المستشرقون ان دلت على شيء قائما تدل على جهل الباحثين بحقيقة الشريعة الاسلامية وكنا نعدر هؤلاء المستشرقين لو ان القانون الروماني والتشريع الاسلامي يتفقان في المناهج والغايات او يتشابهان في الحقوق والواجبات او يمارسان في الاساليب والعقوبات .

اما الشريعة الاسلامية فهي تنافض القسانون الروماني في القيم الاخلاقية والاجتماعية وتخالفه مخالفة واسعة الأمد في النظرة الى الانسان وإلى الحياة كلها ، فان القول باستفادة الفقه الاسلامي من الرومان قول بين البطلان .

فالفقه الاسلامي يستقي أولا وآخره من الوحي ، وقد امدد السكتاب

(٤٥) المرجع السابق .

(٤٦) المرجع السابق ص ٤٧ .

والسنة بأحكام كلية وجزئية لا تحصى ، أحكام تناول الإنسان منذ نعومة
أظفاره إلى مثواه الأخير (٤٧) .

والمعروف أنه لم توجد في الحضارات القديمة أية كتب في الفقه
واشتغلت بالشئون التشريعية إلى حد الإسراف مثل ما أثر ذلك عن الحضارة
الإسلامية والأمة الإسلامية ، فالفقه الروماني لا يعدو أن يكون نظماً ضعيفاً
خطؤه أكثر من صوابه لمجتمع تحكمه علاقات فوق البدائية حيناً ودونها
حيناً آخر . وقد قدم ابن خلدون في مقدمته تفسيراً للفقه الإسلامي بأنه
« هو معرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين بالوجوب والحظر والندب
والكراهة والإباحة وهي مطلقاً من الكتاب والسنة ، وما نصبه الشارع
لمعرفتها من الأدلة ، فإذا استخرجت الأحكام من تلك الأدلة قيل لها فقه ،
وكان السلف يستخرجونها من تلك الأدلة على اختلاف فيما بينهم ، ولابد من
وقوعه ضرورة أن الأدلة من النصوص وهي بلغة العرب ، وفي اقتضاءات
الفاظها الكثير من معانيها اختلاف بينهم معروف ، وأيضاً فالسنة مختلفة
الطرق في الثبوت وتتعارض في الأكثر أحكامها فتحتاج إلى الترجيح ، وهو
مختلف أيضاً ، فالأدلة من غير النصوص مختلف فيها وأيضاً فالوقائع
المتجددة لا تنفي بها النصوص وما كان منها غير ظاهر في النصوص فيحمل
على نصوص لمشابهة بنيتها ، وهذه كلها إشارات للاختلاف ضرورة الوقوع
ومن هنا وقع الخلاف بين السلف والأئمة من بعدهم » (٤٨) .

ومن هذا النص يتضح لنا أن هناك فرقاً واضحاً بين الشريعة
الإسلامية والفقه الإسلامي فالشريعة هي النصوص المقدسة من الكتاب
والسنة والفقه هو استنباطات الفقهاء في دائرة النصوص أو فيما لا نص
فيها . والشريعة ثابتة لا تتغير ولا تتطور أما الفقه فهو من متحرك يتغير
ويتطور والشريعة وحى الله والفقه عمل الإنسان اجتهداً لتفسير الشريعة
الله وإسكان منها قلنا الفقه من صنع العقل الإسلامي ، فإن فقهاء المسلمين
كانوا يحرصون حسب طاقتهم على أن يكون اجتهدهم داخل إطار الشريعة،
ويتبعوا لها محاملين التحريم من الأهواء الذاتية ما استطاعوا ولم يهدف
الفقهاء في فقههم إلا إلى ما هدفت إليه الشريعة من رعاية مصالح العباد

(٤٧) محمد الغزالي « دفاع عن العقيدة والشريعة » ص ٨٦

(٤٨) ابن خلدون « المقدمة » ج ١ ص ٨٠٤ .

كما عبر عن ذلك الشاطبي ، لم يهدفوا الى رعاية مصلحة خاصة لطائفة أو فرد أو خليفة ، كيف وكلهم رفضوا المناصب والتربى من الخلفاء وتحملوا الأذى في سبيل تجردهم العلمي .

رفض أبو حنيفة القضاء ، وتقبل السجن راضيا ، وضرب مالك بالسياط في سبيل أن يغير أو يكتف رأيا رآه غلبي ، وأوذى الشافعي من أجل تجرده وأمانته ، واحتمل أحمد بن حنبل من المذابح ما لا يحتمله إلا المؤمنون الأبطال .

وهؤلاء الأئمة الأربعة هم مؤسسو المذاهب السنية المشهورة عند المسلمين . وهذه المذاهب الأربعة وغيرها لا تلزم المسلمين باتباع أحدها ، وإنما هي اجتهادات لأصحابها الذين لم يزعموا لأنفسهم العصمة ، ولم يلزموا الناس بتقليدهم يوما ، ولم ينظر واحد من هؤلاء الفقهاء الى غيره نظرة التعقب أو الخصومة ، بل نظرة ملؤها التسامح والمودة وتقدير آراء الآخرين (٤٩) .

ان في الفقه الاسلامي ثروة من القواعد والتطبيقات والنظرات العميقة في كل مجال من مجالات الحياة اسرية ومدنية وجنائية ودستورية ودولية ، اعرفت بقيمتها وصلاحياتها المؤتمرات الدولية التشريعية الحديثة وهناك عديد من المستشرقين ممن يدخلون في تفاصيل النظم الفقهية الاسلامية يحاولون أن يركزوا على الخلاف الشديد بين السنة والشيعة ، والخلاف بين الشيعة والوهابية محاولين بذلك أن يثبتوا أن الاسلام ليس ديناً موحداً وأنه لا فرق بينه وبين المسيحية المتعددة المذاهب .

واننا في هذا المجال لابد أن نقرر ان الخلاف بين المذاهب السنية وبين الشيعة المعتدلة ليس خلافا جوهريا يمتد الى اصول العقيدة ، وإنما وسع الهوة بينهما اهواء الحكم ودسائس خصوم الاسلام ، فالجميع من سنيين وشيعة يؤمنون بالله واحد ، ويقصدون كتابا واحدا ، ويتبعون رسولا واحدا ، ويتجهون الى قبلة واحدة ، هم جميعا يقيمون الصلاة ، ويؤدون

(٤٩). القرضاوى والمعال « المرجع السابق » ص ٣٩ .

الزكاة ، ويصومون رمضان . ويحجون البيت ان استطاعوا الى ذلك
مسيبلا (٥٠) .

اما بالنسبة للقانون الروماني فهو يختلف كلية عن الشريعة الإسلامية .
فلنأخذ مثلا على ذلك بالنسبة لجريمة القتل في القانون الروماني . فقد
كان لنظام الطبقات المعروف عند الرومان اثر في تطبيق العقوبة . فاذا كان
الجاني من الأشراف رفع عنه القتل واكتفى بنفيه ، واذا كان من اواسط
الناس كانت عقوبته قطع الرقبة ، واذا كان من الطبقة الدنيا كانت
عقوبته الصلب ، ثم غيرت بالقائه في حظيرة حيوان مفترس ثم غير هذا
بالشقوق وعلى الجملة فقد مرت الجرائم عند الرومان بأربعة ادوار كان
آخرها تدخل الحكومة تدخلا مباشرا في المعاقبة على الجرائم باعتبار ان
المصلحة العامة التي تمثلها تقتضي ذلك ، ولم يكن هذا التدخل قائما على
الجرائم الماسة بالحكومة كالخيانة العظمى والثورة ، بل كان شاملا للجرائم
الواقعة على الأفراد كالقتل والسرقة .

وبذلك جعلت الجرائم الخاصة جرائم عامة ، ووقعت الحكومة عليها
عقابا جسمانيا والغت الدية كما الغت الثار ، وبمقتضى هذا الوضع الذي
صار الى الجرائم الواقعة على الأفراد في الأمم الحديثة صار العقاب
عليها من خصائص الحكومة أيضا ، ومنحت الدساتير رئيس الدولة حق
العفو وحق تخفيف العقوبة (٥١) .

معنى ذلك ان القانون الروماني القديم يعطف على الجاني اذا كان
من الأشراف ويقتسو عليه اذا كان من غيرهم ، وكان غير الشريف في نظرهم
لا يلتقى مع الشريعة في صلب رجل واحد ، ولا تنتظمها الإنسانية الواحدة ،
فهو مع نفسه في جانب التفريط بالنسبة الى الشريف ، وجانب الإفراط
بالنسبة لغيره .

اما الإسلام ، فقد قرر التكافؤ بين الناس جميعا في الدماء ، ولم
يجعل لدم أحد فضلا على آخر ، ولم ير في المجموعة البشرية من هذه

(٥٠) المرجع السابق .

(٥١) محمود شلنوت « الإسلام عقيدة وشريعة » ص ٣٠٧ .

الناحية « شريفا » لاتمس حياته بجريمته « غير شريف » يلقي بجريمته للحيوانات المفترسة .

وهذه التسوية بين السلطان والرعية لا يراها الاسلام في حقوق العباد خاصة كالقصاص والأموال ، وانما يراها كما سبق في حقوق الله الخالصة ايضا كحد الزنا والسرقة .

وبهذا الأصل العظيم الذي تنكمش أمام روعته جميع التشريعات البشرية ، أهدر الاسلام نظام الطبقات الذي كان أساس التشريع عند الرومان ، والذي لايزال الطفيان البشري يحتفظ ببعض آثاره (٥٢) .

المستشرقون وانتشار الإسلام

ومن بين الأخطاء الدالة على جهل المبشرين ، تأتي سلسلة طويلة من التحامل والامتراء ، وأشهرها أن الاسلام انتشر بحد السيف . فقد ذكر المستشرق الانجليزي نلسون « لقد أخضع سيف الاسلام شعوب افريقية وآسيا شعبا بعد شعب » (٥٣) ويزعم آخر وهو لطفى ليفونيان « ان تاريخ الاسلام كان سلسلة مخيفة من سفك الدماء والحروب والمذابح » (٥٤) . ويسير على النسق نفسه المؤرخ الانجليزي توماس كارليل الذي كنا نعتبره الى حد ما منصفاً للمسلمين ، نجده في مسألة الجهاد يفسر على النهج نفسه وعلى السيرة نفسها ، فهو يؤكد أن الاسلام انتشر بالسيف إلى القبايلة » (٥٥) .

ولابد لنا أن نرد ردا مقنعا سليما على هذه الادعاءات ونحاول أن نؤيد رأينا ببعض آراء المستشرقين المنصفين الذين كتبوا بالحيدة التامة فنحن نعرف أن الوحي نزل على الرسول الكريم سنة ٦١٠ م وبدا الرسول

(٥٢) المرجع السابق ص ٢١٢ ، ص ٢١٤ .

(٥٣) مصطفى خالدي « التبشير والاستعمار » ص ٤١ .

(٥٤) مصطفى خالدي. المرجع السابق .

(٥٥) منير البعلبكي « دفاع عن الاسلام » ص ٢٢ .

صلى الله عليه وسلم كفاحه في سبيل الدعوة ، ويحدثنا التاريخ انه صلى الله عليه وسلم لم يسير جيشا ، ولم يعلن حربا ، بل جمع الناس عند الصفا بمكة ووقف في جمعهم لا ليثنها حربا ، ولا ليعلنها جهادا ، ولا امرا انما وقف يقول :

« يا معشر قريش : ارايتم لو اخبرتكم ان خيلا بسفح هذا الجبل اكنتم مصدقي ؟ قالوا : نعم . انت عندنا غير متهم ، وما جرينا عليك كذبا قط ، قال فاني نذير لسكم بين يدي عذاب شديد . يا بني عبد المطلب . . يا بني عبد مناف . . يا بني زهرة . . يا بني تميم . . يا بني مخزوم . . يا بني اسد . . ان الله امرني ان انذر عشيرتي الاقربين ، واني لا املك لسكم من الدنيا منفعة ، ولا من الاخر نصيبا الا ان تقولوا لا الله الا الله » (٥٦) .

لكنه شان كل نبي ومصلح كذبه قومه وهجوه وآذوه ، وحاربوه ، بل حاولوا ان يقتلوه بعد ان اعتدوا عليه مرارا . وبالرغم من ذلك لم يشنها حربا ولم يحاول دفع الاذى بمثله بل امر بان يهاجر اتباعه الى الحبشة بعيدا عن الاذى فهاجروا ، وظل رسول الله يدعو ويجاهد في سبيل الله متحملا الایذاء وصابرا على مساومات الكفار ثلاث عشرة سنة حتى بدا يفكر في رد العدوان وكان الله سبحانه وتعالى قد امره بالقتال في قوله : « اذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير . الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله » (٥٧) .

وابتدا الصراع بين جبروت الشرك ودموة الاسلام الذي استقر عدة اعوام وقعت فيها الغزوات المعروفة ، وكانت كلها ردا على عدوان المشركين وغدر اليهود .

وفي الوقت الذي كان فيه الصراع دائرا داخل الجزيرة العربية بين توري الايمان والشرك كانت هناك دولتان استعماريتان كبيرتان تتنازعا على العالم اذ ذاك وتقرضان سيطرتهم على اجزاء من بلاد العرب هما دولتا الفرس والروم . ولم يكن المسلمون في هذا الوقت بحيث يفكرون في فتح امبراطوريات ضخمة مثل فارس والروم ، والعدوان عليها ، وانما بسدا هؤلاء بالشر والعدوان وقد حاول الرسول عليه الصلاة والسلام عرض

(٥٦) ابن سعد « الطبقات الكبرى » ج ١ ص ١٨١ .

(٥٧) سورة الحج آية ٣٩ .

(م ٦ - الاستشراق)

الاسلام على هذه الدول المجاورة بالحسنى ، فلم يلق منهم الا التعتنت والتجبر ، بل وقتل المبعوثين وبدأت هذه الدول تتحرش بالدولة الاسلامية الناشئة فمما كان منها الا ان بدأت في رد العدوان وحمية الدعوة الاسلامية .

ولم يكن فتح المسلمين للدول المجاورة فتح استعمار أو سلب أو نهب وانما كان ازالة للسلطات الطاغية ، وتأمينا للحريات ، ونشرا لمبادئ العدل والمساواة .

ومما يؤيد قولنا في أن الاسلام كان يحارب ردا للعدوان وللمساساة الدعوة الاسلامية ونشرها بين أمم السكفر قول الله تعالى : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » (٥٨) .

ويقول كذلك « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » (٥٩) وفي سورة التوبة يقول سبحانه وتعالى « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين » (٦٠) .

وفي سورة البقرة « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله » فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين » (٦١) .

وقوله تعالى في سورة الاعراف « ادعو ربكم تضربا وخفيصة انه لا يحب المعتدين » (٦٢) .

وقوله في سورة ق « القيا في جهنم كل كفار عنيد مناع للخير معتد مريب » (٦٣) .

ومن اخلاق الاسلام في الحروب انه قد نهى عن الخيانة فيقول تعالى في سورة الانفال « واما تخافن من قوم خيانة ، فانبذ اليهم على سواء » (٦٤)

-
- (٥٨) سورة البقرة آية ١٩٠ .
 - (٥٩) سورة البقرة آية ١٩٤ .
 - (٦٠) سورة التوبة آية ٣٦ .
 - (٦١) سورة البقرة آية ١٩٣ .
 - (٦٢) سورة الاعراف آية ٥٥ .
 - (٦٣) سورة الاعراف آية ٢٤ .
 - (٦٤) سورة الانفال آية ٥٨ .

فلا بد اذا من اعلان الهجوم حتى يكونوا والعسوي على سواء في الاستعداد ويتسمى الاسلام في اخلاق الحرب فيطالب بتسامين من طلب الامان فيقول تعالى في سورة التوبة « وان احد من المشركين استجارك فآجره حتى يسمع كلام الله ثم ابلغه مأمنه ذلك بانهم قوم لا يعلمون » (١٥)

والاسلام دين سلام ، لم يحبذ القوة ، ولم يدع للحرب ، بل انه دعا للسلم فيقول في سورة الأنفال « وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه هو السميع العليم » (١٦) .

فالواضح ان الاسلام يحذر من الحرب لغير هذه الأغراض التي ذكرتها فكل ما سوى هذه الأغراض الانسانية الاصلاحية الحققة من المقاصد المادية والشخصية او النفعية ، وان الاسلام لا يجيز الحرب من اجلها بحال من الأحوال وذلك واضح كل الوضوح في اضافة الاسلام القتال او الجهاد دائما الى سبيل الله ، فلا نجد واحدة من هاتين الكلمتين في بحث من البحوث الاسلامية الا مقرونة بهذا السبيل ، على ان القرآن الكريم قد صرح بتحريم كل قتال بغير هذه الأغراض المشروعة ، وأكدت هذا التحريم احاديث النبي صلى الله عليه وسلم وسجل التاريخ ذلك لأصحابه الذين لم يريدوا بقتالهم شيئا ابدا الا وجه الله وتحقيق المقاصد المتقدمة كلها او بعضها وفي ذلك قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ، ولا تقولوا لمن اتى اليكم السلام لست بؤمنا تبغون عرض الحياة الدنيا ، فعند الله مغائم كثيرة » (١٧) .

هذه هي الأسباب التي دعت الى الحروب التي خاضتها الامة الاسلامية ونشرت بها الدعوة الاسلامية الاصلاحية لصالح الانسانية مما أصابها من فساد وتدهور ، لذلك سأورد هنا بعض آراء لبعض المستشرقين المنصفين منهم المستشرق بودلي الذي يقول « كان القرشيون أنفسهم سببا من الأسباب التي دفعت محمدا الى الالتجاء للقوة ، إذ استمر عداء أبي جهل لمحمد في درجة الغليان ، فقد كان يغير على جماعات المسلمين المتحركة

(١٥) سورة التوبة آية ٦ .

(١٦) سورة الأنفال آية ٦١ .

(١٧) سورة النساء آية ٩٤ .

بإستمرار ، ويقتل أية جماعة منعزلة يكمن لها ، وقد اغار على ضواحي المدينة : وأتلف الزرع والحدائق فأظهر لمحمد أن شموه لم يتبدل ، وأن هدفه لا يزال قتله ، فلم يكن هناك إلا حل واحد من وجهة نظر الجانبين وهو القتال « (٦٨) » .

ويتول جيمس متشنر في مقاله « اخترت الدفاع عن الاسلام » .

« لم يحدث في التاريخ أن انتشر دين بهذه السرعة ، فعند وفاة محمد سنة ٦٣٢ م ، كان الاسلام يحتل جانبا كبيرا من شسبه الجزيرة العربية ، ولم يلبث بعد ذلك أن ضم اليها سوريا وبلاد الفرس ومصر والتخوم الجنوبية لروسيا ، وامتد الى شمال افريقيا حتى بلغ مداخل اسبانيا . وفي الزمن الذي جاء بعد ذلك كان تقدم الاسلام باهرا ، واعتقد أن توسع الاسلام ما كان يمكن أن يتم لو لم يعتمد المسلمون الى السيف ولكن الباطنيين لم يقبلوا هذا الرأي . فالقرآن صريح في تأييده لحرية العقيدة ، والدليل قوى على أن الاسلام رحب بشعوب مختلفة الأديان مادام التعاون مع أهل الكتاب أى اليهود والنصارى ، ولا شك أن حروبا قد نشبت بين المسلمين وغيرهم من النصارى واليهود وفي بعض الأحيان وكان سبب ذلك أن أهل هذه الديانات الأخرى أصروا على القتال . وفي القرآن آيات تصور العنف الذي استخدم في هذه الحروب ، ولكن الرهبان قطعوا بأن أهل الكتاب كانوا يعاملون معاملة طيبة ، وكانوا أحرارا في عباداتهم » (٦٩) .

ومما يؤكد صحة هذا القول أن الاسلام أمر بأن تكون الدعوة له بالسلم وليست بالحرب ، ولم يشرع الزام الناس بالاسلام بالقوة ، فمن تعاليمه الوارد في القرآن الكريم « لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » (٧٠) .

وقوله « من اهتدى قاتما يهتدى لنفسه » ومن ضل فائما يضل عليها » (٧١) .

(٦٨) عبد الرزاق نوفل « الاسلام والعلم الحديث » ص ٢٨ .

(٦٩) عبد الرزاق نوفل — المرجع السابق ص ١٢٧ .

(٧٠) سورة البقرة آية ٢٥٦ .

(٧١) سورة النمل آية ٩٢ .

وقوله تعالى « ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالنهى هي احسن » (٧٢)

ومما يشهد لحب الاسلام ونبيه في السلام ان امره اليومى الاول الذى أصدره عندما اضطر الى الحرب كان « لا تقتلوا امرأة ، ولا وليدا ، ولا شيخا ، ولا تقطعوا شجرة ، ولا تحرقوا نخلا ، ولا تمثلوا بأحد ، ولا تكونوا ناهبين واجتنبوا الوجوه لا تضربوها » (٧٣) .

ومما يؤكد ان الاسلام لم ينتشر مطلقا بالحرب ما ذكره الأستاذان ج. فاج ورولان اوليفر . « من ان الاسلام لم يتخذ طريقه وراء الصحراء بافريقية الا بعد انحلال دولته الكبرى في المغرب ، وكانت وسيلة الاسلام لهذه البقاع هي الثقافة والفكر والدعوة ، فانتشر الاسلام بين شعوب البربر وبين الزوج وقامت خلف الصحراء دول اسلامية لعبت في التاريخ دورا كبيرا » (٧٤) .

وتقول الباحثة الألمانية أليس ليكنفس اديستر « ان التخيير ببلاد الفرس والروم لم يكن بين الاسلام والسيف وانما بين الاسلام والجزية وهي الخطة التي استحدثت الثناء لاستنارتها حين اتبعت بعد ذلك في انجلترا ابان حكم الملكة الياصابات » (٧٥) .

ويذكر المؤلف جوستاف لوبون في كتابه « حضارة العرب » آراء كثيرة ومتعددة حول عملية انتشار الاسلام ، ويؤكد آراءه بأراء أخرى مستشرقين غربيين يقول جوستاف لوبون « العبارات الاتية اعتطفها من كتب الكثيرين منهم تثبت ان راينا في هذه المسألة ليس خاصا بتسا حال روبرتسون في كتابه « تاريخ شارلمان » « ان المسلمين وحدهم هم الذين جمعوا بين الفيرة لدينهم وروح التسامح نحو اتباع الأديان الأخرى وانهم مع امتثالهم الحسام نشرا لدينهم ، تركوا من لم يرغبوا فيه أحرارا في التمسك بدينهم الدينية » (٧٦) .

(٧٢) سورة المنكبوت آية ٦ .

(٧٣) المقرئى « امتاع الأسماع » ج ١ ص ٥٣٦-٥٣٦ .

(٧٤) Roland oliver. , A short history of Africa. P. 77. (٧٤)

lies. Lictenst , Islam and the modern age , P. 57. (٧٥)

(٧٦) جوستاف لوبون « حضارة العرب » ١٢٨ .

وقال ميشو في كتابه « تاريخ الحروب الصليبية » « ان القرآن الذى امر بالجهاد متسامح نحو أتباع الأديان الأخرى ، وقد أعفى البطارقة والرهبان وخدمهم من الضرائب ، وحرم محمد قتل الرهبان لعكونهم على العبادات ، ولم يمس عمر بن الخطاب النصارى بسوء حين فتح القدس ، فذبح الصليبيون المسلمين وحرقوا اليهود بلا رحمة ، وقتلوا دخلوها » .

ويؤكد جوستاف لوبون ان التاريخ أثبت ان الأديان لا تفرض بالقوة ، فلما قهر النصارى عرب الأندلس فاضل هؤلاء القتل والطرده عن آخرهم على ترك الاسلام (٧٧) .

ويستطرد جوستاف لوبون قائلا « ساعد وضوح الاسلام البالغ وما أمر به من العدل والاحسان كل المساعدة على انتشاره في العالم ، ونفس بهذه المزايا سبب اعتناق كثير من الشعوب النصرانية للاسلام كالمصريين الذين كانوا نصارى أيام حكم قياصرة القسطنطينية ، فأصبحوا مسلمين حين عرفوا أصول الاسلام ، كما نفس السبب في عدم تنصراية أمة بعد ان رضيت بالاسلام ديناً ، سواء كانت هذه الأمة غالبية ام مغلوبه » (٧٨) .

ومصادقاً لكلامنا هذا حول عملية انتشار الاسلام ، وما حاول المستشرقون المغرضون أن يذيعوه بين الناس من أنه لم ينتشر الا بحسد السيف ما ذكره السير توماس أرنولد في كتابه « الدعوة الى الاسلام » يقول « أما ولايات الدولة البيزنطية التي سرعان ما تولى عليها المسلمون ببسالتهم ، فقد وجدت أنها تنعم بحالة من التسامح لم تعرفها طوال قرون كثيرة بسبب مائشاع بينهم من الآراء اليعقوبية والنسطورية ، فقد سمح لهم أن يؤدوا شعائر دينهم دون أن يتعرض لهم أحد ، اللهم الا اذا استثنينا بعض القيود التي فرضت عليهم منعا لاثارة أى احتكاك بين أتباع الديانات المتنافسة ، او اثارة أى تعصب ينشأ عن اظهار الطقوس الدينية في مظهر المفاخرة حتى لا يؤدي ذلك الشعور الاسلامي . ويمكن الحكم على مدى هذا التسامح الذى يلفت النظر في تاريخ القرن السابع من هذه العهود

(٧٧) جوستاف لوبون « المرجع السابق » ص ١٢٨ .

(٧٨) المرجع السابق .

التي أعطاهم العرب لأهالي المدن التي استولوا عليها ، ونعاهدوا لهم بحماية أرواحهم وملكاتهم وإطلاق الحرية الدينية لهم في مقابل الأذعان ودفع الجزية » (٧٩) .

ويقول توماس أرنولد في موضع آخر « وإذا نظرنا إلى التسامح الذي امتد على هذا النحو إلى رعايا المسلمين من المسيحيين في صدر الحكم الإسلامي ظهر أن الفكرة التي شاعت بأن السيف كان العامل في تحويل الناس إلى الإسلام بعيدة عن التصديق ، ومن ثم لم يكن بد من التماس بواعث أخرى غير ذلك الباعث الذي أوحى بالاضطهاد .

ونلمس مصداقا لكلامنا هذا أن أهل الذمة عاشوا عيشة طيبة في ظل الحكم الإسلامي وناهيك عن أخلاق الخليفة عمر بن الخطاب وموقفه منهم بعد سقوط بيت المقدس وهي المدينة التي يقدسها المسيحيون لما بها من آثار دينية وروحية عظيمة . فنجد أولا أنه أعطاهم عهدا وأمانا به « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أعطى عبد الله أمير المؤمنين أهل أيلياء من الأمان . أمانا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وسقبيهم وسائر ملكهم ، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من خيرها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم » (٨٠) .

وإذا أمعنا النظر في هذا النص لوجدنا أن الإسلام لم يجبر أحدا على الدخول فيه ، ولو كان بالسيف لفعلوا كما فعل المسيحيون الأوائل لأجبار الناس على الدخول في المسيحية .

والدليل على سماحة الإسلام بالنسبة لأهل البلاد المفتوحة وأنه لم يجبرهم على الدخول فيه بالسيف أن المسيحيين عاشوا في مجتمعهم آمنين على حياتهم ناعمين بمثل هذا التسامح الذي منحهم حرية التفكير الديني « تمتعوا وخاصة في المدن بحسالة من الرفاهية والرخاء في الأيام الأولى من الخلافة .

(٧٩) توماس أرنولد « الدعوة إلى الإسلام » ترجمة حسن إبراهيم حسن : ص ٧٤ .
(٨٠) المرجع السابق ص ٨٨ .

وقد توسع معاوية ٦٠/٤١ هـ فى الحاق المسيحيين بخدمته وحذا حذوه فى ذلك افراد آخرون من البيت المسالك ، وطالما شغل المسيحيون مناصب عالية فى بلاط الخليفة مثل الأخطل وهو عربى نصرانى كان شاعرا لبلاط ، ومثل أبى القسديس يوحنا الدمشقى مستشار الخليفة عبد الملك ٨٦/٦٥ هـ .

وكان فى خدمة الخليفة المعتصم ٧٧/٢١٨ هـ اخوان مسيحيان بلغا منزلة سامية عند امير المؤمنين أحدهما يدعى سلموبه ويظهر أنه كان يشغل منصبا قريب الشبه من منصب الوزير فى العصر الحديث ، وكانت الوثائق المسكية لا تتخذ صفة التنفيذ الا بعد توقيعها عليها ، على حين عهد الى أخيه ابراهيم بحفظ خاتم الخليفة كما عهد اليه بخزانة بيوت الأموال فى البلاد ، وكان المنتظر من طبيعة هذه الأموال وتصريفها ان يوكل أمر الاشراف عليها الى رجل من المسلمين . وقد بلغ من ميل الخليفة الشديد الى ابراهيم أنه عاده من مرضه الأخير وغمره الحزن حين وفاته ، وأنه أمر فى يوم تشييع جنازته باحضار جثمانه الى القصر حيث أقيمت له الطقوس المسيحية فى خشوع مهيب .

واختار عبد الملك عالما مسيحيا من مدينة الرها يدعى ثئناسيوس مؤدبا لأخيه عبد العزيز وقد رافق اثناسيوس هذا تلميذه الى مصر عندما عين واليا عليها ، وهنساك جمع ثروة طائلة قيل أنه امتلك أربعة آلاف من العبيد ، كما ملك كثيرا من الدور والبساتين (٨١) .

وما ذلك الا دليل على ان المسلمين لم يكرهوا احدا على الشؤل فى دينهم وانما كانوا يسرون على قوله تعالى « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى احسن » (٨٢) .

والواقع ان التسامح الاسلامى هذا يخالف ما اتصف به المسيحيون الأوائل من عنف ووحشية ، فنرى المذابح العنيفة التى قام بها أباطرة الرومان بدءا من الأمبراطور قسطنطين ليجبروا شعوبهم على الشؤل فى المسيحية بعد أن قبلتها الدولة ديننا رسميا لها . ولا ادل على ماغسله

(٨١) توماس أرنولد : المرجع السابق ص ٨١ .

(٨٢) سورة الفحل آية ١٢٥ .

شارلمان مع المسكونين الوثنيين لجبرهم على الدحر في المسيحية من المذابح العظيمة التي قام بها ضدهم ، ولا نفسى عصر نيكلايانوس الامبراطور البيزنطى الذى سمى عصره بعصر الشهداء وما قلم به الامبراطور جالينوس من اضطهاد وتعذيب .

اما اليهودية فتاريخها حافل بالمذابح والحروب العنيفة ، لا لتهود الناس بل لتجليهم عن اراضيهم وتستولى على ممتلكاتهم فهم يرون انفسهم شعب الله المختار « قالوا ليس علينا في الاميين سبيل » وبهذا استباحوا دماء الشعوب الأخرى واعتبروهم اتباعا لهم ، اما الاسلام فهو دين اناس عامة ، والناس كلهم غيصة سواء . وبهذا نجد ان الاسلام قد سلم من وصمة التعصب كما سلم من وصمة الاكراه .

وأول كتاب حديث قرأنا فيه تفيرا « سلميا » لآخلاق المسلمين التى يستوحونها من دينهم هو هذا الكتاب وعنوانه « دولة الباكستان » مؤلفه البروفيسور وشبروك وليامز صاحب الدراسات الواسعة في شؤون الشرق الأوسط وشؤون الهند والباكستان ، فقد سبقه كثير من كتاب اللغات الأوربية الأخرى الى تحليل حركات المسلمين في الهند مع الدولة البريطانية ومع طوائف الوطنيين هنالك من غير المسلمين فكانت خلاصة تحليلاتهم لتلك الحركات جميعا انها وليدة التعصب الدينى او وليدة الروح العسوانية التى انفردوا بها بين أبناء وطنهم ، ولكن مؤلف هذا الكتاب يعلل هذه الحركات للمرة الاولى بين انفساء لغته وعقيدته بانها وليدة البحث : لا عن وطن يستطيع فيه المسلم أن ينطلق من قيود المستغلين فحسب بل هي وليدة السعى الى اقامة بلاد تسود فيها آداب الاسلام وتمنع فيها ظلم الاغنياء للفقراء ، ويتبع فيها الولاة وصايا العدل الاجتماعى التى يتعلمونها من سماحة الشريعة (٨٢) .

ويقول عن تقاليد الاسلام : « ان هذه التقاليد تشمل مبادئ المساواة

(٨٣) عباس العقاد « مايقال عن الاسلام » ص ١٣٧ .

بين العناصر الانسانية أمام الله وتقرر أوامر ارحوة العالية بين جميع المؤمنين بغير نظر الى العنصر أو اللون ، كما تقرر فريضة الدفاع عن الضعيف وحمايته ممن يجورون عليه ، واغاثة المعوزين والمحرومين ، وبذل الحياة نفسها في سبيل الصراط المستقيم ، ومعاملتهم من ثم للبلاد الأخرى لا تجعلهم حريصين على القلو في اثبات وجودهم والتصلب في املاء تقاليدهم الحرفية أو الوقوف موقف الاحكام والاعتذار (٨٤) .

الإسلام والتجديد

يذكر المستشرق جولدزيهر « أن الاسلام يكره التجديد ، وكل بدعة في نظر الجماعة الاسلامية موضع للشك والشبهة ، وظهورها مدعاة للاسي اذ أنها تهدد وحدة الجماعة وتؤدي الى انهيار الشريعة » (١) .

ولم يبين هذا المستشرق مكان البدعة والفترة المستحدثة اهي في الدين ام في العلوم والآفكار .

اما في الدين وفي المعاملات المبنية على قواعد دينية فهذا امر طبيعي لان الاسلام لو اعتنق كل فكرة مستحدثة لا تقرها قواعده ، وأسسها مابقى منه شيء ولا كان ثمة اسلام .

كان الريا متفشيا في الجاهلية ، فحرمه الاسلام ، وفي العصور الحديثة نشط التعامل بالريا وقامت عليه بنوك ومؤسسات ، اذ أن هذا التعامل هو ما منعه الاسلام وقضى عليه . وشاع في الحضارة الأوروبية اتخاذا الخيليات ، وقل أن تجد فتاة لا رفيق لها أو نثى لارقيقة له ، وقد جاء القرآن الكريم بقوله « فأنكحوهن بأذن اهلن ، وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا يتخذات أخدان » (٢) .

فهل يبيع علماء المسلمين لشعوبهم عادة نهى عنها الاسلام ؟ انهم ان فعلوا ذلك خرجوا عن الاسلام ، وقل مثل هذا في ظاهرة التبرج والزينة والرقص ، واختلاط الرجال بالنساء في الشواطىء ، وما الى ذلك من العادات التي يحرمها الاسلام (٣) .

اما المبتكرات في المعارف ومكتشفات العلوم فهذه يشجعها

(١) جولدزيهر « العقيدة والشريعة » ص ٣ ص ٥ ع ٥ .

(٢) سورة النساء آية ٢٥ .

(٣) عبد الجليل شلبى « الاسلام والمستشرقون » ص ٤٦ - ٤٧ .

الاسلام ويدعو لها ، فالاسلام يدعو الى التفكير واعمال العقل ، فأولى آياته تدعو الى العلم « اقرأ باسم ربك الذى خلق » (٤) وقوله تعالى « ن والقلم وما يسطرون » (٥) وقوله تعالى « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » (٦) وقوله تعالى « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » (٧) وقوله تعالى « يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة ، فقد أوتى خيرا كثيرا » (٨) .

والأحاديث الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تدعو الى طلب العلم منها . « طلب العلم فريضة على كل مسلم » (٩) . ومنها « اغد عالما أو متعلما أو مستمعاً » (١٠) وقول الرسول الكريم « فضل العلم أحب الى من فضل العبادة » (١١) أى أنه فضل العلم على العبادة فيها منفعة خاصة أما العلم ففيسه نفع للمجتمع ، بل أنه عليه السلام فضل العلم على مازاد على فرض الصلاة ، فقال « لأن تغدى تتعلم بابا من العلم خير لك من أن تصلى مائة ركعة » (١٢) .

وكذلك رغبة فى نشر العلم ومنع كتمانته ، قال الرسول « من سئل من علم فكتمه ، ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة » (١٣) .

والدليل العملى على اهتمام الرسول بالعلم والبحث العلمى هو أنه جعل فداء الأسرى فى غزوة بدر تعليم عشرة من أبناء المسلمين ، وذلك يقضوا على الجهل حتى تصبح دولة الاسلام هى دولة العلماء .

والدين الاسلامى يحث دائما على التفكير والبحث ، واعمال العقل ، وليست مصادفة أن تتكرر فى القرآن الكريم آيات الدعوة الصريحة

-
- (٤) سورة العلق آية ١ .
 - (٥) سورة القلم آية ١ .
 - (٦) سورة المجادلة آية ١١ .
 - (٧) سورة الزمر آية ٩ .
 - (٨) سورة البقرة آية ٢٦٩ .
 - (٩) رواه بن ماجه ، وابن عبد البر .
 - (١٠) رواه البيهقى .
 - (١١) رواه الطبرانى فى الأوسط .
 - (١٢) رواه بن ماجه والطبرانى بسند صحيح .
 - (١٣) رواه بن ماجه .

الى النظر فى خلق السموات والأرض وما فيها قال تعالى « قل انظروا
ماذا فى السموات والأرض وما نحن الايات والنذر عن قوم لا يؤمنون » (١٤)
وقوله تعالى « اولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض ؟ وما خلق الله
من شيء » (١٥) وقوله تعالى « افلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها
وزيناها وما لها من فروج » (١٦) .

وتتعدد الآيات التى تدعوا الى النظر والعلم والتدقيق ، وسأترك
لذلك شرحا وافيا مفصلا فى كلامى عن الاسلام والحضارة العلمية .

وبالنسبة للتجديد الذى يقصده المستشرق فنجد ان المجتمع الاسلامى
بطرا عليه تعديل من حين الى حين . وتحدث له مشكلات جديدة ما عرفها
السلف فلا بد ان يجد لها المجتمع ، على ضوء مبادئ الاسلام ، حولا
ليبقى المجتمع الاسلامى هائسا ، ولا يجد المؤمنون عبرا ، ولا مشقة ولا
حرجا فيما استحدث فى مجتمعهم من تطور حضارى ومادى ، لذلك جاء
فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان الله يبعث لهذه الأمة
على رأس كل مائة سنة من يجدد لى هذه الأمة دينها » (١٧) اى يدلها على
احكام ما استحدث فى المجتمع ويصلح ما اهل من الدين ، وما اضيف
عليه مما هو ليس منه .

وهذا التجديد ضرورى لحياة المجتمع وضرورى لحماية الدين نفسه
لان التجديد سنة الحياة ، وكان المجتهدون موجودين فى كل عصر من
العصور السابقة ليواجهوا الامور الاضطرابية (١٨) ، قال تعالى « وقد
فصل لكم ما حرم عليكم الا ما اضطررتم اليه » (١٩) ، قال رسول الله

(١٤) سورة يونس آية ١٠١ .

(١٥) سورة الاعراف آية ١٨٥ .

(١٦) سورة ق آية ٦ .

(١٧) رواه ابو داود عن ابي هريرة .

(١٨) صلاح الدين المنجد « المجتمع الاسلامى » ص ٦٤ .

(١٩) سورة الانعام آية ١١٩ .

صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل حين ولاه على اليمن : بم تقضى ؟ قال :
بكتاب الله . قال : فان لم تجد ؟ قال : بسنة رسول الله . قال : فان
لم تجد . قال : اجتهد رأيي ، فأقره الرسول على ذلك ، وكتب عمر بن
الخطاب الى ابي موسى الأشعري في هذا الشأن « الفهم الفهم فيما تلجلج
في صدرك ، مما ليس في كتاب الله ولا سنة النبي صلى الله عليه
وسلم ، ثم اعرف الاشباه والأمثال ، فقم الأمور عند ذلك بنظائرها ،
واعمد الى اقربها الى الله واشبهها بالحق » (٢٠) .

وهذا الاجتهاد للتجديد واجب لأن الدين جاء لرعاية مصالح الناس
وتوجيههم وتحسين احوال معاشهم ، والأمور المستحدثة دائماً ، فلا بد من
الاجتهاد على أن يراعى فيه العدل والمصلحة .

وهذا الأمر هو الذى دفع ابن قيم الجوزية الى القول « يجب أن
نتنهي من قول العلماء الذين يقولون ، هذا لا يوافق الشرع ، وهذا لم يقل
به الرسول وان نتبع سياسة المصلحة أى ما يوافق الناس ويكون فيه
صلاحتهم » (٢١) ولا بد أن نشير في هذا المجال الى أن التاريخ الاسلامي
منذ نشأته الى يومنا هذا يؤكد على الاهتمام بالتجديد والابتكار والبحث
العلمي ، وهل ورث التاريخ في غير الأمة الاسلامية هذا العدد من
الكتب التي كتبها المسلمون على اختلاف الاقطار والعصور ، وهل يعرف
التاريخ لغير المسلمين هذا القدر من العلماء الذين سجلت سيرهم في
كتب الطبقات ، وتاريخ البلاد والتراجم العامة ، ثم هل عهد التاريخ من
قبل المسلمين أمة حصلت ونفذت وحقت ، ودقت كما فعل المسلمون في
الأحاديث ورواتها ثم في علوم اللغة ، وعلوم الشريعة ، وعلوم الطبيعة
وغيرها وأخرجت من حفظة القرآن وأمة الشريعة حكماء ورياضيين
وفلسكيين وأطباء .

(٢٠) ابن حزم « جمهرة أنساب العرب » ج ١ ص ٢٥٥ .

(٢١) ابن القيم الجوزية « الطرق الحكيمة » ص ١٤ .

ومما تميز به المسلمون في طلب العلم وقلبي الأخبار التحري والتثبت ، وبذل الجهد في النقد ، وتمييز الزائف من الصحيح والحق من الباطل .

وكان خلفاء المسلمون وأمرأؤهم وكبرأؤهم يتنافسون في دعوة العلماء والأدباء اليهم ، ويتفاخرون بهم تضم مجالسهم من كبار العلماء ونابهي الأدباء وقد جعل الاسلام الأرض كلها للمسلم مسجداً وطهوراً ، جعل الأرض كلها دار تعلم وتعليم ، فالمسلم مأمور أن ينظر في السموات والأرض وآثار الأمم وسيرها ، وأن يطلب العلم حيث كان ويتلفظ الحكمة اتي وجدها فهو يتعلم في الحضر والسفر ، وفي المسجد والدار .

وكانت مساجد المسلمين منذ انشئت دار تعليم منذ جلس المعلم الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم ، يعلم أصحابه في مسجد المدينة الى يومنا هذا (٢٢) .

ودور العلماء كذلك كانت مقصد طلاب العلم يتلقونه عن نبيغ منه وعرف به ويقطعون اليه الفياض والقفار . ولما بنى المسلمون دورا للعلم خاصة لم تختلف هذه الدور عن المساجد الا بمساكن المعلمين والطلبة فيها ، ولم يبعد التعليم عن المساجد بعد بنائها ، فالمدرسة مسجد والمسجد مدرسة .

وكثير من مساجد المسلمين التي نراها اليوم سميت في التساريخ مدرسة ، اذ لم يفرق المسلمون بين العبادة بالصلاة والعبادة بالتعليم والتعلم ، فكانوا يبنون الابنية فهي مساجد للصلاة ، وهي مدارس للعلم (٢٣) .

(٢٢) عبد الوهاب عزام « الاسلام والعلم » ص ١٤٣ .

(٢٣) المرجع السابق ص ١٤٤ .

أثر حق العلم في البيئة الإسلامية :

وقد كان لتقرير الإسلام في هذا الحق الثابت لجميع الناس آثار بعيدة في المجتمع الإسلامي نذكر منها :

١ — ان العلم كان يشمل جميع الفئات ، حيث كان يبدأ من الفرد ثم يعم الأسرة ، فتد جاء في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » (٢٤) .

ومسئولية الرجل في اهله تشمل تاديب اولاده ، وتعليم زوجته وهدايتهم الى سبل الخير والفلاح ، قال علي رضي الله عنه في تفسير قوله تعالى « قوا انفسكم واهليكم نارا » علموا اهليكم الخير (٢٥) .

٢ — ان العلم كان مشاعا في المجتمع ميسرا لكل انسان ، في المسجد وفي المدرسة وفي الحلقات العلمية ، وفي المكتبات العامة ، فلم يعرف المجتمع الإسلامي ارسقراطية العلم او انحصاره في فئة معينة ، كما كان محصورا في رجال الدين عند أكثر الأمم القديمة وخاصة عند الغربيين حتى عصر النهضة .

٣ — سارت الحضارة والعلم مع الدين جنباً الى جنب في تاريخ الحضارة الإسلامية ، حتى اعترف بعض مؤرخي الغرب بأن حينة قرطبة في ايان ازدهارها ، كانت تحتوى على ملىسونى نسمة ليس فيهم امى واحد (٢٦) .

٤ — بعد افول شمس الحضارة الإسلامية ، لم تقف حركة العلم ، بل استمرت ولو في نطاق ضيق — حتى عصر نهضتنا الحاضرة ، ونمى بذلك استمرار اتبال الناس على العلوم الشرعية خاصة من تفسير وحديث وفقه وأصول وعقيدة وغيرها . وعلى العلوم الأدبية كاللغة

(٢٤) رواه البخارى ومسلم .

(٢٥) رواه الحاكم .

(٢٦) مصطفى السباعى « من روائع حضارتنا » ص ٩٨ .

والأدب والتاريخ وسواها ، وبعض العلوم الرياضية كالحساب
والفلك والهندسة (٢٧) .

لقد استثمرت المساجد والمدارس والمكتبات تؤدي رسالتها في نشر
هذه العلوم ، ونشير هنا بصورة خاصة الى علم الفقه . فاعتقل
الاسلامى رغم ركوده بعد عصور الحضارة الاسلامية الزاهرة لم
ينقطع عن التفكير في التشريع في اية بيئة اسلامية كانت مسواء في
العواصم او القرى وسواء في مراكز الحضارة او الأماكن النائية ،
كاليمن او نجد او حضرموت او اواسط افريقيا لم تنقطع ابدا حركة التأليف
في الفقه على مختلف المذاهب ، وبذلك أصبح الفقه الاسلامى ، ثروة نامية
لا مثيل لها في امة من امم العالم .

(٢٧) مصطفى السباعى « اشتراكية الاسلام » ص ٧٠ .

(م ٧ — الاستشراق) .

الفصل الرابع

المستشرقون والنظم الإسلامية

المستشرقون ونظم الحكم فى الاسلام

لم يسلم نظام الحكم فى الاسلام من اقلام المستشرقين المغسولين الذين حاولوا أن يشككوا المسلمين فى عدل النظم السياسيه التى جاء بها الاسلام ، بل وارانوا ان يجرّدوا الشريعة الاسلاميه من الصفة الكبرى التى اتصفت بها وهى أنها دين ودولة . فهذا كتاب صدر سنة ١٩٦٢ م ألفه ه/ب شرابى وهو أستاذ مساعد بجامعة جورج تاون وعنوانه « الحكومات والسياسة بالشرق الأوسط فى القرن العشرين » .

يقول المؤلف عن موقف الشريعة من نظم الحكم « اذا دققنا فى القول لم نجد فى الاسلام نظرية مستقلة للحكومة ، اذ كل ما يرتبط بالحكومة والدولة يدخل فى نطاق الديانة ، فلا فاصل بين الدينيات والدنيويات ، والمسلم الذى يدين بالله وبرسالة نبيه محمد عضو من أعضاء الجماعة الإسلامية يحق الانتماء الى الديانة فقط ، لا بحق القرابة أو اللغة أو العنصر ، ومن الوجهة السياسية تتسم الجماعة الإسلامية ، أو الدولة الإسلامية بسمات أربع وهى :

١ - أن الله رأسها والقرآن كما تنزل على النبى دستورها الوحيد .
٢ - أن كلمات الله هى الشرع الوحيد وليس للجماعة أن تجرى لها شرا غير .

٣ - أن وظيفة دستور الحكومة وشكلها واحكامها ابدية ، ولا يمكن تغييرها كيفما اختلف الزمان والمكان .

٤ - أن الغاية من الحكومة هى إقامة الدين وتنفيذ كلمات الله قال :
« ويتضح من هذا أن الشريعة - وهى جملة الأوامر الإلهية - ليست لنا بالمعنى المفهوم من القسّاون فى العصر الحديث ، ولكنها قضايا

معصومة ترسم للمسلم احكام سلوكه فى حياته كلها دينيا وسياسيا واجتماعيا وفى الاسرة والبيت « (١) » .

معنى ذلك ان هذا المستشرق يحاول أن يشوه حقيقة الشرع الاسلامى بالنسبة للحكومة الاسلامية ، بل وينفى عنه أنه جاء بشيء لتنظيم الحياة الانسانية ، بل وجعل الحكومة حكومة ثيوقراطية بمعنى الكلمة ، اى انها لا تمس النواحي الدنيوية ، ولا يستطيع المسلم او يضيف الى هذه الشريعة شيئا يتلاءم مع تطورات العصر اى انها شريعة دينية جامدة .

ونسكننا لابد ان نوضح لهذه الفئة من المستشرقين حقيقة الحكومة الاسلامية ، وطبيعة العلاقة بين الحاكم والمحكوم فيها .

فلاسلام دين ودولة ، لانه نظم شئون الدين والدنيا معا ، فكلما تكلم عن الملائكة والانبياء والجنة والنار والعبادات وغيرها من شئون الدين ، تكلم كذلك عن البيع والشراء والزواج والطلاق والميراث وغيرها من شئون الدنيا ، ووضع الاسلام لهذه وتلك القوانين والنظم ، والزم المسلمين باتباعها ، وحدد عقوبة المخالفين .

يذكر جولدزيهر . بة اخرى وهى « ان سلطة الخليفة كانت مطلقة فى كل مكان ، ولم يكن هناك نظام يتدخل بين الحاكم ورعاياه لتقييد سلطته » (٢) .

اذا اردنا ان نفند هذا الاتهام ، فعلينا ان ننظر الى الدولة الاسلامية عامة ، والى اول خلفائها اى بكر الصديق الذى يعتبر مثالا يحتذى فى الحكومة الاسلامية المثلى فقد طبق ما جاء به الشرع فى شئون الناس الدينية والدنيوية .

كان هذا الخليفة الحاكم راس الدولة ، اختير من بين صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم ، واشترط فى اختياره امور شرعية كثيرة ، منها العلم ، والعدل ، والكفاية وسلامة الحواس ، والنسب القرشى .

(١) عباس العقاد « مايقال عن الاسلام » ص ١٣١ .
(٢) جولدزيهر « العقيدة والشريعة » ج ٣ ص ٥٤٥ .

وإذا استعرضنا مجموع خلفاء الاسلام — حسب الراشدين — نجد انهم نماذج مشرفة لتطبيق سياسة الدين والدنيا ، وحسبنا في ذلك عمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان وعلى بن ابي طالب ، وعمر بن عبد العزيز وغيرهم من الخلفاء .

فهؤلاء الخلفاء ان لم يسوا خلفاء دينيين فقط ، وانما هم خلفاء دين ودنيا ، فليست النظم الاسلامية مثل النظم الغربية تتجسس بين السلطتين ، فلا يعرف الاسلام سلطة الكهنوت ، ولا يعرف العصمة لاحد الا المرسلين (٣) .

والحاكم والخليفة ليس معصوما من الخطأ في تصرفاته ، وليس له قداسة مترفعة عن مستوى الناس ، كيف وهو فرد من الالة جاء عن طريق الاختيار والبيعة وعليه ان يستشيرها ، ويأخذ رأي اهل الحل والعقد فيها .

معنى ذلك ان الحكم في الاسلام قائم على اساس الشورى ، وماهى الا المسمى الحديث « الديمقراطية » قال تعالى « وأمرهم شورى بينهم » (٤) وقوله تعالى « فيها رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم ونساوهم في الأمر » (٥) .

وهاتان الآيتان تبينان ان اختيار الحكومة ليس معناه تسليم كل الامور اليها ، وانقطاع رأي الناس ، بل توضيح ان واجب الحاكم ان يستشير ليس فقط ، اهل الحل والعقد ، بل جماعات اوسع من المسلمين ، بل المسلمين جميعا في مهام الامور اذا أمكن ذلك بطريق الاستفتاء العام او أى طريق آخر ، والاية الاولى تصوغ هذه الفكرة صياغة رائعة فهي لا تتجه الى أسلوب الأمر بالمشاورة ، وانما توضح ان المشكلات انما هي مشكلات الامة ، وان الامور امورها فطرح هذه المشكلات للامة للتشاور

(٣) القرضاوى والعسال « الاسلام بين شبهات النصارى » ص ٢٩

(٤) سورة الشورى آية ٣٨ .

(٥) سورة آل عمران آية ١٥٩ .

ولرغبة الوصول الى حل سليم أمر عادي ، هو في الحقيقة وضع الأمور في نصابها واعطاء الحق لصاحبه .

اما الآية الثانية ، فلم تكف بالأمر بالمشاورة ، وانما رسمت اخلاق الاسلام وروحه التي يجب ان يتحلى بها الحاكم ، فأوصفته بالرحمة ولين الجانب والعفو والتسامح والهدوء للمسلمين بالمغفرة ، وكل هذه المظاهر تمهد للمشاورة (١) .

معنى ذلك أن الحكومة في الاسلام تتميز بصفتين :

١ - الحرية السياسية ، وهذه تتجلى كما ذكرنا في مبدأ الشورى ، فلا استبداد في الرأي من قبل الحاكم ولا قلة تتحكم في السكنة .

٢ - هناك حرية في التفكير والنصح والنقد وإبداء الرأي فالحرية مصانة ، وكل مسلم له الحق في ان يبدي رايه في أعمال الحاكم وأعمال أخوانه اذا كان فيها ضرر على المجتمع الاسلامي ، وله أن يفتي على الخطأ ويحل على الطريق الحسن ، وهذا هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يفعل ذلك دون ان يخشاه ظلماً أو تعذيباً أو سجناً (٢) .

وكذلك فان له أن يقترح على الحاكم ما فيه الخير للمجتمع .
خطب عمر بن الخطاب في الناس عندما أراد القول من طاعون عبواس فقال : « من علم شيئاً ينبغي العمل به فليعلمنا نعمل به ان شاء الله (٣) » .

٣ - هناك حرية التملك فانت تستطيع ان تملك ما تشاء بالحق أي بسعيك ومالك ، ليس بالسرقة أو الرشوة أو الاغتصاب ولا يحق لأحد من الناس ولا للحاكم ان ينزع حق التملك منك ، ولا ان يأخذ من مالك الا برضاك ليس غصباً ولا سرقة ، ولا تأميراً قال رسول الله صلى عليه

(١) أحمد شلبي « مقارنة الأيمان » ص ٢٥٨ ح ٣ .
(٢) صلاح الدين المنجد « المجتمع الاسلامي » ص ٢٢ .
(٣) ابن كثير « البداية والنهاية » ج ١ ص ٢٩ .

وسلم « كل المسلم على المسلم حرام - دمه وماله وعرضه » (٩) ولا تقيد الملكية الا اذا أدى استعمالها الى الاضرار بالغير .

واذا تركنا ذلك ونظرنا الى العلاقة بين الحاكم والمحكوم في الاسلام نجدها في قوله تعالى « اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولى الامر منكم » (١٠) فالحاكم الذي يبايعه المسلمون لضمان حقوقهم ومراجعتهم في واجباتهم له عليهم حق السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره، وهذا يعنى مؤازرة الحاكم في كل شئ مادام يتقيد بالشرع او مئام متصفا بشروط الامامة فاذا خرج عن الشرع او فسد شروط الامامة فلا طاعة له (١١) .

وهناك نماذج مشرفة في الاسلام لهذه العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، ولا يفوتنا اننا نتوه هنا بعهد الخليفة العظيم عمر بن الخطاب الذي ضرب اروع مثل في هذه العلاقة الحرة الديمقراطية ، حتى نراه يوما يصعد المنبر خطيبا فيقول على حسب رواية بن الجوزي « لا تزيدوا في مهور النساء على اربعمائة درهم من زاد القيت الزيادة في بيت المال » ثم غادر المنبر فلتبرت اليه امرأة من صف النساء تقول « ما ذلك لك » فمسأها ولم ؟ فاجابت لان الله تعالى قال « وان اردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم احدا من قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا تأخذونه بهتانا واثما مبينا » فقتل عمر : اصابت امرأة واخطأ عمر ، ثم رجع الى المنبر فقتل : ايها الناس كنت نهيتكم ان تزيدوا النساء في صدقاتهن على اربعمائة درهم فمن شاء ان يعطى من ماله ما احب وطابت به نفسه فليفع (١٢) .

هذا دليل بسيط على ديمقراطية الاسلام ، وكيف كانت العلاقة بين

(٩) خطبة حجة الوداع . انظر بن هشام « السيرة النبوية » ج ٤

ص ١٩٢ - ١٩٣ .

(١٠) سورة النساء آية ٥٩ .

(١١) محمد المذني « المجتمع الاسلامي كما تنظمه سورة النساء »

ص ١١٥ .

(١٢) عائشة عبدالرحمن « المرأة المسلمة بين الامس واليوم » ص ٨٦

الحاكم والمحكوم ليس هناك حجابا يحجب بينهم ، ولا مانع يمنع أحدا من مجادلة الخليفة بما يراه فى مصلحة الاسلام ، وليس هناك ما يمنع انسانا من ان يأخذ حقه من الخليفة سواء اكان هذا الحق حقا ماديا ام معنويا ، فالاسلام هو دين الديمقراطية الحقة .

وقد افرد بن عبيد ربه فى كتابه « العقد الفريد » كتابا للهو اعظ والزهد وهو ملء بها وعظ به العباد رجال الحكم من الخلفاء .

ويكفى ان نثبت صلاحية الحكم فى الاسلام بما يثبت من تقدم الشعب ورفاهيته فى عهد الخلفاء الراشدين فالفساد الذى طرأ فى عهد متأخر لا يرجع الى تآتون الاسلام ، وانما الى التخلى عنه .

ويكفى ان نؤيد رايضا هذا برأى فيليب حتى المستشرق المعساذى للاسلام ، والذى عاب من قبل شخص الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولسكنه انصف الحكومة الاسلامية فى قوله : « لم تكد تهر مائة عام على وفاة مؤسس الاسلام ، حتى صار اتباعه سادة امبراطورية اعظم من امبراطورية روما ايان مجدها ، امبراطورية امتدت من خليج بسكاي الى نهر السند ، ومن تخوم الصين وبحر آرال الى الهندل انجليا من النيل » وكان اسم النبى العربى مقترنا بلفظ الجلالة ، تردده الالفنة خمس مرات فى اليوم من آلاف المآذن المتناثرة فوق جنوب أوربا وشمال افريقيا ، وغرب آسيا ووسطها (١٢) .

حقيقة ان الدين الاسلامى لم يهمل النظم السياسية التى سيساس بها العالم ، فقد قرر هذا الدين فى محكم آياته مبدأ المساواة بين الناس

(١٢) فيليب حتى « تاريخ العرب » ص ١١٢ .

تامة ، والمرأة والرجل والصغير والكبير ، والغنى والفقر والوالى
والصامى كلهم متساوون مساواة تامة ، والله سبحانه وتعالى هو الذى
جعل الناس شعوبا وقبائل مختلفة متعددة : والجميع متساوون امام الله
واكرمهم عند الله اتقاهم (١٤) .

قال تعالى : « يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى ، وجعلناكم
شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان اكرمكم عند الله اتقاكم » (١٥) وقوله
تعالى : « يا ايها الناس اتقوا ربكم الذى خلق من نفس واحدة وخلق
منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء » (١٦) .

وبهذا اقر الاسلام بان الخلق ابنساء اب واحد وام واحدة فى اصلهم
فمهما كان موطن مولدهم ، ومهما كان وضع طبقتهم فهم متساوون ، فلا
تفاخر بالانساب ولا تبساض باللقاب ، يقول تعالى : « يا ايها الذين
آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى ان يكونوا خيرا منهم ، ولا نساء من نساء
عسى ان يكن خيرا منهن ، ولا تلمزوا انفسكم ولا تبايزوا باللقاب » (١٧) .

ولم تكن المساواة معروفة قبل الاسلام . بل كان يسود المجتمعات
البشرية نظام الطبقات ، والتفرقة الكبيرة بين الطبقة والاخرى بل بين
افراد الطبقة الواحدة ، فكان اذا قتل لقبيلة عبد اجتمع افرادها ليقرروا
ما يساوى عبيدهم من افراد القبيلة . وقد جزم القرآن الكريم بالتصاوص
فى سورة البقرة « يا ايها الذين آمنوا كتب عليكم التصاوص فى القتلى
الحر بالحر والعبد بالعبد والانثى بالانثى » (١٨) .

(١٤) عبد الرزاق نوفل « الاسلام والعلم الحديث » ص ١١٣ .

(١٥) سورة الحجرات آية ١٣ .

(١٦) سورة النساء آية ١ .

(١٧) سورة الحجرات آية ٤٩ .

(١٨) سورة البقرة آية ١٧٨ .

وبهذه المساواة التامة بين أفراد الجنس البشرى حصن المسلمون
ضد الانتقاسات التي نشاهدها في معظم بلاد العالم ، ولعل ما يعثرى
العالم على فترات الزمن من جور الأمم بعضها على بعض ، وبغى
الأفراد بعضهم على بعض يرجع كله الى عدم المساواة ، فما زالت بعض
الأمم تعتبر أفرادها من جنس مفضل على جنس أفراد غيرها ، وما زالت
الفرقة العنصرية واختلاف الأصل بين الدول الكبرى سببا في اندلاع
الثورات وعدم الاستقرار .

المستشرقون والنظم الاقتصادية في الاسلام

لاقت النظم المالية في الاسلام من زكاة وصدقة وماء وغنائم وجزية وخراج وضرائب متنوعة وجهات نظر ، وآراء هدامة من قبل المستشرقين ، فمنهم من بين قيمة هذه النظم ، وانها نظم عادلة لم تجاف الحق ، ولم تظلم احدا ، ومنهم من تجنى عليها وربما بالقصور والظلم ، وذكر « ان الاسلام ليس الا دين تشريع ومعاملات ، ولم يأت للناس بنظام مفصل للشئون الاقتصادية والحياة السياسية » (١) .

وهناك ماكتبه ماكس بريشم العالم السويسري في حديث مجحف يجافى الحقائق التاريخية ، فقد انتهى فيه الى ان نظام الجزية في الاسلام اضطر الكثير الى الدخول في الاسلام تخلصا من الضرائب الثقيلة التي فرضت عليهم ، واعفى منها المسلمون ، وايضا لتكون لهم المسكنة الاجتماعية التي يتمتع بها المسلمون دونهم « ولم يخل كلامه من تضارب واضطراب (٢) » .

وهناك رأى لأحد المستشرقين يدعى فيليب فوتداس خاض بالزكاة في الاسلام ، يقول « ان الاموال المادية في نظر الاسلام هي من اصل نجس شيطاني ، ويحل للمسلم ان يتمتع بهذه الاموال شريطة ان يطهرها » وذلك بارجاع هذه الاموال الى الله « . ويظهر ان الشارح اخذ من قوله تعالى : « خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » (٣) . أي — على

(١) محمد غلاب « نظرات استشرائية » ص ٥٨ .
(٢) عبد الجليل شلبي « الاسلام والمستشرقون » ص ٩٧ .
(٣) سورة التوبة آية ١٠٣ . .

اعتقادهم — ان الاموال نجسة في اصلها، واذن فالزكاة وسيلة لتطهيرها، وبذلك فهم التطهير فهما حربيا او حسيا (٤) .

ورأيت قبل ان اُفند افتراءات المستشرقين ، وَاُرد شبهاتهم ان انكر بعضا من آراء المتصنفين منهم ، فالسير توماس ارنولد يقول في موضوع الجزية « لم يكن الغرض من فرض هذه الضريبة على المسيحيين ، كما يريد بعض الباحثين على الظن — لونا من الوان العقاب لامتناعهم عن قبول الاسلام وانما كانوا يؤدونها مع سائر اهل الذمة ، وهم غير المسلمين من رعايا الدولة الذين كانت تحول ديانتهم بينهم وبين الخدمة في الجيش في مقابل الحماية التي كفلتها لهم سلاطين المسلمين ، ولما قدم اهل الحيرة المسال المتفق عليه ذكروا صراحة انهم انما دفعوا هذه الجزية على شريطة ان يمنعونا واميرهم البغي من المسلمين وغيرهم ، وكذلك حدث ان سجل خالد في المعاهدة التي أبرمها مع بعض اهالي المدن المجاورة للحيرة قوله « فان منعناكم فلنا الجزية والا فلا » .

ويمكن الحكم على مدى اعتراف المسلمين الصريح بهذا الشرط من تلك الحادثة التي وقعت في حكم الخليفة عمر ، لما حشد الامم، راطور هرقل جيشا ضخما لصد قوات المسلمين المحسنة ، كان لزاما على المسلمين نتيجة لما حدث ان يركزوا كل نشاطهم في المعركة التي احدثت بهم ، فلما علم بذلك ابو عبيدة قائد العرب كتب الى عمال المدن المفتوحة من الشام يأمرهم بان يردوا عليهم ما جبي من الجزية من هذه المدن وكتب الى الناس يقول « انما رددنا عليكم اموالكم لانه بلغنا ما جمع لنا من الجموع ، وانكم قد اشرتبطتم علينا ان تمنعكم ، وانا لانقدر على ذلك ، وقد رددنا عليكم ما اخذنا منكم ، ونحن لسكم على الشرط ، وما كتبنا بيننا وبينكم ان نصرنا الله عليهم » وبذلك وردت مبالغ طائلة من مال الدولة ، فدعا المسيحيون بالبركة لرؤساء المسلمين ، وقالوا : ردكم الله علينا

(٤) محمد البهي « الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار » ص ٥٢ نقلا عن فيليب فونداس « دراسة عن الاسلام في افريقيا السوداء »

ونصركم عليهم . « أى الروم » فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئا ، واخذوا كل شيء بقى لنسا ، ويستطرد توماس أرنولد قائلا : ان الجزية فرضت على القسادرين من الذكور مقابل الخدمة العسكرية التى كانوا يطلبون بأدائها لو كانوا مسلمين (٥) .

والى جانب رأى توماس أرنولد نضيف ما ذكره المؤرخ فيليب حتى فى هذا الصدد — على الرغم من عدائه للاسلام — « كان أهل الذمة يتمتعون فى نظير دفع الجزية والخراج بحظ كبير من التسامح الدينى ، وكانوا يخضعون حتى فى الأمور المدنية والقانونية جميعا الى رؤسائهم الرئيسيين » (٦) .

والمعروف ان الجزية وجبت على أهل الذمة ، كما وجبت الزكاة على المسلمين ، حتى يتكافأ الفريقان ، وهما رعية لدولة واحدة فى المسئولية ، كما تكافأ فى التمتع بالحقوق وتساويا فى الانتفاع بالرافق العامة للدولة ، فليست الجزية دينا على الذمى يستوفى منه بالوسائل التى تستوفى بها الديون ، فمن وجبت عليه الجزية ومات او أسلم قبل دفعها لم تؤخذ من تركته ، ولم يطالب بها ورثته (٧) .

وانما تجب الجزية على الرجال الأحرار المعتقلاء الأصحاء الثاقبين على الدفع ، ولا تؤخذ جزية من مسكين يتصدق عليه ، ولا من لا قدرة له على العمل ، ولا من الأعمى ، او المقعد او المجنون وغيرهم من ذوى الإعاقات ولا من أحد من المترهبين فى الأديرة وأهل الصوامع الا ان كان غنيا .

ويلاحظ ان الشرع لم يفرض الجزية الا على الأشخاص الذين يجب

(٥) توماس أرنولد « الدعوة الى الاسلام » ص ٧٩ .

(٦) فيليب حتى « تاريخ العرب » ص ٢٣٣ .

(٧) أبو يوسف « كتاب الخراج » ص ١٣٢ .

عليهم الجهاد لـ وكانوا مسلمين ، وانه اعنى منها الاشخاص الذين يعطيهم من القتال .

وفى ذلك يقول الماوردى « واسمها مشتق من الجزاء ، فيجب على اولى الامر ان يضعوا الجزية على رقاب من دخل الذمة من اهل الكتاب ليقرأوا « يستقروا » بها دار الاسلام ويلتزم لها ببذلها بحقين ، احدهما الكف عنهم ، والثانى الحماية لهم ، ليكونوا بالكف آمنين وبالحماية محروسين » (٨) .

اما مقدار الجزية فقد قسمها ابو حنيفة ثلاثة اقسام :

١ — اغنياء يؤخذ منهم ثمانية واربعون درهما .

٢ — ومتوسطون يؤخذ منهم اربعة وعشرون درهما .

٣ — وفقراء يكسبون ويؤخذ منهم اثنا عشر درهما .

واما جباية الجزية فقد اوصى صاحب الشرع وقادة الاسلام بالرفق والانصاف فى جبايتها من اهل الكتاب وصيانة ارواحهم واموالهم من عبث الجبساء والولاء ، وتقضى القاعدة الفقهية او دستور الاسلام فيما يتعلق بطريقة اخذ الجزية من دائعها بان « لا يضرب احد من اهل الذمة نقي استيلائهم الجزية » اى لحملهم على ادائها ، ولا يقاوموا فى الشمس ولا غيرها ، ولا يجعل عليهم فى ابدانهم شئ من المسكاره ، واسكن برفق يحبسون حتى يؤدوا ما عليهم » (٩) .

ويستقرأ هذه النظم تجسد انها نظما عادلة راعت حالة الشعب الاقتصادية ، ولو قارنا ذلك باحوال هذه البلاد فى العهدين الرومانى والبيزنطى ، فقد كانت هناك نظم جائرة ، فقد كان الروم يجبون منها

(٨) الماوردى « الاحكام السلطانية » ص ٢٦٣ .

(٩) ابو يوسف « كتابه الخراج » ص ١٣٣ .

عشرين ألف ألف دينار ، وان الفراعنة كانوا يجبون تسعين ألف ألف .

اما عن الخراج ، فقد وضح انه ضريبة على الأرض التي يفتحها المسلمون فتصبح فينا لهم ، والواقع ان المسلمين بدأوا أولا بالسلم ويعرض الاسلام على اهل البلاد المفتوحة ، فاذا لم يجيبوا الى الاسلام فالحرب بينهم ، وبذلك تصبح اراضيهم من جملة الفء ، وقد ذكر ابو يوسف في كتاب الخراج ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه كتب الى مسعود بن ابي وقاص حين افتتح العراق « اما بعد فقد بلغنى كتابك تذكر فيه ان الناس سألوك ان تقسم فيهم مغانمهم ، وما افاء الله عليهم ، فاذا اتاك كتابي هذا ، فانظر ما اجلب الناس عليك به الى العسكر من كراع ومال فاقسمه بين من حضر من المسلمين واترك الارضين والانهار لعمالها ليكون ذلك في اعطيات المسلمين ، فانك ان قسمتها بين من حضر لم يكن لمن بعدهم شيء ، وقد كنت امرتك ان تدعو من لقيت الى الاسلام قبل القتال ، فمن اجاب الى ذلك قبل القتال فهو رجل من المسلمين له مالهم وعليه ما عليهم ، وله سهم في الاسلام ، ومن اجاب بعد القتال وبعد الهزيمة فهو رجل من المسلمين ، وما له لاهل الاسلام لانهم قد احرزوه قبل اسلامهم فهذا امرى وعهدى اليك » (١٠) .

من هذا النص يتضح لنا مدى سماحة الاسلام ، وكيف ان المسلمين كانوا يراعون اهل الذمة ، وكيف ان الذمي اذا دخل في الاسلام اخذ نفس حقوق المسلمين لم ينقص منه شيء ، وان هناك اراضي تترك لأصحابها يدفعون عنها الخراج الذي قرره عمر بن الخطاب بعد ان اسشار جماعة من المسلمين ، وجميعهم كانوا يرغبون في ان تؤخذ هذه الاراضي من اصحابها ، وتصبح ملكا لهم ، ولكنه قال : « رايت ان احبس الارضين بملوجها واضع عليهم فيها الخراج وفي رقابهم الجزية يؤدونها فتكون فينا للمسلمين المقاتلة والذرية الى ياتي بعدهم » .

(١٠) ابو يوسف « كتاب الخراج » ص ٢٦ .

(م ٨ - الاستبصار)

وبذلك مسح عمر أرض السواد « العراق » فبلغ ستة وثلاثين ألف ألف جريب . وروى علي جريب الزرع درهما وقفيزا وعلى السكرم عشر دراهم وعلى الرطب خمسة دراهم ، وعلى الرجل اثني عشر درهما وأربعة وعشرين درهما ، وثمانية وأربعين درهما (١١) .

١١. وذكره أبو يوسف في كتاب « الخراج » ، واذ حللنا هذا النص نجد غيبه مدى عدل الخليفة عمر ، فإنه لم يجعل الخراج مبلغا مساويا من المال يفرض على الأرض عامة ، ولكنه راعى في هذه الأرض نوعها ، ونوع المحصول الذي تنتجه ، ثم قدر بعد ذلك ، كما أنه راعى أمورا كثيرة منها سهولة ربا وتربيا وبعدها للمزارع ، كما راعى ظروف الذامين ، فلم يجعل الجزية متساوية ، ولكنا قسما طبقا لأحوال الفرد المالية .

وقد حاول المستشرق ماكس بريشم أن يدس اتهاما آخر ، وهو أن الذامين « بدأوا يقبلون على الإسلام هربا من هذه الالتزامات المالية الكبيرة التي فرضها عليهم الإسلام » (١٢) .

والحقيقة أن هذا الرأي خاطيء ، خاصة وأن المسلمين اضطروا في فترة من تاريخهم إلى إنشاء الجزية على من أسلم ومع ذلك فلم تقل حركة الدخول في الإسلام بل كانت تزداد يوما بعد يوم ، فقد حدث أن رأى الحجاج بن يوسف وإلى العراق أن إيرادات بيت المال تنقص من جراء دخول عدد كبير من أهل الذمة في الإسلام ، لذلك خالف سنة ابن الخطاب وأبقى الجزية على من أسلم وسار الولاة من بعده على هذا العيل ، فلم تقل حركة الدخول في الإسلام فقد حاول الوالى على مصر أن يفعل ذلك فم عهد عمر بن عبد العزيز ، فرد عليه بقوله « فضع الجزية عن أسلم تبج الله رابك ، أنا بعث الله بكمدا هاديا ولم يبعثه جابيا » (١٣) ورفض الجزية عن أسلم مرة أخرى .

(١١) أبو يوسف « المصدر السابق » ص ٤١ .

(١٢) عبد الجليل شاذلي « الإسلام والمستشرقون » ص ٩٧ .

(١٣) الطبري « تاريخ الرسل والملوك » ج ٦ ص ٢٠٣ .

الاسلام والمالكية

اعترف الاسلام بالملكية الفردية الناشئة عن سبب مشروع ، ليشجع بذلك الدوافع الفطرية في حب التملك والادخار ، ولكنه لا يشجع الملكية الفردية اذا نشأت عن سبب مشروع ، فقد سمح بمصادرة هذه الاموال منها طال عليها الزمن .

وقد شجع الاسلام الانسان ليحصل المال ويفتفع به ، تأمر بتحصيله عن طريق التجارة وبالرحلة اليمنية والشامية اللتين يسرهما الله لقريش في تجارتها يمن عليهم ويذكرهم بفضلهم ونعيمه ، وأمر بتحصيله عن طريق الزراعة التي بها حياة الأرض واستثمارها ، وبتحصيله من الصناعة والصناعة اقوى العمد التي تقوم عليها الحضارات وفي القرآن الكريم اشارات كثيرة الى جملة من الصناعات مثل الحديد (١٤) .

أمر القرآن بتحصيل الاموال عن هذه الطرق وسمى طلبها **البتاع** من فضل الله ، وقد بلغت عنايته بالاموال أن طلب السعي في تحصيلها بمجرد الفراغ من أداء العبادات الاسبوعية المفروضة ، وأنه لم يأمر بالانصراف عن تحصيلها الا لخصوص هذه العبادة ، يقول الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسسعوا الى ذكر الله وذروا البيع » (١٥) .

معنى ذلك أن المال ليس غاية في ذاته ، وإنما هو وسيلة من وسائل تبادل المنافع وقضاء الحوائج ، فمن استعمله في هذا السبيل كان المال في يده خيرا له وللمجتمع ومن استعمله على أنه غاية ولذته انقلب الى شهوة تورث صاحبه المهالك وتفتح على الناس ابوابا من الفساد .

هذا موقف الشرع من المال ، أما موقفه بالنسبة للانتفاع به فقد أمر بالاعتدال في صرفه ، وقرر بالنهي عن الاسراف فيه ، وبالنهي عن الضن به وجعل الاعتدال في صرفه من صفات المقربين عباد الرحمن ، وجعل الاسراف فيه ، والضمن به عن الحقوق والواجبات مما يوقع في الحسرة

(١٤) محمود شلتوت « الاسلام عقيدة وشرعية » ص ٢٥٠-٢٥١ .

(١٥) سورة الجمعة آية ٩ .

والملزمة (١٦) فالإنسان في الإسلام ليس مالكا حقيقيا يتصرف في ، الله كيف يشاء لأن المال مال الله ، ومعنى هذه العبارة ، أنه مال الجماعة والفنى ورجاء على رعايته وانفاقه بما يوافق صالح الجماعة « وأغفوا مما جملتكم مستخلفين فيه » (١٧) وقوله تعالى « وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » (١٨) .

فالملكية اذا وظيفية اجتماعية ، والغنى اذن مطالب ازاء مجتمعه بواجبات مالية أدناها الزكاة ، وهى ليست تبرعا ولا احسانا يعطيه الغنى للفقير فيشعر بالاستعلاء ، ويشعر الفقير بالمدلة والهوان ، بل هى حق معلوم وضريبة مفروضة تأخذها الدولة بواسطة الجباة العاملين عليها ، وتنفقها على المحتاجين ، وعلى المصالح العامة . قال تعالى :

« أما الصدقات للفقراء والمساكين ، والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل » (١٩) .

وقد نص الإمام الشافعى على أن للفقير احقية استحقاق المال حتى صار بمنزلة المشترك بين صاحبه ، وبين الفقير ، ويجوز للفقير ان يأخذ مقدار الزكاة اذا ظفر به ، وكان صاحبه قد امتنع عن ادائه ، وفى هذا اخراج للزكاة عن ان تكون مظنة للذل والمهانة للفقير ، كما يتوهم بعض الناس (٢٠) .

والنسبة المفروضة من زكاة المال هى ٢.٥٪ وهى نسبة مقبولة تسخو بها النفس طواعية ، واختيارا وهى مع ذلك تجمع حصيلة كبيرة جدا لانها نسبة من رأس المال والربح الناشء عنه خلال السنة كلها ، كما أن الزكاة عامل من عوامل توزيع الثروة وانتقالها من ايدى الناس

(١٦) محمود شلتوت « الاسلام عقيدة وشريعة » ص ٢٥٢ .

(١٧) سورة الحديد آية ٧ .

(١٨) سورة النور آية ٣٣ .

(١٩) سورة التوبة آية ٦٠ .

(٢٠) مصطفى السباعى « اشتراكية الاسلام » ص ١٢٨ .

خلال سنوات محدوده بحيث يكون ما يملكه الانسان بعدها ثروة جديدة
انشأها بجهده وعمله (٢١) .

وقد اتسع بعض المستشرقين كلاما مرذولا حول بيت المال الذى
تجمع فيه الزكاة والموارد الأخرى ، وان بيت المال ان هو الا خزينة
خاصة ينفقون منها كيف شاءوا ، دون مقصد (٢٢) .

هذا رأى بعض المتفالمين والحاقدين على الاسلام ، حاولت ان
اعرضه برأى لمستشرق آخر منصفى هذا الموضوع بالذات وهو المستشرق
ساسينيون قال « ان لدى الاسلام من الكفاية ما يجعله يتشدد فى تحقيق فكرة
المساواة ، وذلك بفرض الزكاة التى يدفعها كل فرد لبيت المال ، وهو
يفاض الديون الربوية والضرائب غير المباشرة التى تفرض على الحاجات
الأولية الضرورية ، ويقف فى نفس الوقت الى جانب الملكية الفردية ورأس
المال التجارى ، وبذا يحل الاسلام مرة أخرى مكانا وسطا بين نظريات
الراسمالية والبورجوازية ، ونظريات البلشفية والشيوعية » (٢٣) .

ولابد ان نرد هذه الشبهات عن الاسلام ، فالذى يعرفه كل دارس
للشريعة الاسلامية وتاريخها ان بيت المال ليس ملكا للخليفة ، وانما هو
ملك للامة جميعها ، والخليفة انما هو خازن أمين ليس له منه الا راتبه
بالمعروف كما قال ابو بكر رضى الله عنه : « أعطونى كأوسس رجل من
قريش » وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه « انما انا وهذا المال كولى
اليتم ان استغنيت استغنيت ، وان افتقرت اكلت بالمعروف » وأبى على
ابن أبى طالب ان يأخذ من بيت المال شيئا لنفسه وأهله ! (٢٤) .

هذا مسلك الراسخين من حكام المسلمين ، وخلفائهم ، أما انحرافات
بعض الحكام ، فليس حجة على الاسلام ولا يسأل عنها .

واذا كان الاسلام قد منح بالملكية الفردية الا انه وضع عليها
قيودا بل وسمح لولى الأمر ان يعمل جهده بما يحقق للامة الانتفاع بها

(٢١) مصطفى السباعى « المرجع السابق » ص ١٢٩ .

(٢٢) القرضاوى والعمال « الاسلام بين شبهات الضالين » ص ٢٣

(٢٣) محمد على « مولانا » الاسلام والنظام العالمى الجديد ص ٤٥

(٢٤) الطبرى « تاريخ الأمم والملوك » ج ٤ ، ص ١٧٥ ، ٢٠٣ .

نشر : وإن يعمل على تنسيقها بحيث لا يترك الأموال تتكسفر في تركيز عنصر واحد منها دون سواه . فلا عليه أن يحول بعضها من الأراضي الزراعية إلى رؤس الأموال تجارية أو شركات صناعية ، على حسب حاجة البلاد المبنية على تقدير مصالحها : ويتم بذلك تنسيقها على الوجه الذي يجعلها غنية بنفسها عن غيرها (٢٥) .

وقد عني القرآن الكريم عناية كاملة بالحث على البذل للفقراء المساكين والاتفاق في سبيل الله .

كما القرآن عمل على تحقيق الانتفاع بالمسال لخير الجميع . وتطهيرا للنفوس من بواعث الأثرة منها . وجارب الاسلام في المالين لها والقائمين عندها خلق الشح الذي يمنع من البذل والاتفاق . كما جارب المسفه الذي يؤدي بالمال في غير وجوه النفع . وإقامة المصالح يقول الله تعالى « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » (٢٦) .

وقد أرشد القرآن الكريم إلى أن الضن بالأموال عن أداء الواجبات وإقامته المصالح القاء بالنفس إلى التهلكة .

وكما وقف القرآن وبجانبه أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم من الشح بالأموال هذا الموقف : وقف أيضا الموقف عينه من التبذير فيها ، واضاعتها فيما لا يعود بخير على الأمة « إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين » وكان الشيطان لربه كفورا » (٢٧) . وبعد أن أفرد القرآن كلا من الضن والتبذير بما يصور سوء عاقبة جمعها في إطار واحد وارشد إلى الطريق السوي الذي يسلكه أرباب الأموال في أموالهم ، فيحفظ عليهم حياتهم ، ويمكنهم من إقامتها على عمسدة قوية ثابتة (٢٨) قال تعالى :

« ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد

(٢٥) محمود شلتوت « المرجع السابق » ص ٢٥٥ .

(٢٦) سورة التغابن آية ١٦ .

(٢٧) سورة الاسراء آية ٢٧ .

(٢٨) شلتوت « المرجع السابق » ص ٢٥٨ .

ملوما محسورا « (٢٩) وقد حظر القرآن التعامل بالربا تبليدة وكثيرة ،
واعتبر أكل الربا محاربا لله ورسوله « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا
ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين » (٣٠) .

وحرم عليهم الاحتكار الذى هو سمة الرأسمالية فقد قال صلى الله
عليه وسلم « الجالب مرزوق والمحتر ملعون » (٣١) .

وقد حرم الاسلام الوان الترف التى يفسد الأفراد ، فالخمر ممنوعة ،
وأواني الذهب والفضة محظورة ، ولبس الذهب والحري للرجال محرم
قال تعالى « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترغيتها ففسقوا
فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » (٣٢) .

من ذلك نرى أن النظم الاقتصادية الإسلامية نظم عالمية متحضرة ،
فقد اقام الاسلام قواعده الاقتصادية على منع الاستغلال بغير عمل ، وإن
بتداول المجتمع الثروة حتى لا تكون دولة بين الأغنياء ، وقرر أن تسكون
للضعفاء والمحرومين حصة سنوية ، وهى حق معلوم للسائل والمحروم ،
قد يزداد عليها بأمر الإقامة وإحسان الحسنيين .

فإذا كان المسلمون قد دفعوا الزكاة ، فقد دفع الظميون الجزية ،
فالمسلم لابد أن يتركى من ماله حتى لا يجبهه ، ويجب أن يتداول هذا المال
فى التجارة والصناعة والعمل (٣٣) .

من هذا العرض نرى أن الاسلام يشجع تداول رأس المال ، وتشغيله
فإذا حبسه الانسان حولا كاملا ، وجبت عليه الزكاة وهى ٢٪ كذلك
فرضت الى جانب زكاة المال زكاة الثمار والزررع ، وزكاة الأرض والثمار
والذهب والفضة ، فالمجتمع الاسلامى هذا مجتمع متكامل متضامن ، ولا

(٢٩) سورة الاسراء آية ٢٩ .

(٣٠) سورة البقرة آية ٢٧٨ .

(٣١) القرضاوى والمصالح « المرجع السابق » ص ٢٤ .

(٣٢) سورة الاسراء آية ١٦ .

(٣٣) عباس العقاد « ما يقال عن الاسلام » ص ١٨٨ .

ولا اظن ان النظم الاجتماعية الحديثة من تكافل وتضامن ورعاية اجتماعية الا شيئا قليلا مما اقره الاسلام .

واعتقد ان هذا رد كاف على المستشرق المتغالى الذى تصور ان اهل انمة تسد اسلموا هربا من الضغوط المالية ، كيف ذلك وهذه هي نظم الاسلام المالية .

فالنظم الاسلامية نظم عادلة : ومهما رفع دعاء الاشتراكية رؤوسهم ونادوا بمبادئهم ونظمهم ، فليس فى نظمهم وقوانينهم مثل هذه الاشتراكية النابعة من ضمير الانسان ، والتي جعلها الاسلام ديننا تقترن به دعواه من صلاة ، وشهادة ، وتوحيد ، والمال كله ملك للامة تحفظ اليد المستخلصة غيه وتنميه ، ثم تنفع به كلها ، يخرج من احد جانبيها ويقع فى الجانب الآخر فهو منها كلها ، وهو اليها كلها ، وما اليد المعطية ، واليد الآخذة الا يدان لشخصية واحدة كلتاها تعمل لخدمة تلك الشخصية ، وهى شخصية المجتمع الذى لا توام له الا بتكافل هاتين اليدين على خيره وبثائه ، ولعل معنى الوسيطة التى حل بها الاسلام المشكلة المالية تظهر بذلك ، نلکم المشكلة التى ظل بها العالم فى امسه وحاضره متردد بين طرفى الافراط بالطغيان المالى والتفريط بالغاء الملكية الفردية ، وبذلك تقطعت ارواح الرحم الانسانى ، وسخر الأغنياء الفقراء ، وثار الفقراء على الأغنياء ، ونشبت الحروب المدمرة ، وانلست دعاوى المدعين السفين بخدمون انفسهم من واقع الأمر ، ويتظاهرون بخدمة المجتمع الانسانى ، وما ريك بغافل عما يعملون (٢٤) .

المستشرقون والنظم الاجتماعية في الاسلام

لم يهمل المستشرقون بابا في النظم الاسلامية الا تدارسوه ، وبدلوا من اصدار الاحكام الجائرة عليه ، وكما بينت في كلامي السابق ان مرجع كل هذا هو العداء الصريح للاسلام والجهل به ، ولذلك فمن الموضوعات التي شغلت افكار واقلام طائفة المستشرقين الممانين للاسلام كانت النظم الاجتماعية في الاسلام ، واهم قضاياها . الفقر ، التعاون ، المرأة وما يخصها من موضوعات ، الرق في الاسلام .

وسأتناول كل قضية من هذه القضايا على حده . متعرضة لآراء المستشرقين فيها ، مع تقديم الردود المؤيدة بالقرآن والسنة .

وسأبدا بمشكلة الفقر التي حاول هؤلاء المستشرقون ان ينسبوها الى بلاد الاسلام متخذين من سوء الاحوال الاقتصادية الموجودة في كثير من البلدان الاسلامية سببا في ترديد هذا الرأي متخذين من النظم الاقتصادية الاسلامية سببا لهذه المشكلة .

والدارس للاسلام يرى ان الفقر مرض اجتماعي ، وليس قدرا مقدورا . لا حيلة في دفعه بسعي او كسب ، لقد امر القرآن بالسعي في الأرض قال « هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناسكها ، وكلوا من رزقه » (١) فلا يكون الفقر بعد ذلك الا لاحد أمرين اما كسل او خمول وهذا لا يقره الاسلام ، واما العجز عن العمل ، ومثل هذا الفقر الذي لا حيلة للانسان في دفعه ، هو الذي وضع له الاسلام من قوانين التكافل الاجتماعي ما يدفع بثؤسه ويحفظ للفقر كرامته .

ومما يدل على نفرة الشريعة من الفقر قوله صلى الله عليه وسلم « كاد الفقر ان يكون كفر » (٢) وكان من دعائه عليه السلام « اللهم اني

(١) سورة الملك آية ٥١ .

(٢) رواه ابو نعيم في الحلية .

اعوذ بك من العجز والكسل والجبن والبخل . واعوذ بك من الفقر والكفر
والفسوق . واعوذ بك من الصمم والبكم والجنون وسوء الاستقام » (٣)
وفى دعاء آخر للرسول عليه السلام « اللهم انى أسألك التقى والهدى
والعفاف والغنى » (٤) .

وهذا انتقال من موقف السلبية ، تجاه الفقر الى الايجابية من عكسه
وهو الغنى ، وان فى طلب الرسول للغنى وهو قوة الزهاد فى الدنيا
لدلالة بعيدة الأثر فى هذا المقام (٥) .

وقد عمل الاسلام على حل مشكلة الفقر ، فشرع تشريعات تعمل
على الحد من هذا المرض الاجتماعى الخطير ، فقد رأينا فى دراستنا للزكاة
التي فرضها الله سبحانه وتعالى على عباده القادرين خلا أمثل لهذه
المشكلة ، فقد جعلها الله اذن لتوفير العيش والطمأنينة للبايسين
والمحتاجين ، واذا امتنع الغنى عن اخراجها اخذتها الدولة منسه شهرا ،
وجاز لها ان تعلن الحرب عليه .

وقد جاء الاسلام بنظام الارث . وذلك للقضاء على تكديس الثروات
فى يد واحدة ، وهو من عناصر الطغيان المالى الذى يثير فى الجماعة
حرب الطبقات ، ويعطى بذلك فرصة متكافئة للفقراء ليتقوا مع الأغنياء ،
وفتح لهم باب العمل والكسب ، ولم يجعله محنرا لطائفة ، ولا مسدودا
امام احد فمن احيا أرضا ميتة غنى له ومن طرق باب تجارة فربحها ففى
له ، ومن عثر فى باطن الأرض على ركاز (٧) ، يدفع الخمس منه
والباقى له (٨) .

ومن لم يجد عملا وجب على ولى الأمر ان يبيىء له عملا . فان لم

(٣) رواه الحاكم والبيهقى .

(٤) رواه مسلم والترمذى وابن ماجه .

(٥) مصطفى السباعى « اشتراكية الاسلام » ص ٨٢ .

(٦) محمود شلتوت « الاسلام عقيدة وشريعة » ص ٢٤٥ .

(٧) ركاز : مركزه الله تعالى فى الأرض من المعادن فى حالتها
الطبيعية ، والسكنز والمال . انظر المعجم الوسيط .

(٨) القرضاوى والعسال « المرجع السابق » ص ٢٥ .

بأنه عملاً أي كان عاجزاً عن العمل أو كان أجراً . في عمله . كذا . كان
واجباً على ولي الأمر أن يرعاه . وأن يبين له ما شق له . ومسلم أو
ذمي في ظل دولة الاسلام .

وقد جعل الاسلام نفقة الفقير العاجز واجبة على قريبه الغني ،
وللحاكم اذا لم تكن الزكاة كافية لسد هذه الحاجات أن يفرض على أغنياء
اذا لم تكن الزكاة كافية لسد هذه الحاجات أن يفرض على أغنياء المسلمين
الضرائب الكافية التي تقيم مصالح المسلمين (٩) .

وقد قرر علماء المسلمين هذا المبدأ ، فإذا احتاج المسلمون . فلا مال
لاحد كذلك أوجب الاسلام على أهل كل قرية أن يلتزموا بسد حاجة
مقراؤها ، أن لم تكف الزكاة ، وقد قرر ابن حزم « أن من ولي الأمر يلزم
الأغنياء من أهل كل قرية بذلك في هذه الحال » (١٠) . وهكذا أقام
الاسلام العلاقة بين الغني والفقير على أساس المساواة والعدل .

فهو يسوى بين الجميع في الحقوق والواجبات العامة ، ويتيح
الفرصة للجميع ليتكسبوا ، ويقول للأغنياء « انفقوا من طيبات
ما أنسبتم » (١١) ويقول لولي الأمر « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم
وتركيهم بها » (١٢) ويقول للفقير لا تحقد ، ولا تحسد « ولا تمدن عينيك
إلى ما متعنا به أزواجنا منهم » (١٣) ثم يقول للجميع ، كونوا عباد الله
أخواناً .

والمعروف أن الاسلام أعطى للفقراء ما لم يعطه دين آخر ، واهتم بهم
اهتماماً بالغاً لم يهتم به أي نظام اقتصادي عرف من قبل . محاولاً
بذلك رفع الفقر عنهم لئلا يفسد المجتمع الاسلامي بوجود عنصر حاقد
محرومة غيصة فالفقر يدفع إلى الكفر ، ولذا نجد الرسول صلى الله
عليه وسلم يشير إلى الفقراء في أكثر من موضع ، قال صلى الله عليه

(٩) محمد أبو زهرة « الاسلام عقيدة وشرعة » ص ٢٣٠ .

(١٠) المرجع السابق .

(١١) سورة البقرة آية ٢٦٧ .

(١٢) سورة التوبة آية ١٠٣ .

(١٣) سورة الحجر آية ٨٨ .

وسلم « شر الطعام الوليمه يدعى لها الاغنياء ويترك الفقراء (١٤) » ، وقال
« افضل الصدقة ان تشبع كبدا جائعا » (١٥) .

وقال عليه السلام « من منح منيحة لبن او ورق او اهدى زمنا كان
له مثل عتق رقبة » وكان الرسول صلى الله عليه وسلم في احاديثه
الكثيرة يفضل الفقير على الغنى ، ليخفف من شأن الغنى في المجتمع ،
وليجعل الشأن للعمل النافع وللايمان ، قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم يوما لابي ذر اترى كثرة المال هو الغنى ، قال نعم يا رسول الله ،
قال فترى قلة المال هو الفقر ؟ قال نعم يا رسول الله ، فقال الرسول :
« انما الغنى غنى القلب ، والفقر فقر القلب » ، وفي حديث آخر « ليس
الغنى عن كثرة العرض ، ولكن الغنى غنى النفس » (١٦) .

وكان الرسول عليه السلام يحارب مظاهر الغنى حتى لا تؤذى نفوس
الفقراء معنى الحديث « لاتشربوا في آنية الذهب والفضة ، ولا تلبسوا
الحريز والديباج » (١٧) وفي حديث آخر « من لبس الحرير في الدنيا ،
لم يلبسه في الآخرة » (١٨) وكان عليه السلام يأمر الفقراء الا ينظروا الى
من فوقهم ، والسكن الى الذين دونهم ، كيلا يعمل الحقدهم نفوسهم .

وقد امر الاسلام باخفاء الصدقات التطوعية وعدم اظهارها او المن
بها ابتغاء الشهرة والظهور والا بطل ثوابها ، قال تعالى « يا ايها الذين
آمنوا لاتبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى » (١٩) .

والمعروف ان التعاون من أهم الوسائل التي تقضى على ظاهرة الفقر
في مجتمع من المجتمعات ، لان التعاون والتكافل يؤديان الى خلق مجتمع
سليم ، وانما نرى اليوم في المجتمعات الحديثة مؤسسات تعاونية، ودور
اجتماعية هدفها ربط الناس وتكافلهم بعضهم ببعض .

(١٤) رواه الشيخان .

(١٥) رواه البيهقي .

(١٦) رواه البخاري ومسلم .

(١٧) رواه الشيخان .

(١٨) رواه الشيخان .

(١٩) سورة البقرة آية ٢٦٤ .

وإذا كانت هذه النظم الحبيثة تدعو إلى ذلك ، فالدين الإسلامي هو دين المساواة والتكافل الاجتماعي ، والرسول الكريم صلى الله عليه وسلم هو أول استاذ لهذه النظريات في العالم .

وتعتبر دعوة الإسلام هذه أقدم دعوة في تاريخ العالم من ١٤٠٠ سنة ، والقرآن الكريم يقول في سورة المائدة محددًا التعاون على البر ، وقد جاء البر في القرآن بمعنى حسن المعاملة وطيب العشرة ومكارم الأخلاق ، والبعد عن الطغيان .

وفيه ورد قوله تعالى « وبرا بوالدتي، ولم يجعلني جبارا شقيا » (٢٠)

وجاء البر بمعنى الانفاق والبذل في سبيل الله وهو طريق للحق والخير والنفع ، وورد قوله تعالى « لن تسألوا البر حتى تفسقوا مما تحبون » (٢١) .

وجاء البر بمعنى العبيادة من صلاة وزكاة ، وفيه ورد قوله تعالى بعد أن أمر بني إسرائيل بأقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة « أتأبرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ، وأنتم تقولون الكتاب أفلا تعقلون » (٢٢) .

وجاء البر بمعنى مجموعة من الفضائل النفسية والاعتقادية والخلقية، وفيه ورد قوله تعالى « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب، ولكن البر من آمن بالله ، واليوم الآخر والملائكة ، والكتاب والنبين ، وآتى المسال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين ، وابن السبيل، والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة ، وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » (٢٣) .

كما جاء البر أيضا بالدعوة إلى التضامن في أعمال الخير ، وعندهم

-
- (٢٠) سورة مريم آية ٣٢ .
(٢١) سورة آل عمران آية ٩٢ .
(٢٢) سورة البقرة آية ٤٤ .
(٢٣) سورة البقرة آية ١٧٧ .

التضامن في أعمال العدوان في قوله تعالى « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » (٧٤) وإلى جانب البر نجد الاسلام اعلن عن مبادئ كثيرة للتكافل الاجتماعي في نصوص كثيرة من القرآن والسنة ، فمن القرآن الكريم قوله تعالى « انما المؤمنون اخوة » (٧٥)

ان اعلان الاخاء بين افراد مجتمع ما يوجب التكافل بينهم لافى الطعام والشراب وحاجيات الجسم فقط ، بل في كل حاجة من حاجيات الحياة .

فالدعوة التعاونية في الاسلام قد عمت اكثر من ذلك ، غامر بأن يكون اخير بلا تحديد في نواحيه هو هدف المجتمع التعاوني ، كما امر بالبعد عن الاثم والامر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ونرى الرسول صلى الله عليه وسلم في جميع احاديثه يدعو الى هذا المبدأ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الله في عون العبد مادام العبد في عون اخيه » (٢٦) وقوله عليه السلام « من كان في حاجة اخيه كان الله في حاجته » ومن فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا ، فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة » (٢٧) وقوله عليه السلام « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » (٢٨) وقوله « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمل والسهر » (٢٩) .

وبذلك تتنوع انواع التكافل في الاسلام ، فهناك التكافل الادبي ، وذلك ان يشعر كل واحد نحن الآخرين بشعور الحب وحسن المعاملة والتعاون في سراء الحياة وضرائها ، وقد دل عليه قوله صلى الله عليه وسلم « احب لأكفك ما تحب لنفسك » (٣٠) .

(٢٤) سورة المسائدة آية ٢ .

(٢٥) سورة الحجرات آية ١٠ .

(٢٦) رواه الشيخان .

(٢٧) رواه البخاري ومسلم .

(٢٨) رواه الشيخان .

(٢٩) رواه الشيخان .

(٣٠) رواه الحاكم والطبراني .

وهناك التكافل العلمى ، فقد أوجب رسول الله صلى الله عليه وسلم
على العالم أن يعلم الجاهل ، وعلى الجاهل أن يتعلم من العالم . ويدخل
فى ذلك الا يضمن العالم بعلمه على الناس ، وان يكتف ما أدركه من أسرار
الشريعة أو الكون ، لكى يتفرد بالرئاسة أو التميز العلمى ، وقد جاء فى
ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « من كتم علما لحجه الله بلجام من نار يوم
القيامة » (٣١) .

وهناك تكافل سياسى . فقد قرر الاسلام أن لكل مواطن حقه
السياسى وحقه فى المراتبة والنصح لأولياء الأمور ، لأنه مسئول عن مستقبل
الامة وما كان كذلك ، فالمجتمع كله متكافل فى تأييد السياسة الرشيدة ،
وانكار الفساد والانحراف فيها ، ويدخل ذلك تحت عموم قوله صلى الله
وسلم « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » (٣٢) .

وهناك تكافل دفاعى . وذلك ان كل مسلم فى الدولة عليه أن يتكافل
مع بقية مواطنيه بالدفاع عن سلامة البلاد ، وعليه النفير اذا أغار عدو
أو مغير على ناحية منها بحيث أصبحت الامة فى حالة استنفار . وفى ذلك
نزل قوله تعالى « انقروا خفافا وثقالا » (٣٣) ولا يعفيه من هذا الواجب
دثام ولا منزلة الا ان يكون به عذر أو مرض (٣٤) .

وبذلك نرى أن الاسلام دين يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويهدف
الى تكوين مجتمع صالح متعاون متكافل ، متراحم متواص بالخير ، متواص
بالرحمة له ولأفراده ، لهم المجد والفلاح فى الدنيا والفوز والنجاح فى
الآخرة . واذا كانت بعض المجتمعات الانسانية تسير الآن فى ظروف
معتريها فيها الفقر والحاجة ، مما جعل أعداء الاسلام ينهالون على نظم
الاسلام ويتهمونها ، فائنا بما قدمنا نكون قد اثبتنا ان المسئول عن هذه
المشكلة ليس الاسلام ، ولكن سوء تطبيق نظام الاسلام .

(٣١) رواه أبو داود الترمذى .

(٣٢) رواه البخارى ومسلم .

(٣٣) سورة التوبة آية ٤١ .

(٣٤) مصطفى السباعى « اشتراكية الاسلام » ص ١١٨ .

المرأة المسلمة في نظر المستشرقين

وجه المستشرقون اتهامات كثيرة حول قضية « المرأة في الاسلام » وحاولوا ان يشوهوا الصورة الكريمة الى رسمها القرآن الكريم للمرأة، ورددوا شبهات واهية ، وصورا مكدوبة .

فقد زعم زاعمون منهم ان الاسلام اهتضم حق المرأة واستط منزلتها وجعلها متاعا في يد الرجل يتصرف فيها كما شاء بما يشاء .

والحقيقة ان المسألة لا ترجع الى حق يريدون تقريره او باطل يريدون تزييفه ، وانما هي العصبية الدينية او الفتنة بالتقليد الاجنبى عن طريق استحسان ما يستحسنه القوى ، ولو كان قبيحا منكرا واستقباح ما يستقبحه الضعيف ولو كان حسنا معروفا ، وهذا شأن درج عليه 'نفس' في استحسان ما يستحسنون واستقباح ما يستقبحون (١) .

والحقيقة ان الاسلام قد شمل المرأة في جميع تشاريعه الخاصة بنظام الاسرة برعاية كريمة وعطف كبير ، وسما بها الى مستوى رفيع لم تصل الى ماله ولا الى ما يقرب منه اية شريعة اخرى من شرائع العالم القديمة والحديثة .

فقد رأينا كيف كانت تعامل المرأة قبل الاسلام معاملة مهينة ، فتعد كانت تعامل كأنها سقط متاع ، فهي لا تشارك في الرأي أو الحرب ، ولا تدفع الاذى عن قبيلتها (٢) .

يقول ابن عباس رضى الله عنه « كانت الحوامل اذا قربت ولادتهن حفرن حفرة ، فمخضت على رأسها ، فاذا كان المولود انثى قذفت بها

(١) محمود شلتوت « الاسلام عقيدة وشرعة » ص ٢١٨ .
(٢) عبد الرزاق نوفل « الاسلام والعلم الحديث » ص ٩٠ .

فى الحفرة واذا كان ذكرا استبقته فى حنان وعزه . وكان هناك طريفة أخرى للواد وهى أن الرجل يترك البنت حتى السادسة من عمرها . فان أراد النخلص منها قال لامها طيبها وزينها . ثم يذهب الى بئر حفرها فى المسحراء ويقول لها أنظري هذا البئر . ويهيل عليها التراب » (٣) .

يقول الله تعالى « ويجعلون لله البنسات سبحانه . ولهم مايشتهون واذا بشر احدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم : ينوارى من القوم من سوء مايشتر به . ايمسكه على عون أم يدسه فى التراب الا ساء ما يحكمون » (٤) .

وفى الغرب كانت المرأة فى ظل الحكم الرومانى تعال معاملة الرقيق . وتمنهن كرامتها وعفتها . وليس هنالك أى تشريع عندهم يرفع من شأنها . وقد اجتمع فى روما مجمع كبير وبحث شأنون المرأة ، فقرر انها كائن لانفس له ، وانها لهذا لن تترك الحياة الأخيرة . وانها رجس يجب . الا تاكل اللحم والا تضحك . وعليها أن نمضى وقتها فى الصلاة والعبادة والخدمة . ولبس لها الحق فى أن تتكلم ، ولنعما من الكلام وضموها على فمها قفلا من الحديد ، فكانت المرأة من أعلى الأسر تروح وتغدو فى الطريق أو فى دارها وعلى فمها قفل ، هذا غير العقوبات البدنية التى كانت توضع عليها باعتبارها اداة الاغواء يستخدمها الشيطان لاغواء القلوب (٥) .

والعجيب ان اهل الغرب الذين أصبحت نساؤهم تعيش تحت ظل المدنية الزائفة هم الذين يتكلمون عن مكانة المرأة فى الاسلام . ويقولون ان حقها هضم ، وان منزلتها اسقطت وجعلها الاسلام متاعا فى يد الرجل . فى الاسلام جعل المرأة شريكة الرجل حينما تحدث عن الاصل الذى تفرغ منه الانسان . فكان الرجل ابا والمرأة اما فلا تفاضل بينهما فى جانب الانسانية . يقول الله تعالى « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان اكرمكم عند الله اتقاكم » (٦) .

(٣) المرجع السابق .

(٤) سورة النحل آية ٥٨ — ٥٩ .

(٥) عقيد طباره « روح الدين الاسلامى » ص ٢٨١ .

(٦) سورة الحجرات آية ١٣ .

كما عني الاسلام ببيان وحدة الزوجين وتساويهما من الناحية النفسية ليقضى على جميع النظريات الخاطئة التي كانت تزعم ان المرأة جنس منحط بذاته عن جنس الرجل (٧) . ويؤيد ذلك ما افترسه اللورد كرومر في كتابه « مصر الحديثة » ان الرجل يتمسك بالاسلام أشد من تمسك المرأة المسلمة بالاسلام ويعطى هذا الافتراض على انه ظاهرة في الحياة الاسلامية ، وبأنه يرجع الى اختلاف وضعية كل من الرجل المرأة في الاسلام (٨) .

والرد على ذلك قوله تعالى « يا ايها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة » وخلق منها زوجها وبث منها رجالا كثيرا ونساء » (٩) .

فالاسلام يؤكد وحدة الزوجين ، وتساويهما من ناحية علاقتهما بربهما وجزائهما عنده « فاستجاب لهم ربهم ان لا اضيع عمل عامل منكم من ذكر او أنثى بعضهم من بعض » (١٠) .

وليقف المتأمل عند هذا التعبير الالهي « بعضهم من بعض » ليعرف كيف سما الاسلام بالمرأة حتى جعلها بعضا من الرجل ، وكيف حسد من طغيان الرجل فجعله بعضا من المرأة ، وليس في الامكان ما يؤدي به معنى المساواة اوضح ولا اقل من هذه الكلمة التي تفيض بها طبيعة الرجل والمرأة ، والتي تتبنى في حياتهما المشتركة دون تفاضل وسلطان قال تعالى « للرجال نصيب مما اكتسبوا ، وللنساء نصيب مما اكتسبن » (١١) واذا كانت المرأة مسئولة مسئولة خاصة فيما يختص بعبادتها ونفسها فهي في نظر الاسلام أيضا مسئولة مسئولة عامة فيما يختص بالدعوة الى الخير والأمر بالمعروف والارشاد الى الفضائل والتحذير من الرذائل .

اضف الى ذلك ان الاسلام احترم رأي المرأة فيما تبدو وجاهته شأن رأي الرجل تماما يسواء بسواء ، واذا كان الاسلام جاء باختصار آراء

(٧) سيد قطب « الاسلام ومشكلات الحضارة » ص ٦٤ .

(٨) محمد البهي « الفكر الاسلامي الحديث » ص ٥٣ .

(٩) سورة النساء آية ١ .

(١٠) سورة آل عمران آية ١٩٥ .

(١١) سورة النساء آية ٣٢ .

بعض الرجال . فقد جاء أيضا باختيار رأى بعض النساء ، وذلك بعدما حدث عندما تحاورت حولة بنت تعلق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بشأن زوجها الذى ظاهاها ، فسمع الله تحاورهما وأنزل سبحانه وبهذه الآية الكريمة « قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى الى الله ، والله يسمع تحوركها . ان الله سميع بصير » (١٢) غيرى كيف رفع الله شأن المرأة ، وكيف احترم رأيها . وجعلها مجادلة ومحاوره للرسول وجمعها واياه فى خطاب واحد ، « والله يسمع تحاوركما » وكيف قرر رأيها وجعله تشريعا عاما (١٢) .

والى جانب ما ذكرناه ، فان الاسلام لم يسلب المرأة حق التعليم فقد امرها ان تتعلم كل ما يمكنها من القيام بهذه المسئولية على الوجه الذى حددت فيه ، وطلب منها عليه وهو تحرى الخير والصالح والبعد عن الشر والفساد ومن هنا اوجب الاسلام عليها - كما اوجب على الرجل معرفة العقائد والعبادات ومعرفة الحلال والحرام فى المأكول والمشروب وسائر الانصرفت ، ولا نعرف بينها وبين الرجل فارقا دينيا فى التكليف واهليته سوى ان التكليف يلحقها قبل ان يلحق الرجل ، وذلك لوصولها بطبيعتها الى مناط التكليف وهو البلوغ قبل ان يصل الرجل اليه ، وفى ميدان الجهاد فقد سمح للمرأة بالاشتراك فيه بدون تكليف ، وقد وضع الاسلام ذلك وقرر من اول يوم دخل فيه ميدان الحرب والجهاد ، غير ان اختلاف النظم وتبدل الأحوال والشئون يوجب فى هذه الايام حفظا لكرامة المرأة اذا ارادت ان تساهم فى هذا الواجب العام ان يتخذ لها الوضع الذى يصونها ، ويقيها شر العابثين مرضى القلوب السذيين لا يسلم منهم جيش ولا مجتمع (١٤) .

وخلاصة ذلك ان الاسلام منح المرأة انسانيته المساوية لانسانية الرجل ، وظل ذلك فى كثير من نواحي التشريع الاسلامي ، فكان دينا مساويا لدمه والحكم فيهما واحد وهو القصاص ، قال تعالى « وكتبنا عليهم فيها ان النفس بالنفس » (١٥) وبذلك كان الجزاء الاخرى فى الاعتداء

(١٢) سورة المجادلة آية ١ .

(١٣) عائشة عبد الرحمن « المرأة المسلمة بين امس واليوم » ص ٧٥

(١٤) محمود شلقوت « الاسلام عقيدة وشريعة » ص ٢٢٧ .

على حياة المرأة من نوع الجزاء في الاعتداء على حياة الرجل ، كما أن القرآن نزل واحداً في مسألة قتل الرجل خطأ ، وقتل المرأة خطأ « ومن تيل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله » (١٦) .
 واضح أنه لا فرق في وجوب الدية بالقتل الخطأ بين الذكر والأنثى (١٧) .

وكذلك نجد أن القرآن الكريم لا يفرق بين الذكر والأنثى حينما حث الأبناء على البر بالوالدين « وتضي ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً » (١٨) وإذا انتقلنا من القرآن الكريم إلى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نجد أنه ميز المرأة أكثر من الرجل ، فقد أجاب على سؤال أحد الرجال عن أحق الناس بحسن الصحبة فقال أمك ، وكررها ثلاث مرات ، ثم قال في الرابعة أبوك .

والواقع أن الإسلام لم يحرم المرأة من الحقوق المدنية : فأباح لها التملك والتصرف فيما تملك ، وأباح لها توكيل غيرها فيما لا تريد مباشرته بنفسها وأباح لها أن تضمن غيرها وأن يضمنها غيرها .

وهذه منزلة قد منحها الإسلام للمرأة باعتبارها إنساناً كاملاً الانسانية منذ أن أشرقت الأرض بنسوره ، في حين أن المرأة الغربية في عصر الحضارة ، وحقوق الإنسان — كما يقولون — لم تصل إلى تمتع بهذا الحق الإنساني الذي تمتعت به المرأة في ظل الإسلام (١٩) .

وإذا نظرنا إلى الحقوق التي منحها الله سبحانه وتعالى للمرأة في موضوع زواجها ، نرى أنها حقوق تثبت مدى تقدير الشريعة للمرأة ، وكيف أن لها حقوقاً قبل الزواج وفي فترة الزوجية ، وعند فسخ العلاقة بين الطرفين .

فماذا ما جاء المرأة دور زواجها وهي بالغة عاقلة ، فإن لها أن تختار الزوج الذي تريده اختياراً حراً ، على أن يشترك معها وليها بالرأي

(١٥) سورة المسائدة آية ٤٥ .

(١٦) سورة النساء آية ٩٢ .

(١٧) شلتوت « المرجع السابق » ص ٢٣٧ .

(١٨) سورة الاسراء آية ٢٣ .

(١٩) سيد قطب « الإسلام ومشكلات الحضارة » ص ٦٦—٦٧ .

والمشورة فيمن تختاره . ولكن ليس له أن يجبرها على زوج معين وأن
اختار هو زوجها لا يتم زواجها به إلا برضاها .

ويلزم الإسلام الزوج أن يقوم بتقديم مئتم صسداق للمرأة ، وبعد
منزل الزوجية ولا يحرم الإسلام أن تجهز المرأة بغاخر النياب والزينة ولا
أن يزود منزلها بالثمين من الأناث ووالمتاع قال تعالى « قل من حرم زينة
الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق » (٢٠) .

أما في مرحلة الزوجية ، فقد اعفى الإسلام المرأة من أعباء المعيشة،
والتأها جميعا على كاهل الرجل ، واحتفظ للمرأة مع ذلك بحقوقها المدنية
كاملة غير منقوصة ، فللمرأة المتزوجة في الإسلام شخصيتها الكاملة وثروتها
الخاصة المستقلتان عن شخصية زوجها وثروته ، ولا يجبر الإسلام للزوج
أن يأخذ شيئا من مال زوجته قل أو كثر (٢١) قال تعالى : « وإن أردتم
استبدال زوج مكان زوج وآتيتم أهداهن ثمن طارا فلا تأخذوا منه
شيئا » (٢٢) وهذه المنزلة في المساواة بين الرجل والمرأة لم يحل إلى
منها بعد أحدث القوانين في الأمم الديمقراطية المدنية (٢٣) .

وفي مرحلة الزوجية يعطى الإسلام الرجل الحق في التوامه على
زوجته وأسرته وقد بنى ذلك على سببين رئيسيين :

أحدهما أن الرجل مكلف بالاتفاق على الأسرة ، ولا يستقيم مع العدالة
في شيء أن يكلف فرد الانثا ق على هيئة ما بدون أن تكون له التوامة عليها
والإشراف على شؤونها .

والسبب الثاني : أن المرأة مرهنة العاطفة ، قوية الانفعال ، وأن
ناحية الوجدان لديها تسيطر سيطرة كبسرة على مختلف نواحي حيساتها
النفسية ، وقد سوى الله المرأة على هذا الوضع حتى يكون لها طبيعتها
مما يتيح لها القيام بوظيفتها الأساسية ، وهي الأمومة والحضانة على خير

(٢٠) سورة الأصراف آية ٣٢ .

(٢١) عبد الواحد وأنى « نظام الأسرة في الإسلام » ص ١٦٧ .

(٢٢) سورة النساء آية ٢٠ .

(٢٣) سيد قطب « المرجع السابق » ص ٦٦ .

وجه ، فلا يخفى أن هذه الوظيفة تحتاج الى عاطفة مرهنة ووجدان رقيق أكثر مما تحتاج الى التفكير والادراك والتأمل (٢٤) يشير القرآن الكريم الى ذلك « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض، وبما انفقوا من اموالهم » (٢٥) .

وقد حاول بعض المستشرقين ان يبنوا فكرة قسومة الرجل على المرأة بفكرة التفوق Superiority ويجعل منه دلالة على نظرة الاسلام الى وضع كل من الرجل والمرأة في الحياة ، فهو يسمو بالرجل الى ذرى الرفعة بينما يهبط بالمرأة الى هاوية الضعة ، أما عن طاعة المرأة للرجل فتعرض على أنها نوع من الاذلال ، وسبب لفرض الرق والعبودية على نصف البشرية الى غير ذلك مما يترتب على هذا الشرح المفرض (٢٦) .

ولابد ان نبين ان هذه الآراء جاءت من أجل تشويه الاسلام ، لأن الاسلام قد جعل قسومة الرجال في الأسرة قسومة رحيمة قائمة على المودة والمحبة والارشاد ، وقيدها بقيود كثيرة تحفظ للمرأة كرامتها ، وبذلك منح المرأة مجال العلم ، ومجال العمل ، فقد تعلمت المرأة نعرفنا المرأة العاملة، والأديبة ، والطبيبة ، والفقيهة ، والمتصوفة القانتة ، وما اليهن من كل ما عرف مثله عن أخيها الرجل .

شهادة المرأة وميراثها :

يرى كثير من المستشرقين الأجانب أن المرأة في الاسلام قد أهدرت إنسانيتها ، لأنها ترث نصف حظ الرجل، كما ان شهادتها كذلك تعتبر نصف شهادة الرجل ، وذلك في قوله تعالى « للذكر مثل حظ الأنثيين » (٢٧) وقوله « فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان » (٢٨) .

والواقع أن السبب في تفضيل الرجل بالميراث انه مطالب بنفقات المعيشة ومطالب بدفع المهر لزوجته، وعليه نفقتها وكسوتها وجميع ما تحتاج

(٢٤) عبد الواحد وافي « المرجع السابق » ص ١٧٠ .

(٢٥) سورة النساء آية ٣٤ .

(٢٦) محمد البهي « الفكر الاسلامي الحديث » ص ٥٣ .

(٢٧) سورة النساء آية ١٧٦ .

(٢٨) سورة البقرة آية ٢٨٢ .

اليه بالمعروف بينها حتى أوجب النكاح والحضانة . وأوجب عليه أن يدفع المدة إذا ما طلق زوجته . فهو إذا مطالب بتفقيه على نفسه وأولاده ، وعليها : ومكلف بوالديه وأقاربه . إذا كانوا ضعفاء أو مفراء إذا فيماذا يتميز الرجل عنها ؟ الرجل مطالب بكل شيء والمرأة لا تطالب بشيء (٢٦) .

أما موضوع الشهادة في قوله تعالى « فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان » فليس واردا في مقام الشهادة التي يقضى بها أمام القاضي ويحكم وإنما هو وارد في مقام الإرشاد إلى طرق الاستئناف والإطمئنان على الحقوق بين المتعاملين وقت التعامل . فالمقام مقام استئناف الحقوق لا مقام قضائي .

ليس معنى هذا أن شهادة المرأة الواحدة أو شهادة النساء اللاتي ليس معهن رجل لا يثبت بها الحق ، ولا يحكم بها القاضي . فإن أقصى ما يطلب القضاء هو البينة ، وقد حقق العلامة ابن الجوزي أن البينة في الشرع أهم من الشهادة ، وأن كل ما يتبين به الحق ويظهره هي بينة يقضى بها القاضي ويحكم (٢٧) .

الاسلام وتعدد الزوجات :

لم تلق أي مسألة من مسائل الاسلام مالاقتته هذه المسألة بالذات من طعن المستشرقين في الديانة الاسلامية فقد بثوا دعايات مسمومة ضد هذا الموضوع وحركوا الفكر الغربي ، بل والفكر الشرقي لينظر في هذا الموضوع لأنه يعده امتهانا لكرامة المرأة وأشعارا لها بعدم أهميتها في الأسرة ، وأن ذلك يؤدي إلى مشاكل اجتماعية وخيمة وإلى تشريد للأطفال وإلى قطع أواصر الرحمة والقرابة ومن الآراء التي أمامي الآن رأي الكاتبة الألمانية « اليس ليختنستادتر » (٢٨) تقول « أنه من الأمثلة التي طال بحثها واشتهر أمرها مثل النظام الذي يبيح تعدد الزوجات ، فليس في البلاد الاسلامية ماعدا البلاد التركية قانون يحرم هذا النظام بحكم القضاء

(٢٩) شلتوت « المرجع السابق » ص ٢٣٨ ، محمد أبو زهرة « الاسلام عقيدة وشريعة » ص ٢٣٣ .
(٣٠) شلتوت « المرجع السابق » ص ٢٤٠ ، أبو زهرة « نفسه » .
(٣١) عباس العقاد « ما يقال عن الاسلام » ص ٢١ .

السام أو القضاء الخاص بالأحوال الشرقية والمحاكمات الشرعية ، فلا يزال تعدد الزوجات عملاً مشروعاً في ج.ع.م والباكستان وإيران والعراق واندونيسيا وأن العرف ليقبضه ، بتأثير القدوة العربية وتأثير متاعب تعدد الزوجات إلى النقص منه ، ويزداد هذا النقص مع الزمن ، فتنظر المسلم المعاصر إلى البناء بأكثر من زوجة واحدة كأنه طراز عتيق ، وتختلف هذه النظرة بشيء من الترفع لأنه عمل يكاد أن ينحصر في الطبقة الرضيعة وأن المصلحين ليجدون المسند الأقوى للاكتفاء بالزوجة الواحدة في آيات الكتاب إذ تدل الكلمات الأخيرة من الآية المشهورة في السورة الرابعة ، على أن الزواج المفضل هو البناء بزوجة واحدة .

والحقيقة أن الإسلام سمح بتعدد الزواج لأغراض عمرانية سكانية وأغراض إنسانية نبيلة ، وأباح ذلك لضرورات حيوية لايسع مشرع حكيم إلا أن يقيم لوزنها أكبر وزن في تشريعها وخاصة إذا كان يشرع لجميع شعوب العالم كما هو الشأن في الإسلام .

فمن الأبحاث التي أقرها علماء الاجتماع أمثال جينزبرج وويستر مارك أن تعدد الزوجات كان النظام المتبع في الشعوب المتقدمة في حين كان نظام الزوجة الواحدة هو النظام المتبع عند الشعوب المتأخرة وأن الشعوب التي كانت تحرم الزواج بأكثر من واحدة ، إنما كانت تتبع تقاليد لا تتصل بالدين ، كما أن الشعوب التي أجازت الزواج بأكثر من واحدة ، إنما أجازته طبقاً لما رأت فيه من فوائد اقتصادية أو ديمرافية دون النظر إلى ذلك الدين ، فلم يرد في الإنجيل نص صريح يدل على تحريم الزواج بأكثر من واحدة ، وأن الإسلام في إباحته تعدد الزوجات قد أباحه في حدود معينها وظروف حددتها وبتقيود تجعل من العسير الأخذ به إلا في حالات اضطرارية (٣٢) .

كما أنه ثبت من علم الإحصاء أن نسبة الوفيات من الذكور أكثر منها في الإناث وذلك من ساعات الولادة حتى أول مراحل الشباب الأمر الذي يؤدي إلى زيادة نسبة الأحياء من الإناث على الذكور وفي مرحلة الشباب

(٣٢) عبد الرزاق نوفل ص ٩٢ .

تظل النسبة ثابتة ، اذ يموت من الشبان أكثر من الشابات وذلك يرجع أولا الى الحروب والى اخطار الأعمال التى يقوم بها الرجال فى المصانع والمعامل حيث نجد الوفيات بين الرجال أكثر منها بين النساء وكذلك فان كثافة الأعمال التى تسبب الأمراض الخطيرة والموت المفاجيء والحوادث القتالة يتعرض لها الرجال مثل رجال المطافئ والغواصون ورجال الانقاذ ورجال الملاحة وغيرهم مما يجعل نسبة الأحياء من النساء أكثر من الرجال (٣٣).

واذا فرضنا جدلا أن جيلا من الأجيال انعدمت فيه الحروب والحوادث ونسأوت نسبة الأحياء من الذكور والاناث فى العمر حتى مرحلة الشباب فان كل فتاة فى سن الزواج لن تجد الفتى الذى يلائمها فى العمر على درجة الاستعداد للزواج نسبة لتكاليف المعيشة والزواج (٣٤) .

وبمناسبة هذه الأسباب الانسانية العامة التى تبرز نظام تعدد الزوجات كثيرا ما تطرأ على الحياة الزوجية أسباب خاصة تجعل التعدد ضرورة لازمة فقد تكون الزوجة عقيما أصليا أو قد تصاب بالعم بعد زواجها ، فلا تحقق فى كلتا الحالتين أهم غرض من أغراض الزواج ، وقد نصبح على اثر اصابتها بمرض جسمى أو عصبى أو بعاهة غير صالحة للحياة الزوجية فى اخص شسئونها وفى هذه الأحوال وأحوال أخرى كثيرة من نوعها ، يكون زواج الرجل بغير زوجته ضرورة لازمة لضمان الاستقرار العائلى ، وتحقيق الأغراض العمرانية من الزواج وللوقاية من الوقوع فى الرذيلة (٣٥) .

وقد أوجب الاسلام على الزوج فى حالة تعدد زوجاته أن يعدل بينهما واشترط على من يريد تعدد الزوجات أن يكون واثقا بقدرته على هذا العدل وأمره فى حالة خشيته من الجور أن يقتصر على واحدة قال تعالى « وان خفتم الا تضطوا فى اليتامى فأنكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فان خفتم الا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى الا تعدلوا » (٣٦) .

(٣٣) عبد الواحد وفى « الأسرة والمجتمع » ص ٤٣ .

(٣٤) عبد الرزاق نوفل « الاسلام والعلم الحديث » ص ٩٣ .

(٣٥) عبد الواحد وفى « نظام الأسرة فى الاسلام » ص ١٧٦ .

(٣٦) سورة النساء آية ٣ .

ولكن العدل الذى امر الله به مقصور على الأمور التى يستطيع الرجل أن يعدل فيها بين زوجاته كالأمور المتعلقة بالمأكل والمشرب والملبس والسكن والمبيت والوقت الذى يقضيه الرجل مع كل زوجة من زوجاته أما الأمور التى لا يستطيع الرجل بحسب طبيعته البشرية أن يعدل فيها كالميل النفسى والحب ، وما يترتب على ذلك من آثار فى العلاقات الخاصة بين الزوج وزوجته ، فلا تدخل فى نطاق العدل المأمور به .

وهذا هو ما وضحه الكتاب الكريم اذ يقول « ولن تستطیعوا أن تعدلوا بین النساء ولو حرصتم ، فلا تمیلوا کل المیل فتذروها کالمعلقة ، وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله کان غفورا رحیما » (٣٧)

ومعنى ذلك أن الرجل لا يستطيع سبيلا الى العدل المطلق بين زوجاته مهما حرص على تحقيقه ، لأن ثمة أمورا لا سلطان للإنسان عليها كالحب والميل النفسى فلا يستطيع تبعا لذلك سبيلا الى العدل فيها بحسب طبيعته البشرية ، وليس الرجال مكلفين بالعدل فى هذه الأمور لأن البشر لا يكلفون الا ما يستطيعون القيام به ، وهم مكلفون بالعدل بين زوجاتهم فيما يستطيعون العدل فيه (٣٨) .

المرأة المسلمة والطلاق :

يعتبر موضوع الطلاق من الموضوعات الهامة التى بدأ الغرب يصوب اتهاماته نحوها ، ويذكرون أن المسلمين يستخدمون هذا التسريع الالى أسوا استغلال ، ويتزوجون النساء ويطلقوهن بدون أسباب أو مبررات ، مما أدى الى تدهور الحياة الاجتماعية بين الشعوب الاسلامية .

والحقيقة أن الاسلام شرع الطلاق من أجل استقرار حياة الإنسان لأن كثيرا ما يحدث فى هذه الحياة ما يقتضى الطلاق ، بل ما يجعله ضرورة لازمة ووسيلة متعينة للاستقرار العائلى والاجتماعى .

ولسكن الاسلام لم يبحه على الاطلاق ، بل قيده بقيود تكفل تحقيق

(٣٧) سورة النساء آية ١٢٩ .

(٣٨) محمود شلتوت « الاسلام عقيدة وشرعية » ص ١٨٤ .

المصالح العام ومصالح الأسرة نفسها ، ومكفل تحقيق التوازن في حقوق كل من الزوجين وواجباته والمساواة بين كليهما في هذه الشؤون .

ولذلك بغض الاسلام الناس في الطلاق ، وصورة في ابشع صورة ، وحث المسلمين على اتقائه ما استطاعوا الى ذلك سبيلا ، وفي هذا يقول الرسول عليه الصلاة والسلام « ابغض الحلال الى الله الطلاق » (٣٩) « تزوجوا ولا تطلقوا ، فان الطلاق يهتز له عرش الرحمن » (٤٠) .

ولم يكتف الاسلام بهذا الزجر وهذا الوعيد ، بل اتخذ من النظم في شؤون الأسرة مايكفل تحاشي الطلاق الاسباب قوية قاهرة .

فقرر انه لا يصح الالتجاء الى الطلاق لاسباب يمكن علاجها او لامور يمكن ان تتغير في المستقبل او لا تحول بطبيعتها دون استقرار الحياة الزوجية على وجه ما . وحتى الامور التي تتعلق بعاطفة الزوج نحو زوجته او بكراهيته لبعض احوالها لا يعدها الاسلام من مبررات الطلاق .

وفي هذا المعنى يقول الله تعالى « وعاشروهن بالمعروف ، فان كرهتموهن فعسى ان تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » (٤١) .

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم « لا يفرك مؤمن مؤمنة ان كره منها خلقا رضى منها آخر » (٤٢) .

ومن النظم التي قررها الاسلام لتحاشي الطلاق انه امر الزوجين عندما يحدث بينهما شقاق او نفور ان يعملوا على ازالته بانارة دواعي الرحمة والوفاء (٤٣) وفي هذا يقول الله تعالى « وان امرأة خافت من معلنها نشوزا

(٣٩) رواه البخاري باب الطلاق .

(٤٠) ذكره الكاساني في كتابه « بدائع الصنائع » باب الطلاق .

(٤١) سورة النساء آية ١٩ .

(٤٢) رواه مسلم في صحيحه .

(٤٣) عبد الواحد وافي « نظام الأسرة في الاسلام » ص ١٨٤ .

أو اعراضا . فلا جناح عليهما ان يصلحا بينهما صلحا والصلح خير » (٤٤) .

ومن النظم التي قررها الاسلام كذلك لتحاشي الطلاق . انه اوجب على الزوجين اذا لم يستطيعا ان يصلحا ما بينهما بنفسيهما وبوسائلهما الخاصة ان يعرضا امرهما على مجلس عائلي يتألف من حكمين ، حكم من اهل المرأة ، وحكم من اهل الرجل ؛ اي من رجلين لا يرى كساد الزوجين غضاظة في الافضاء اليهما بذات نفسيهما وبأسباب شقاقهما .

وهما يعملان على بحث اسباب الشقاق والنوغيق بين رغباب الزوجين حتى يحل الصفاء والوئام (٤٥) .

يقول الله تعالى « وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من اهله وحكما من اهلها ان يريدوا اصلاحا يوفق الله بينهما ان الله كان عليما خبيرا » (٤٦) .

ومن الامور التي قررها الاسلام لتحاشي الطلاق انه قد رتب عليه من الناحيتين المالية والاجتماعية نتائج خطيرة والتي بسببها على كاهل الزوج اعباء ثقيلة . وان من شأن هذه النتائج والاعباء ان تحمل الزوج على ضبط النفس وتدبير الأمور قبل الطلاق . فقد قرر انه يجب على الزوج اذا طلق زوجته ان يوفيها مؤجل صداقتها ويقوم بنفقتها من مأكلا وشرب وملبس وممكن ما دامت في العدة ، وتكون حضانة اولادها الصغار لها ولقريبانها حتى يكبروا ؛ ويقوم بنفقة اولادها منه واجور حضانتهم ورضاعتهم ؛ حتى لو كانت الام نفسها هي التي تقوم بذلك (٤٧) قال تعالى « فان اضمن لكم فاتوهن اجورهن » (٤٨) .

فاذا لم يستطع مجلس التحكيم ان يوفق بين الزوجين ، ولم تجد الوسائل السابقة جميعا ، ولم تنثن الزوج عن عزمه على الفرقة كان في ذلك دليل على قيام حالة خطيرة تهدد استقرار الأسرة .

(٤٤) سورة النساء آية ١٢٨ .

(٤٥) شلتوت المرجع السابق ص ١٦٨ .

(٤٦) سورة النساء آية ٣٥ .

(٤٧) عبد الواحد وافي « نظم الأسرة » ص ١٨٦ .

(٤٨) سورة الطلاق آية ٦ .

عندئذ يجيز الاسلام للزوج الطلاق لمصلحة الأسرة ، ولتحقيق الصالح العام .

وحتى في هذه الحالة قد احاط الاسلام بالامر فوضع لالطلاق نظاما يتيح للزوج في أثناء إجراءات الترتة فرصة طريفة لمراجع نفسه ، ويعدل عما شرع فيه . ان كان ثمة سبيل للابقاء على الحياة الزوجية فأباح للزوج ان يراجع زوجته بعد كل من الطلاقين الأولين .

فاذا تكرر الطلاق مرة ثالثة كان ذلك دليلا على ان الحياة الزوجية قد أصبحت غير محتملة بين الزوجين وانهما حاولا جبرا اختل عليهما نظامهما ، فحينئذ يقرر الاسلام الفرقة بينهما نهائيا ، ولا تحل له بعد ذلك حتى تنمحى آثار العقد الأول والحياة الزوجية الأولى انهما تاما ذلك لا يكون الا اذا تزوجت من شخص آخر ، وانتهى الأمر بطلاقها منه طلاقا عاديا ، وراى كلاهما بعد هذه المدة الطويلة ، وبعد تغير الأحوال على هذا الوجه انه من الممكن استعادة الحياة الأولى على وضع 'يوم وأمثل' (٤٩) .

وفي هذا يقول الله تعالى « الطلاق مرتان فامسك بمعروف أو تسريح بإحسان » (٥٠) الى ان قال « تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون » (٥١) فان طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره ، فان طلقها هذا الزوج طلاقا عاديا « فلا جناح عليهما ان يتراجعا ان ظنسا ان يقيما حدود الله ، وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون » (٥٢) .

هذا ولم يدخر الاسلام وسعا في احاطة المرأة المطلقة بعطف كريم ورعاية كريمة وفي العمل على حفظ حقوقها وحمايتها من الأضرار بها ، وذلك بما سنه من نظم رشيدة في النفقة والحضانة والعدة والأرضاع وطرق ايقاع الطلاق وزمنه وما الى ذلك .

هذه هي تعاليم الاسلام والسمة التي تعمل على المحافظة على الأسرة

-
- (٤٩) المرجع السابق ، ص ١٨٧ .
 - (٥٠) سورة البقرة آية ٢٢٩ .
 - (٥١) سورة البقرة آية ٢٢٩ .
 - (٥٢) سورة البقرة آية ٢٢٠ .

غوية متماسكة منضابة . فإذا اختل بنسائها وتماسكها اوجد الدلول ، فإذا عجزت أوجب الطلاق كما رأينا أيعيد البناء والتماسك .

وإذا كانت هذه القضية تسد شغلت بال الغرب ، وبدأوا يتخذونها مادة لهجومهم على الاسلام . لذلك أثرت أن أتى برد على هذه الاتهامات من قبل مستشرق انجليزى منصف من رجال القانون يسمى مستر بننام فى كتابه « اصول الشرائع » وفيه ينتقد النظام الكنسى المسيحى الذى يمنع الطلاق ، جاء فيه « حقا ان الزواج الأبدى هو الأليق بالانسان والملائم لحاجته » ، والأوفق لأحوال الأسرة ، والأولى الأخذ به ، ولكن ان اشترطت المرأة على الرجل ألا تنفصل عنه ، حتى لو حلت فى قلبيهما الكراهية الشديدة مكان الحب والثقة لسكان ذلك امرا منكرا لا يستسيغه أحد من الناس ، على ان هذا الشرط موجود بدون ان تطلبه المرأة ، اذ القسانون السكنسى يحكم به ، فيتدخل بين العائدين حال التعاقد ويقول لهما ، انتما تقتربنا لتكونا سعيدين ، فاعلمنا انكما تدخلان سجننا سيحكم غلق بابيه ، ولن أسمح بخروجكما ، وان تقتاتلتما بسلاح العداوة والبغضاء (٥٣) .

ويعلق المستر بننام على هذا بقوله « ولو كان الموت وحده هو المخلص من زواج هذا شأنه لتنوعت صنوف القتل ، واتسعقت مذاهبه » ، ولكن لحسن الحظ استحدث المسيحيون من القوانين مايفتح لهما ابواب الطلاق ، ويعفيهم من أن يلجأوا الى القتل أو الانتحار للخروج من هذا السجن « (٥٤) .

لذلك رأينا ان القوانين الوضعية فى الغرب بدأت تشرع الطلاق لتقضى على كثير من الانهيار والفساد الذى عم الاسر الغربية ، ولكن جميع هذه الحالات من الطلاق لا ترضى عنها الكنيسة ، ولكنها تقف صامتة امامها ، فنجد أن آلاما من حالات الطلاق وزواج المطلقين والمطلقات الذين يعدون فى نظر الكنيسة زناه ، تحكم بها المحاكم الأوربية والأمريكية . وتنفسها الهيئات المدنية فى مختلف شعوب الغرب المسيحى على مرأى من الكنيسة ومسمع من رجال الدين ، دون أن تحرك ساكنا .

(٥٣) منير البعلبكي « دفاع عن الاسلام » ص ١٢٥ .

(٥٤) المرجع السابق .

الرق في الاسلام :

يذكر الاستاذ عباس العقاد في كتابه « ما يقال عن الاسلام » ان مسألة الرق في الاسلام موضوع حملة من اقوى الحملات العصرية يتآمر عليها الذين لايتفقون على شيء فيها عدا هذه الحملات وهم الماديون المنكرون للاديان وجماعات المشرين الذين يحترفون صناعة الدعوة الى هذا الدين او ذاك (٥٥) .

والواقع ان الرق كان امرا شائعا منذ قديم الزمان ، ولم يذكر التاريخ بداية استعباد الانسان لآخيه الانسان واسترقاقه الا انه عرف ان الهند كانت من قديم الزمان تعيش على الحكمة التي تقول « من ليس برهيسا فهو عبد للبرهيس » كما ان الفراعنة بنوا الاهرام بسواعد الرقيق (٥٦) .

والرق كان معروفا عند جميع الامم القديمة خاصة عند اليونان والرومان ، كما ان التوراه اباحت الاسترقاق بطريق الشراء او سبيا في الحرب ، وكذلك المسيحية ، فقد سمحت بالرق ، ويؤكد ذلك قول ثوما الاكوني في ان الرق حال من الحالات التي خلق عليها بعض الناس بالفطرة الطبيعية ، وليس مما يناقض الايمان ان يقنع الانسان من الدنيا بأهون نصيب (٥٧) .

وقد انتشر الرق عند العرب قبل الاسلام انتشارا كبيرا ، وكانت الحروب التي لاتنقطع في الجزيرة العربية ، وكان الغالب يأسر من المغلوبين من يستطيع ليصبحوا عبيدا ، ومن وسائل الرق عند العرب القوة فاذا قابلت قبيلة قوية قبيلة ضعيفة استسلمت القبيلة الضعيفة للقوية ، وخضعت لها واصبح افرادها عبيدا .

ومن وسائل الرق عند العرب الهجوم السريع ، فالشخص الذي يمشى وحده أو الجماعة من الناس التي تمشي دون أن تستطيع حماية نفسها كانت عرضة للخطف نتيجة هجوم سريع فيصبحون بذلك عبيدا (٥٨)

(٥٥) عباس العقاد « ما يقال عن الاسلام » ص ١٥١ .

(٥٦) أحمد زكي « الرق في الاسلام » ص ٩٨ .

(٥٧) العقاد « حقائق الاسلام واباطيل خصومه » ص ٢١٥ .

(٥٨) أحمد شلبي « مقارنة الأديان » ص ٣٣٥ .

والرقيق يعتبر مملوكا لسيدده اذا اشتراه كمتاعه . له الحق في بيعه
أو قتله واذا كانت أنثى فله ان يستمتع بها كيف شاء ، وليس للرقيق قبل
سيده ولا قبل المجموعة . ولا الدولة أى حق ، بل عليه كل الواجبات
مشروعة أو غير مشروعة كانت في الاستطاعة أم لم تكن ، بل بلغ من
الاستخفاف بأمر هؤلاء الرقيق ان كانت الفلاسفة والحكماء يقررون ان
ارواح الرقيق غير خالدة (٥٩) .

وجاء الاسلام الذى صوره المستشرقون على انه اباح الرق . وابع
استرقاق الأسرى وقتلهم ، كما انه جعل هذا النظام نظاما مشروعا . فهذا
كتاب يحمل اسم « الاسلام في اثيوبيا » يقول كاتبه « وتجارة الرقيق ،
وما تدره من ارباح تفوق حد التصور . تغرى كثيرين على احترامها . ولهذا
اشتغل بها عدد كبير من العرب . فيمكننا اذن ان نتصور العدد الكثير من
العرب الذى اشتغل بهذه التجارة ، وكون المراكز التجارية الكبيرة
والصغيرة ، واستقر في هذه المراكز المنتشرة بين قرى شرق افريقية
صغيرها وكبيرها » (٦٠) .

وهكذا يحصر مؤلف هذا الكتاب تجارة الرقيق في العالم كله في
افريقيا ، ثم يحصرها في العرب ، كأن الرقيق لم يكن يسود العالم كله .

ثم يستطرد ويقول : « ولسكن الاسلام وحد بين العرب وحسد من
خصوماتهم ، وأوقف غزواتهم التي كانوا يشنونها على بعضهم ، كما حرم
أن يسترق مسلم مسلما وبذلك نقص مورد من موارد الرقيق الذى كان
يعتمد عليه العرب في حراسة قوافلهم وزراعة أرضهم وخدمتهم وليس هناك
من مكان يستطيع أن يسد هذا النقص سوى الساحل الأفريقى للحر الأحمر ،
وما يسكنه — من مورد لا ينقطع — من شعوب سوداء » (٦١) .

وبذلك يعمد المؤلف الى الوقعية بين المسلمين والأفريقيين الذين
يريدون اعتناق الاسلام .

(٥٩) المرجع السابق .

(٦٠) عبد الكريم الخطيب « الاسلام في مواجهة الملحددين والماديين »

ص ١٦٣ .

(٦١) المرجع السابق .

والحقيقة التي لا شك فيها أن الإسلام حرر البشرية من عبودية الرق ، وأوصى بتحرير الرقيق ، وكما هي سنة الإسلام بعدم الأخذ بهدا الطفرة فقد عالج مشكلة الرق بمحاولة الغائها على مراحل ، لأن المجتمع العربي كان يعترف بهذا النظام ويسير عليه ، ومن الصعب أن يجيء الإسلام ويلغى هذا النظام ويحرر جميع العبيد الموجودين في العالم الإسلامي دفعة واحدة مما يؤدي إلى ثورات السادة الكبار ، وتخلخل المجتمع وخلق مشكلة جديدة أزاء هذه الفئة المحررة .

لذلك قضت الحكمة الإلهية بأن يتدرج إلغاء الرق ، ورسمت له خطة محكمة تتألف من النقاط التالية :

١ — لا يرد في القرآن الذي هو النصوص الأصلية الأساسية ، أي فصل يدل على الأمر بالاسترقاق أو اتخاذ الإماء سراري ، أن كان ذلك لا يمنع أن يتحدث القرآن عن هذا حديث من يعرفه ويقره كواقع ويرتب الأحكام التشريعية على أساس واقعته التي تقضي الحكمة بأن تترك مؤقتا (١٢) .

٢ — تتكفل النصوص من الكتاب والسنة ببيان أن الرق واقع مكروه ، وتشريع ما يكفل تصفيته من العتق في مناسبات متعددة ، لما عرض في سوق المعارضات ما يبيع كل من في يدهم رقيق ليحرره وليأخضوا العوض المجزى لهم ، من صور تلك المعارضات .

(أ) العوض المالي :

وذلك بأن يشتري العبد نفسه من سيده ، ومالك رقبته نظير مال يتفقان عليه ، فإن اتفقا على الثمن المطلوب ، أعطى السيد عبده كتابا بهذا يحدد فيه المال الذي كاتب عبده عليه ، ويسمى الرقيق في تلك الحال مكاتباً ، لا يتحرر من الرق حتى يؤدي المال الذي كوتب عليه . وقد دعا الإسلام إلى هذه المسكاتبة ، وجعلها أمراً ملزماً لمالك الرقيق إذا طلب

محمد المدني « المجتمع الإسلامي كما تنظمه سورة النساء »

(م ١٠ — الاستبراء)

الرقب من ذلك منه فقال تعالى « والذين يبتغون المكاتب مما بذلت إيمانكم فكذلك وهم أن علمهم فيهم خيرا » (٦٣) وهي دعوة إلى مالك الرقيق أن ينظر في حاله ، وأن يتحرى قدرته على الحياة ، إذا هو تحرر من أسر الرق ، فإن بعض الأرقاء قد أفسد الرق وجودهم الإنساني وفي خروجهم من يد مالكهم ضياع لهم .

ولما كان الرقيق المكاتب لا يملك مالا ، فقد جاء أمر الإسلام أنى المسلمين أن يخفوا لمساعدته ، وتخليصه من قيد الرق بتقديم المال المطلوب منه فقال تعالى « وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » (٦٤) وقال سبحانه « ولئن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والمكاتب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، والسائلين ، وفى الرقاب » (٦٥) .

وقال جل شأنه « فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة ، فك رقبة ، أو اطعمهم فى يوم ذى منقبة ، يقيمسا ذى متربة أو مسكينا ذى متربة » (٦٦) .

ولم يكف الإسلام فى شأن الرقيق المكاتب بهذا ، بل جعل فى الزكاة المفروضة فى مال أصحاب المال من المسلمين نصيبا لبؤلاء المكاتبين ، فقال تعالى « إنما الصدقات للفقراء والمساكين ، والعاملين علىها والمؤلفة تسلوبهم ، وفى الرقاب والغنميين وفى سبيل الله وابن السبيل » (٦٧) من الله .

(ب) العوض بما يقابل المال والجهد :

وهناك أعمال يرتكبها المسلم مخالفا فيها شريعة الله ، فإذا أراد أن يكفر عنها كان كفارة ذلك مالا تنفقه فى سبيل الله ، وعيدا يعتقه أو

- (٦٣) سورة النور آية ٣٣ .
- (٦٤) سورة النور آية ٣٣ .
- (٦٥) سورة البقرة آية ١٧٧ .
- (٦٦) سورة البلد آية ١١ — ١٦ .
- (٦٧) سورة التوبة آية ٦٠ .

أياماً معدودات يصومها فمن ذلك : الحنث في اليمين وكفارته كما يقول القرآن « اطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة » فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة إيمانكم إذا حلفتُمْ » (٦٨) .

وهناك القتل الخطأ ، وكفارته كما نص القرآن الكريم « ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ، ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا . فإن كان من قوم عدو لكم ، وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة . وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق ، فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة . فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين » (٦٩) .

وهناك الظهار ، وهو أن يقول الرجل لزوجته « أنت على كظهر أمي ، يريد تطليقها وتحريمها بهذا البدع من القول ، وفي هذا يقول الله تعالى « والذين يظاهرون من نسائهم ، ثم يعودون لما قالوا ، فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلك توعدون به ، والله بما تعملون خبير ، فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا ، فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً » (٧٠) .

فهذه ثلاثة وجوه ملزمة للمسلمين ، فتحتها الإسلام لتحرير العبيد من أسر العبودية ، وقد كان لهذه الوجوه أثر ظاهر في تحرير أعداد لا حصر لها من الرقيق (٧١) .

٣ - يقصر الإسلام مورد الرزق على الأسر في حرب لاعلاء كلمة الله تعالى ، وفي هذه الحرب لا يجوز للمسلمين أن يتخذوا أسرى حتى تئخنوا أي حتى يظهروا غيها ، وتعلموا كلمة الحق والتوحيد ، وإذا اتخنوا في حرب وانتصروا كان لهم أن يأسروا حينئذ ، ثم كان لأولياء الأمر الخيار المقرر بقوله تعالى « فإما منا بعد وإما فداء » أي فإما أن تمنوا عليهم مئلاً

(٦٨) سورة المائدة آية ٨٩

(٦٩) سورة النساء آية ٩٢

(٧٠) سورة المجادلة آية ٣ ، ٤

(٧١) عبد الكريم الخطيب « الإسلام في مواجهة الماسيين المحدثين »

تدلققوهم تفضلا عليهم واحسانا بغير مقابل ، واما ان تتخذوا منهم فداء اى تدلققوهم بمقابل ، وعلى هذا فلا ذكر صراحة للاسترقاق ، وانما يتكلف بعضهم فيجعل الاسترقاق داخلا في المن لان المن اما ان يكون كاملا باطلاقهم دون اى مقابل ، واما ان يكون جزئيا باعفائهم من القتل مع استرقاقهم ، وبعضهم يحاول ادخال الاسترقاق تحت الفداء فيقول ان فداء حياتهم اما ان يكون بمقابل ما يبدلونه او بنفس الاسير حيث يستعبد ويسترق ثمننا لابقائه حيا دون قتله (٧٢) .

والخلاصة التي ننتهي اليها ان هذا النص هو الوحيد المتضمن حكم الاسرى وسائر النصوص تتضمن حالات اخرى غير حالة الاسر : وانه هو الاصل الدائم للمسالة ، وما وقع بالفعل خارجا عنه كله لمواجهة حالات خاصة واوضاع وقتية ، فقتل بعض الاسرى كان في حالات فردية يمكن ان يكون لها دائما نظائر ، وقد اخذوا باعمال سابقة على الاسر ، لا بمجرد خروجهم للقتال ، ومثال ذلك ان يقع جاسوس اسيرا فيحاكم على الجاسوسية لا على انه اسير ، وانما كان الاسر مجرد وسيلة للقبض عليه .

ويبقى الاسترقاق الذي كان لمواجهة اوضاع عالمية قائمة ، وتقاليد في الحرب عامة ، ولم يكن ممكنا ان يطبق الاسلام في جميع الحالات النص العام « فاما منا بعد واما فداء » في الوقت الذي يسترق اعداء الاسلام من يأسرونهم من المسلمين ، ومن ثم طبقه الرسول صلى الله عليه وسلم في بعض الحالات فاطلق بعض الاسارى منا ، وفادى ببعضهم اسرى المسلمين ، وفادى بعضهم بالمال وفي حالات اخرى وتمع الاسترقاق لمواجهة حالات قائمة لاتعالج بغير هذا الاجراء (٧٣) .

تلك هي الخطة التي وضعها الاسلام لتصفية الرق ، وتضييق مداخله وتوسيع مخرجه ، ولا ينبغي ان يؤخذ الاسلام بفعل المسلمين ، فيما بعد حينما كان الاسترقاق خارجا على هذه الخطة ، وكان الخلفاء من امويين وعباسيين وغيرهم من الاغنياء يتخذون السرارى بغير تقييد ،

(٧٢) المدني « المجتمع الاسلامي كما تنظمه سورة النساء » ص ١٤٨.

(٧٣) سيد قطب « في ظلال القرآن » ج ٦ ص ٣٢٨٥ .

بل يتوسع وأسراف فإن ذلك كله مناف لروح الاسلام ، وإن ادخل على النصوص بالآراء والأقوال وتأويل الرجال .

وقد راينسا فيما ذكرناه من آيات أن الأرقاء قد فتح الله أمامهم باب العتق لأن الاسلام يعتبر أن الرق ما هو إلا أمر عارضا .

أما موقف الاسلام من الأرقاء في حالة استرقاقهم فقد كان موقفا كريما أصيلا .

فقد ذكرت أحاديث كثيرة للرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الشأن منها جاء في الحديث « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين » ذكرتهم « ورجل كانت له أمة فغذاها فأحسن غذاها ثم أدبها فأحسن تأديبها ، ثم أعنتها وتزوجها » (٧٤) وقوله صلى الله عليه وسلم « من لطم مملوكا له أو ضربه فكفارته عتقه » (٧٥) وقوله صلى الله عليه وسلم « إلا أنبئكم بشراركم ؟ قالوا نعم يا رسول الله ، قال من أكل وحده ، ومنع رغبة ، وجلد عبده » (٧٦)

وقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرقائق حيرا قال : « اتقوا الله في الضعيفين المرأة والرقيق » (٧٧) .

ويؤيد هذا الكلام مستشرق هو ستانلي لين بول وهو يتحدث عن الأرقاء بأسبانيا عقب الفتح الإسلامي للأندلس قال : أما فرج العبيد بما طرا على نظام الحكم من التغيير فقد كان عظيما حقا ، يمسد أن لاغوا من ضروب العنف والقسوة من القوط والرومان ماتقشعر له الأبداء ، فإن الرق في رأى المسلمين نظام إنساني رقيق ، حتى أن النبي « صلى الله عليه وسلم » حينما لم يجد بدا من الإبقاء على هذا النظام العتيق الذي يعارض مبادئ الاسلام بذل كل جهد لتخفيف ويلاته في كثير من الوصايا والأحاديث (٧٨) .

(٧٤) رواه البخاري ج ٨ .

(٧٥) رواه مسلم وأبو داود .

(٧٦) رواه الطبراني .

(٧٧) رواه ابن ماجه .

(٧٨) لين بول « العرب في أسبانيا » ص ٤٠ .

ونرى مصداقاً لجميع هذه الآراء ما عرضه المستشرق جوستاف لوبون بقوله « واعترف جميع السياح الذين درسوا الرق في الشرق درساً جدياً بأن الفسجة المفروضة التي أحدثها حوله بعض الأوروبيين لا تقوم على أساس صحيح ، وأحسن دليل يقال تأييداً لهذا هو أن الموالى الذين يرغبون في التحرر بمصر ينالونه بإبداء رغبتهم منه أمام أحد القضاة ، وانهم لا يلجأون إلى حقهم هذا » . قال المسيو اير مشيراً إلى ذلك « يجب عد الرقيق في الإسلام منجوتاً على قدر الامكان » (٧٩) ويذكر السير توماس أرنولد ، ما يؤكد كلامنا هذا بقوله « كان للرقيق كما كان لسائر المواطنين حقوقهم ، بل قيل انه كان للعبد أن يقاضى سيده إذا أساء معاملته وانه إذا تحقق القاضى من اختلاف طبيعتهما اختلافاً بينا إلى حد تعذر الاتقان بينهما ، فله أن يرغم السيد على بيعه » (٨٠) .

وقد أوصى الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم بحسن معاملة الرقيق « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ، وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم » (٨١) .

ويقول الأستاذ العقاد في هذا الموضوع (٨٢) « ان الأديان جميعاً قبل الإسلام أباحت الرق ، والزمّت الأرقاء طاعة سادتهم وتسخيرهم في خدمتهم وخدمة ذويهم واعتبره بعض الدعاة قسماً مبرماً يعاقب به الخالق من يعصونه من خلقه ويضلون عن سبيله ، فشرع العتق ولم يشرع الرق ، وقد نذب المسلمون إلى فك الأسار عن الأسرى فجعله فريضة من التكفير عن ذنوب كثيرة .

أوجب الإسلام قبول الفداء مع استحسان فك الأسار بغير فداء وغرض تحرير الرقاب على من يقتل خطأ ، ومن يحنث في يمينه ، ومن بظاهر من زوجه ، ومن يؤدي الزكاة في مزارعها ومنها غدية الرقاب .

-
- (٧٩) جوستاف لوبون « حضارة العرب » ص ٣٧٧ .
(٨٠) توماس أرنولد « الدعوة إلى الإسلام » ص ٢٠٠ .
(٨١) سورة النساء آية ٣٦ .
(٨٢) عباس العقاد « ما يقال عن الإسلام » ص ١٥٤ .

ولم يبق الاسلام من قيود الرق الا ما هو باق الى اليوم سائى الدول
وسيبقى بعد اليوم الى ان يشاء الله .

فالقوانين الدولية اليوم تبيح تسخير الأسرى واعتقالهم الى ان يتم
الفداء بتبادل الأسرى او يبذل التعويض الذى تفرضه الدولة الغالبة .
وقد تأخرت دول الحضارة أكثر من عشرة قرون قبل ان تنظم بهامعاملات
الحرب على هذا النظام الذى شرعه الاسلام . وأوجبه على الدولة
الاسلامية ، وهى تتولى صرف الزكاة « فى الرقاب » .

فاذا كانت الدول غير الاسلامية ، لم تعرف لها نظاما يمنع لاطلاق
اسراها من الرق ، فهى المسئولة عن هذا التصير ، وليس فى الاسلام
ار الدولة الاسلامية ملامة ميسه ، وقد تعود الى الواقع من رايض الحرب
بين الدول الاسلامية ، وغيرها فتعلم ان هذه الدول الأخرى تسد تعلمته
من المسلمين نظام تبادل الأسرى وتحرير الأرقاء منذ اشتبكت الحروب بين
حكومات الروم فى آسيا الصغرى ، وحكومات المسلمين التى تجاورها .
ولو وجدت شريعة الفداء عند حكومات القرن السابع للميلاد ، كماوجدت
عند الحكومة الاسلامية لتقدم العالم كله فى قضية الأسير والرق أكثر من
عشرة قرون .

ولنسأل ادعاء التحرير فى العصور الحديثة ، ماذا يحدث فى هذا
العصر . لو لم يصبح تبادل الأسرى معاملة متفق عليها بين القتالين ؟
ماذا تصنع كل دولة بأسراها فى ميادين القتال ؟ هل تطفيهم فى العمل ؟
هل تعامل أعداءها المأسورين معاملة المواطنين أصحاب الحقوق ؟ هل
تطلقهم وتبقى جنودها المأسورين عند أعدائها ؟ هل تصنع بهم ما نبيها أكرم
من صنع الاسلام يوم اوجب على المسلمين ان يهنوا بالتسريح او يقبلوا
الفداء والعق أو يوجبوه فى مقام التكفير والاحسان .

ان صنيع الاسلام الذى اوجبه قبل أربعة عشر قرنا هو غاية
ماستطيعه دول الحضارة اليوم فى انصاف اسراها واسرى أعدائها ،
فأما ان يكون ، ولا كيف يأتى لنظام من النظام الدولية أن يستقر على .

على ان دول الحضارة لم تدرك فضيلة الدين الاسلامى ، ثريعات
الرق ، استثناء دولة منها فى أحدث تشريعاتها الانسانية كما قسموا ، أما

الإسلام فقد أنصف الارتقاء ابتداء بغير اضطراب إلى الانصاف انقضاء لثورة سياسية أو منازعة اقتصادية أو أزمة من أزمات الحروب والاستعداد بالسلاح .

إن أول خطوة من خطوات الحضارة الحديثة إلى تحرير الأرقاء جاءت على أثر النزاع بين أصحاب الصناعات الكبرى في بلاد تنفق الأجور الوفيرة على الصناع ، وبين أصحاب الصناعات حيث تدار بأيدي الأرقاء ، ولا تنفق عليها أجور ، فإن أصحاب الأموال والصناع معاً حاربوا الرق ليحاربوا هذه المنافسة ، واستجابوا لداعى المنفعة قبل أن يستجيبوا لداعى الكرامة الإنسانية .

ثم جاءت الخطوة الثانية يوم احتاجت الدول إلى العبيد لتجنيدهم أو لصنع السلاح في غيبة المجندين ، فخطبت ودهم بمنحهم حقوق الانتخاب والتصويت ، وجاءت بعدها آخر الخطى يوم نهضت القارة الأفريقية نهضتها تحررت شعوبها من سادتها وخاف أولئك السادة أن يسبيل السود إلى معسكر أعدائهم في سباق التنافس على التحرير واجتذاب قلوب المستضعفين إلى هذا الفريق أو ذاك الفريق ، فلما وصلت الحضارة الأوروبية إلى هذا المدى بعد طول التعمش والمحال ، لم تكن قضية الرق عندها قضية سماحة وانصاف وكذا كانت ولا تزال قضية مساومة واضطرار وحيلة من حيل السياسة والإدارة ، وخطة من خطط التأخير والاستغلال .

والفارق الأكبر في مسألة الرق من جانب الواقع التاريخي هو ذاك الفارق الذي تحصيه الأرقام بالحساب بين عدد الأرقاء في البلاد الإسلامية وعددهم في البلاد الغربية حيث يعيشون اليوم بين الأمريكتين ، فإن الأرقاء من الزنوج لم يزدوا في البلاد الإسلامية — بعد ثلاثة عشر قرناً — على ثلاثة ملايين أو نحو هذا العدد القليل بالقياس إلى سعة البلاد وطول الزمان واقتراب المكان ولكن عدد السود في الأمريكتين قد يبلغ العشرين مليوناً ولما لم يمض على قياس الحكم الأبيض هناك أكثر من ثلاثة قرون ، وبعد من هذا الفارق في العدد فارق في المعاملة التي لقيها الأرقاء في البلاد الإسلامية والمعاملة التي لقيها أخوانهم في الأمريكتين ، فلا وجسه للمقارنة بين المساواة في النسب والمصاهرة ، وحقوق الدم والمال وبين

تحريم المساكنة والمصاهرة ، واستباحة الدم انتقاما من الأسود الذى يرفع
هذه الحواجز بينه وبين سادته البيضى .

ان مسألة الرق تصلح للدعاية الواسعة بين الناشئة الاسلامية
والأمم الأفريقية التى تتحرر من قيودها وتتلمس سبيلها الى عقيدة مثلى ،
وحضارة يصلح لها وتخطبها بما يقنعها ، ولكنها دعاية للإسلام ، وليست
بالدعاية التى يحارب بها الإسلام ، فاذا انعكست الآية ، وذهب بها
سماسرة المادية والتبشير مذهب الحملة الشعواء على الإسلام ، بمسمع
ومشهد من المسلمين ، فمن ذا يلام على ذلك غير أولئك المسلمين « (٨٢) .

الفصل الخامس

الإسلام والعلوم الحديثة

الإسلام والعلوم الحديثة

يعجب المسلم عندما يقرأ ماكتبه الغربيون المستشرقون عن الإسلام والمسلمين وموقفهم من العلوم العلمية .

فهذا هو المسيو رينان أحد أعضاء جمعية المعارف بفرنسا في جامعة السوربون ببيريس (١) يكتب مقالا عن دين الإسلام والعلم ، وفيه ترى افتراءات واكاذيب وجهلا كبيرا بحقيقة الدين الإسلامي وموقفه من العلوم العلمية .

يقول المسيو رينان في ثانيا مقالة ص ٤ .

« كل من ذهب معنا الى المشرق او الى أفريقيا رأى ان عقولهم بلغت من الحق غاية حتى كأن دينهم صار كنانا على قلوبهم فحجبها عن ان ترى شيئا من العلوم والانكار الجديدة ، فلا ترى الا القليل من اولادهم من تشاهد فيه النبهة ، لكن اذا بلغ العشر او الاثنتى عشرة سنة وتعلم العقائد صار متعصبا في الدين ، واخذ يختال حقا على غيره ظاننا ان هذا هو الحق فيعد نفسه سعيدا بما اختصه مما هو في الحقيقة سببا لانحطاطه » (٢) .

(١) ارنست رينان أحد أعضاء جمعية المعارف بفرنسا في جامعة السوربون ببيريس له كتاب « الإسلام وآراء العلم والفلسفة » وهناك محاضرة معربة عن دين الإسلام والعلم قام بتعريبها على يوسف .

(٢) ارنست رينان « دين الإسلام والعلم » ص ٤ .

ويقول في موضع آخر ص ٨ « قال بعض كتاب المشرق المدعو « أبو الفرج » — وهو مسيحي ملطي — في انشاء كلامه عن طبع العرب « ان العلوم التي كانت تفخر بها هذه الأمة « يعنى العرب » هي علوم اللغة والعروض والقياف والانشاء اما من جهة الفلسفة فما علمهم الله منها شيئا وما جعلهم اهلا لها » ويستكمل مسيو رينان كلامه بقوله « وهذا هو نفس الحقيقة اذ البدو وان كانوا اكثر الناس كلاما وهم اقلهم في التأمل والبحث عن الخفى والعربى المتدين يكتفى في تعليل حوادث الكون بقوله : ان الله تعالى خالق العالم هو الذى يدبر الأمور مباشرة ، يرسل لنسب انبياء يرشدونا اليه . ولهذا لا ترى في المدة التي كان فيها الاسلام منحصر في الأمة العربية — اعنى مدة الخلفاء الاربعة الاولين ومدة بنى امية ادنى فكرة خارجة عن الديانة » .

ويقول رينان في موضع آخر ص ٣٩ .

« ان الدين الاسلامي اخر العقل البشرى وحجبه عن التأمل في حقائق الاشياء بنفوذ زاد منفعول تأثيره عن الاديان الاخرى حتى جعل بعض البلاد التي انتشر فيها كميدان لايعبر البحث عن حقائق الاشياء الذى به يتسع العقل ، وزد على ذلك ان عقول اهل هذه البلاد قاصرة من نفسها ، وما يتميز به المسلم هو بغضه للعلوم ، واعتقاده ان البحث كفر وقلة عقل لا فائدة فيه » (٢) حتى ان هذا المستشرق يشير الى ان رفاعسة رافع الطهطاوى عندما عاش في باريس اثناء بعثته ثم عاد الى مصر الف كتابا ادعى فيه ان العلوم مضادة للدين الاسلامي .

والى جانب هذه الاتهامات يقول : عندما دخل الاسلام بلاد الفرس اوقف النشاط العلمى حيث كانوا منفردين بالطب وعلى المسام بالفلسفة الاغريقية واساتفتهم كانوا من اهل الهندسة والمنطق فترى قسما قصصا

(٢) رينسان « دين الاسلام والعلم » ص ٣٩ .

الفرس التي اشتهروا فيها ووقائع رستم انه كان يدعو جاتليك كلما احتاج لعمل تنظرة ، وهذا الاسم كان يطلق على أساتفة وبطارقة النصارى . حتى انه يقول ان بغداد أسست عاصمة لهذه الدولة الفارسية ، لكن ما أمكن تعويض لغة الفاتحين أى لغة العرب باللغة الفارسية ، حتى انه يشك فى اسلام الخلفاء المشهورين أعنى المنصور وهارون الرشيد والمأمون المعاصرين للكارلويسيين عندنا فانهم كانوا يعملون ظاهرا لا باطنا بالديانة التي هم رؤساؤها ، وكانوا يبيلون لمعرفة كل شىء خصوصا الأشياء الأجنبية وثنية كانت أو هندسية أو فارسية أو غريقية (٤) .

هذه جملة افتراءات واكاذيب وجهل صدرت عن مستشرق فرنسى فى القرن التاسع عشر وأبواب القرن العشرين ، يحاول فيها أن يبعد عن الاسلام كل اتجاه علمى — ويرمى الاسلام بالجهود والتخلف ، ويسبب المسلمين ويدعى انهم يحرمون الاشتغال بالعلم .

والحقيقة اننى اخترت واحدا من هؤلاء المستشرقين * لانهم كثر والانحراف فى اقوالهم واحكامهم الجاهلة يسيء اليها ، ولكن لابد لنا من معرفة ما يقال عنا وما نتهم به حتى نستطيع ان نقدم الأدلة والبراهين التي نسوقها جميعا من كتاب الله « دستور المسلمين » .

ويرى الشاطبى فى الموافقات (٥) ان القرآن يشمل علوم الدين وعلوم الدنيا وهى ما تسمى بالعلوم الكونية ، وما يلحق بها من فنون وعلوم للمتقدمين والمتأخرين لعلم المنطق ، ودليل هذا قول الله فى كتابه العزيز : « ما فرطنا فى الكتاب من شىء » (٦) وقوله « ونزلنا عليك الكتاب تبياننا لكل شىء » (٧) .

(٤) المرجع السابق ص ١١-١٢ .

(٥) الشاطبى « الموافقات » ج ٢ ص ٥٢ .

(٦) سورة الأنعام آية ٢٨ .

(٧) سورة النحل آية ٨٩ .

ولذلك فإن العلوم الحديثة على اختلاف أنواعها وتباين موضوعاتها لم تكن نظرياتها وقواعدها أو قوانينها الا ترجمة ناطقة بلسان الحقائق الصامته الموجودة في الكون . فذات العلوم ومسمياتها موجودة عند موضوعاتها منذ خلقت الدنيا ، وانما عمل فيها واضعوها بعد ان استكشفوا حقائقها باستقرار جزئياتها ، عملوا امرين اثنين :

١ — تسميتها وجمع قواعدها وترتيبها .

٢ — تحقيقها ببراهينها وتطبيقها على افرادها .

ولنضرب لذلك مثلا الحرارة والبرودة فانهما خلقتا مع السموات والارض وكذلك الكهرباء الاستاتيكية مخلوقة مع الغمام وتلك شرارة كهربائية تبدو مشاهدة للعالمين كلما برق البرق ودوى الرعد قبل ان يعلم الانسان علم الكهرباء . والكهرباء الديناميكية موجودة قبل العلم بنظرياتها كلما كان احتكاك بين جسمين صلبين كالصلب والحديد مثلا ، وهكذا ظاهرتا الضوء والصوت ، فانهما من الحقائق حين يدا في الكون الضياء والاصوات وان الذي استطاع الانسان عمله من ذلك بعد مرور الالاف من السنين هو انه اهتدى اليها وكشف غطاء الجهالة عن وجهها فتجلت له نظريات وقواعد ونجارب ومسائل جمعت ورقت فساكنات علومها ، واختص كل علم بما يناسبه من تلك النظريات ، وان من الخطأ البين القول بأن العلماء اوجدوا باختراعاتهم طرق تسخير الطبيعة لارادتهم وتيسير سبل الانتفاع بها بعدد كثرها ، وكذلك نقول في العلوم الاجتماعية كعلم التاريخ مثلا الذي يقرر الحقائق الماضية التي وقعت في الأزمنة المنقرضة فيجمع المؤرخ شهاداتها ويؤلف بينها ويهذب عبارتها ويرتبها فتكون علما يسمى علم التاريخ اذا تجلى هذا يتبين لنا ان القرآن الكريم ، حينما يعرض لنظرية من نظريات العلوم التي استكشفت ، ولم يكن للعلماء علم بها من قبل ، فاننا نقول ان استكشاف ذلك العلم الذي منسب تلك النظرية أثبتت شسيتها موجودة في الكون من قديم الزمان (A) .

(A) رضوان شافعي « التوفيق العلمي » ص ١٩ .

والحقيقة التي أحب أن أركز عليها في هذا الموضوع هو أن الدين الإسلامي يبحث المسلمون على البحث والإطلاع والدراسة والتتقيب فهو ليس دين جمود ولم يحارب العلم مطلقا ، فكما ذكرت من قبل فإن أولى آياته التي نزلت على رسوله هي « اقرأ باسم ربك الذي خلق — خلق الإنسان من علق » (٩) . وتتكرر آيات القرآن الكريم في الدعوة الصريحة إلى النظر في خلق السموات والأرض ولابد أن هذا حض على البحث العلمي بقوله تعالى (١٠) « قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون » .

وقوله تعالى (١١) « أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء » .

وقوله تعالى (١٢) « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج » .

وقوله تعالى (١٣) « فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا ، فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا ، وحدائق غلبا ، وفاكهة وأبا متاعا لكم ولانعامكم » .

ويقرر القرآن أن الله سبحانه وتعالى علم الإنسان فيقول في سورة الرحمن (١٤) « خلق الإنسان علمه البيان » وفي سورة العلق « علم الإنسان ما لم يعلم » (١٥) وفي سورة البقرة (١٦) « واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم » .

(٩) سورة العلق آية ١

(١٠) سورة يونس آية ١٠١ .

(١١) سورة الأعراف آية ١٨٥ .

(١٢) سورة ق آية ٦ .

(١٣) سورة عبس آية ٢٤ — ٣٢ .

(١٤) سورة الرحمن آية ٤ .

(١٥) سورة العلق آية ٥ .

(١٦) سورة البقرة آية ٢٨٢ .

معنى ذلك ان آيات القرآن الكريم كلها تحت على البحث والاستقصاء والتعلم والتفكر ومعرفة اسرار السكون والاطلاع الدائب ، وسنورد امثلة صريحة لمعظم العلوم العلمية وان الله سبحانه وتعالى حض الانسان على الاهتمام بها بل وشرح نظرياتها التى يتصور الغرب انه صاحب فضل فيها ، وينسى ان للاسلام السبق فى ذلك ، فكيف لامة هذا دينها ان ترمى بالقصور والتخلف .

علم الجرافيا الطبيعية

من نظريات علم الجغرافيا ان الأرض كانت جزءا من الشمس ، ثم انفصلت لأسباب غير معروفة والدليل على ذلك وجود حرارة عظيمة فى جوف الأرض تصهر المعادن التى لاتصهر الا بحرارة عظمى وتنبعث من باطنها فوارات الماء الحميم مثل ماكان فى طوفان نوح عليه السلام . وهذا يرشدنا الى ان الشمس والأرض كانتا جزءا واحدا وكسذلك الحال بين الشمس والنجوم (١٧) . وفى ذلك يقول الله تعالى (١٨) « أولم ير الذين كفروا ان السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما » أى فصل الله تعالى الأرض عن السماء ثم « استوى الى السماء فسواهن سبع سموات وبالتالى فان النظريات الحديثة أثبتت ان القبة المضروبة فوق سطح الكرة الأرضية فضاء لم يستطع الانسان ان يدرك له نهاية ، بل عاين بالآلات نجوما وكمنوسا لاعداد لها مختلفة فى بروجها متباينة فى حجومها ويدل على ذلك قول الله تعالى فى سورة الفرقان (١٩) « تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا » ، والسراج هنا معناه الشمس .

وهناك مذنبات ذات اذيات ضافية وافلاك مترامية وهنالك كواكب اعظم حجما من الشمس لاتكاد هذه الشمس تذكر بجانبها .

وهناك نجوم تتم دورتها كل مائة سنة ، ومنها مايقم دورته كل ألف سنة ، ومنها مايقم كل مائة سنة وألف سنة ومنها مايقمها كل ثلاثة آلاف

(١٧) جمال الدين الفندى « قصة الكون » ص ٤٩ .

(١٨) سورة الانبياء آية ٣٠ .

(١٩) سورة الفرقان آية ٦١ .

سنة ومنها مايقمها كل مائة ألف سنة ، وقد عرف العلماء ذلك بواسطة حساب المثلثات الكروية (٢٠) .

واذا كان الغرب قد نوصل الى نظرية كروية الأرض ، وتحسب انه اضاف للعلم الجغرافى حقائق جديدة . فان الدين الاسلامى قد اثبت فى دستوره كثيرا من هذه الحقائق التى لم يكن على الانسان الا ان يتفهم معناها ، ولكن كيف يتفهم ذلك الا بسلطان العلم .

قال الله تعالى « والأرض مددناها » « ألم نجعل الأرض مهادا » « الذى جعل لسكم الأرض غراشا » ونحو ذلك من الآيات الشريفة الخاصة بالكرة الأرضية .

والله سبحانه وتعالى قد نفى عن الأرض صفة التسطح ، فلو كانت الأرض مسطحة ، لما كثر فى الآيات القرآنية قول الله وتذكيره لعباده بأن الأرض « مع كونها كروية » صالحة لمعاشهم ومع كونها كذلك تـد جعلها ذلولا ، نامشوا فى مناكبها آمنين على ظهريها لاتخافون تلقا ولا اضطرابا ، ومهما سرتن فلن تجدوا لها آخر فقد مددناها امامكم ، فلا تعترضكم نهايتها ولا نهاية لها .

واما الجسم المسطح فلا بد ان له نهاية من كل جانب فحينما يتوغل السائر فى ناحية منه وجد آخره فينقلب على عقبه .

ثم يقول الله تعالى فامشوا فى مناكبها ، بـدرن ان يحذرهم من المشى فى اطرافها « ان كانت مسطحة » فهذا دليل يصدع بأن الأرض لا اطراف لها والاطراف لازم من لازمات المسطح ونفى اللـازم وهو الاطراف يستلزم نفى اللزوم وهو المسطح ، فالأرض اذا كروية وليست مسطحة (٢١) .

(٢٠) جمال الفندى « حقيقة الكون » ص ٥١ — ٥٢ .

(٢١) رضوان شافعى « التوفيق العلمى » ص ٦٧ — ٦٨ .

الإسلام وعلم الفلك :

قال الله تعالى « والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم » (٢٢) وقوله تعالى « والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم » (٢٣) .

تستمر الشمس طول السنة في قطع محيط دائرة، وهذا المحيط يسمى الفلك وكذلك القمر ، فان له فلكا ، ولكن الشمس تقطع فلكها في سنة كاملة اما القمر فيقطعه خلال شهر واحد . وكل من الشمس والقمر ، وما يتبعهما من النجوم والتوابع في فلك يسبحون أي يسرون بسرعة شديدة، ثم ان فلك الشمس مقسم الى اثني عشر جزءا ، تقطع كل جزء في شهر وفي أثناء سيرها حين تقطع الجزء الأول من الاثنى عشر جزءا تكون الشمس موازية لسكواكب مخصوصة أي انها تسامت الكواكب التي فوقها في الشهر الأول ، وهذه المجموعة من الكواكب التي تسامتها الشمس ، وهي جزء من هذه الأجزاء تسمى برجا ، فإذا تم الشهر تكون الشمس قد انتهت من هذا البرج وانتقلت الى البرج الثاني ، وفي ذلك يقول الله تعالى (٢٤) « والسماء ذات البروج » وقوله تعالى (٢٥) « تبارك الذي جعل في السماء بروجا » .

ثم ان القمر يقطع فلكه في ثلاثين أو تسع وعشرين ليلة كل ليلة يقطع جزءا منه ، ويسامت كواكب كل ليلة غير التي يسامتها في ليلة أخرى من الشهر ، فالقمر مثل الشمس الا ان الليلة بالنسبة للقمر بمثابة الشهر بالنسبة للشمس ، والمجموعة من السكواكب التي تسامت القمر في ليلة واحدة تسمى منزلة ، والجمع منازل ، ولذلك يقول الله تعالى (٢٦) « هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل » وقوله (٢٧) « والقمر

-
- (٢٢) سورة يس آية ٣٨ .
 - (٢٣) سورة يس آية ٣٩ .
 - (٢٤) سورة البروج آية ١ .
 - (٢٥) سورة الفرقان آية ٦١ .
 - (٢٦) سورة يونس آية ٥ .
 - (٢٧) سورة يس آية ٣٩ .

قدرناه منازل « فذلك بروج الشمس وهذه منازل القمر . لستى ذلك المستقر
فى قوله تعالى (٢٨) « والشمس تجري لمستقر لها » .

والجواب اننا اذا قابلنا آية الشمس وهى « والشمس نجري
لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم » بآية القمر ، هى « والقمر قدرناه
منازل » نجد ان قوله منازل فى القمر تقابل قوله « لمستقر لها » فى
الشمس والدليل على ذلك أنه بمعرض ذكر حركة كل من الشمس والقمر
لقوله « وكل فى فلك يسبحون » ثم ذلك التقدير فى قوله « ذلك تقدير
العزيز العليم » وكما قال فى القمر « قدرناه منازل » أى أن المستقر مقدر
للشمس بتقدير العزيز العليم كما أن المنازل مقدره للقمر ايضا .

وعلى ذلك يكون مستقر الشمس هو برجها . وقد يقال ان المستقر
اسم مكان من استقر والبرج هو طائفة من الكواكب العالية جدا المسماة
للشمس ، فكيف تكون مستقرا للشمس ؟ والجواب ان ذلك مكان اعتبارى
او على حسب النظر ، ولما كان فلك الشمس أكبر من فلك القمر كانت
المسافة التى تقطعها الشمس عظيمة جدا تحتاج فى قطعها الى سرعة ،
ولذلك عبر فى جانب الشمس بلفظ تجرى ليشير الى أن تلك المسافة الطويلة
جدا فرض الله لها مدة تجرى فيها الشمس جريا حتى تتمكن من انمامها
فى موعدها (٢٩) .

وقد قال بعض المفسرين فى قوله تعالى « تجرى لمستقر لها » هذه
اشارة الى دوران الشمس حول محورها وهى الحركة الرجوية . والمستقر
هو محور الشمس ، وهذا بناء على القول بأن الشمس ثابتة فى مكانها
وانما تدور حول محورها دورتها الرجوية . ولكن الظاهر المتبادر من
الآيات التى وردت فى الشمس ان المستقر هو يوم القيامة الذى يستقر فيه
كل متحرك ، وانا لنجزم بأن معنى قوله تعالى « والشمس تجري لمستقر
لها » يساوى قوله تعالى « وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى »
فيكون قوله « تجرى لمستقر » مساويا لقوله « تجرى لأجل » وكل من

(٢٨) سورة يس آية ٣٨ .

(٢٩) رضوان شافعى « التوفيق العلمى » ص ١٠١ - ص ١٠٢ .

اللام في قوله استقر واللام في قوله لأجل للانتهاء أى تجرى الى مستقر وتجرى الى أجل مسمى فإذا جاء الأجل استقرت في مستقرها .

والحقيقة ان القرآن الكريم يسير سيرا منظما في شرح علم الفلك وغيره من العلوم التي حاول الناس بعسد ذلك أن يتفهموها ويشرحوا غامضها ويأتوا بنظريات فيها ، وقد شرحتها القرآن وبينها ، وبين سطوره معانيها ، ولكن عقلية الانسان هي التي لم تكن لتصل الى هذه الدرجة العالية من العلم لتتفهم كل ماخفى من معجزات القرآن فحينما تفتح لها نظرية جديدة تتصور أنها قد اُضيفت جديدا ، أما الحقيقة فهي انها تفهمت أشياء في السكون وفي القرآن لم تكن قد وصلت اليه من قبل .

ففي الفلك اذن نرى ان القمر يسير بأحكام نظام سيرا دقيقا يتخذه اناس فيما بينهم مواقيت بالايام حين ينزل كل ليلة ، منزلة من منازل التي قدرها الله له ، ويعرف به الناس مواعيد الحج في كل عام فكانه ساعة نعرف بها المواقيت كل يوم وكل عام .

وكذلك يسير الله الشمس وسائر الكواكب على ذلك النظام المحكم ، وهذا دلالة على ان الكواكب على اختلاف طبقاتها وتفاوت حجومها خاضعة بأسرها لذلك النظام المبدع وعلى ذلك يكون قول الله تعالى « مواقيت للناس والحج » ، وقوله (٣٠) « وهو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب » وقوله « فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب » (٣١) مرادا به السير بنظام هو غاية في الأحكام وليس مجرد أخبار .

لذلك فدين الاسلام دين العلم ، وهو الذي حث الانسان على التوغل في ملكوت السموات والأرض سواء بالدراسة او بالنفاز في الفضضاء في قوله تعالى « يا معشر الجن والإنس ان استطعتم ان تنفذوا من أقطار

(٣٠) سورة يونس آية ٥ .

(٣١) سورة الاسراء آية ١٢ .

السموات والأرض فانفوا لا تنفذون الا بسلطان » (٢٢) وقد قرر العلماء أن هذا السلطان هو قوة الله سبحانه وتعالى صاحب السلطان ، ولن ينفذ الإنسان الا بالعلم . فأين هذا مما يتهمنا به المستشرقون من تأخر وجمود .

الاسلام وعلم النبات والحيوان

قال الله تعالى في سورة الأنعام « وهو أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء ، فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخيل من طلعمها قنوان دائية ، وجنسات من اعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه ، انظروا الى ثمره اذا اثمره وينعه ان في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » (٢٣) .

توضح هذه الآية السكرية ما أثبتته علم وظائف الأعضاء في النبات من أنه عندما ينزل الماء من السماء ينبت البذور فتخرج أجنة النباتات من دور الركود الى دور النشاط ، وتبدأ في وظائفها الحيوية ، وينمو النبات ويتخصص أجزاء منه هي الأوراق في إنتاج المادة الخضراء « الكلوروفيل » وهي المادة اللازمة لتكوين المادة الغذائية في داخل النبات من عناصر التربة ، ومن عناصر الهواء ثم تنتقل هذه المواد الغذائية ، على هيئة عصارة داخل عروق النبات فتتكون البذور والثمار » (٢٤) .

ويقول الله تعالى في سورة النحل « وان لسكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين » (٢٥) وقوله تعالى « اولم يروا الى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم » (٢٦) وقوله تعالى « ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين » (٢٧) .

هذه بعض آيات القرآن التي تفتح للبشر النظر والبحث ، بل وتأمرهم بدراسة ما غمض فيها ، وتوضح للإنسان الأسس الأولى في هذين

(٢٢) سورة الرحمن آية ٣٣ .

(٢٣) سورة الأنعام آية ٩٩ .

(٢٤) محمود دياب « الطب والأطباء » ص ١٠٠ .

(٢٥) سورة النحل آية ٦٦ .

(٢٦) سورة الشعراء آية ٧ .

(٢٧) سورة الرعد آية ٣ .

العلمين ، أولهما أن كل مخلوق من مخلوقات الله سواء أكان إنسانا أم حيوانا أو نباتا فهو زوجان ذكر ومؤنث ، يتكاثران ويخرجان أصولهما من نفس نوعيهما .

وقد أمر الله الإنسان أن ينظر إلى النبات وكيف توضع بذوره في الأرض وكيف ينمو ويتزعرع ، ويخرج لنا حبا وفاكهة مختلفة أنواعها بالرغم من أن الأرض واحدة ، فهذه قدرة الله سبحانه وتعالى ، إلى جانب أن الله جل شأنه أوضح للإنسان كيف يعرف ذكر النباتات من مؤنثه لأن ما يظهر منه وما لا يظهر ، إلى جانب أن الله أوضح في آياته المحكمات أن النبات يلقيح بواسطة الرياح اللواتح، وتارة يكون بواسطة الحيوان إنسانا أو بهيمة تنتقل من شجرة إلى شجرة أو طائرا يهوى من غصن إلى غصن (٣٨) ، وحينئذ فلا شك أن كل أنواع النبات لا تخرج عن عموم قوله تعالى « من كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » (٣٩) .

واستثمرت عقلية الإنسان في توضيح أسرار علوم النبات واستكشاف غوامضه، حتى وصلوا إلى طرق جديدة في الزراعة وزيادة الغلة وتحسين المحصول ، كل ذلك نجد له معان إذا فسرنا آيات القرآن الكريم بعقلية علمية .

لقد كان الإنسان فيما مضى يقرأ هذه الآيات ، وكان يتصور أنها ترمي إلى ما يقع تحت حسه من أنواع الحيوان والنبات ، فلما تطور علما النبات والحيوان ، وجد أن هذه الآيات تتكشف عن دائرة هامة مترامية الأرجاء وتشمل أصنافا من الحيوان تراها ولا تراها .

أفلا ينظر المغرضون كيف كان دستور الإسلام هو قلعة العلم الحديث، فكيف إذا لايشجع أبناءه ، ولا يدعوهم إلى الكشف عن الكون وما فيه .

(٣٨) رضوان شافعي « التوفيق العلمي بين الحضارة الإسلام »
ص ١١٢ — ١١٣ .
(٣٩) سورة الذاريات آية ٤٩ .

الإسلام وعلم الطب

لاشك أن دين الإسلام يحث على الاهتمام بصحة الإنسان وبدنه، فهو الدين الذى بنى على النظافة والطهارة والوضوء والسواك وتطهير الثياب وعدم القاء الأوساخ فى طرق المسلمين ، وعدم البصاق ، وعدم الإفراط فى الأكل أو إدخال الطعام على الطعام ، وعدم الأكل قبل الجوع ، وعدم الامتلاء واللجوء الى الحمية « لأن المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء » (٤٠) .

وهناك احاديث الرسول صلعم كلها تتلاءم مع نظريات الطب الحديث فيذكر المؤرخون أن الرسول صلعم عندما بعث اليه المتوقس عظيم القبط نى مصر بالطبيب ، رده اليه قائلا « نحن قوم لا ناكل حتى نجوع وإذا اكلنا لانشب » (٤١) وبعد طول السنين وبالدراسات العلمية ثبت ان هذه نظرية طبية وهى أساس صحة الانسان .

ومن احاديث الرسول صلعم التى تدل على الرعى الطبى : وهو مايسميه الآن بعمليات الوقاية من الأمراض والحجر المصحى قوله عليه السلام « اذا سمعتم به — أى بالوباء والطاعون — بأرض فلا تتقدموا عليه ، وإذا وقع بأرض روائتم بها فلا تخرجوا فرارا منه » (٤٢) .

فالإسلام يأمر بالوقاية من الأمراض لئلا تنتقل العدوى الى مسائر افراد المجتمع ، وذكر أيضا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك « فر من المجذوم كما تفر من الأسد » (٤٣) .

وهناك كثيرا من احاديث الرسول صلعم التى تدل على أن المسلمين اهتموا بالطب والدواء ، فقد جاء اليه صلى الله عليه وسلم يوما بعض الاعراب وسألوه أنتداوى ، قال « تداوا فان الله لم يضع داء الا ووضع له دواء » (٤٤) .

(٤٠) صلاح الدين المنجد « المجتمع الإسلامى فى ظل العدالة » ص ٥٩ .

(٤١) رواه البخارى . .

(٤١) رواه البخارى ومسلم بسند صحيح .

(٤٣) رواه البخارى .

(٤٤) رواه احمد وإسحاق السنن بسند صحيح .

أما إذا أردنا أن نحلل القرآن الكريم ونرى بعض الآيات التي أثبت العلم الحديث صحتها ، وكيف نزلت على الرسول الأسمى في وقت لا يمكن لإنسان أن يحلل هذه الآيات ويفسرهما كما فسرتها النظريات العلمية الحديثة . فلنأخذ أولا موضوع خلق الإنسان .

قال الله تعالى في سورة المؤمنون « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة . فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما » (٤٥) .

فمن المعروف أن علم الأجنة يعتبر من العلوم الحديثة ، فإنه لم يصل إلى حقائق تكوين الجنين ، وتصوير أشكاله المختلفة في مراحله المختلفة إلا بعد أن اكتشفت المجاهر والأشعة حيث عرف التشريح المقارن معرفة تامة ، وحيث وصل العلم إلى الحقائق التي تقرها الآية الكريمة ، خلقناكم من عناصر التراب المختلفة ، ثم خلقناكم بطريق التناسل من حيوان منوي داخل سائل متدفق بواسطة تلقيح الحيوان المنوي لبويضة الأنثى . ثم تخونت علقة تنمو حتى تصبح شبيهة بقطعة دم تتعلق بجدار الرحم ثم تنمو العلقة حتى تصبح في حجم ما يمكن مضغه .

وفي الجنين توجد الطبقة المتوسطة من طبقات الجرثومية الثلاث وهي تنقسم إلى خلايا يتكون منها العظام والعضلات ، وتتصل خلايا الطبقة الصلبة وتمتد إلى أماكنها الكثيرة ، وتصبح باقى خلايا الطبقة الجرثومية عضلات تسير جنباً إلى جنب مع التعضرف . وفي الأسبوع الثاني يظهر التكلس والتعظم للغضاريف ، وتكون العضلات قد تميزت بسرعة في جميع أنحاء الجسم وأخذت الشكل النهائي لها ، وبعد أن يكسو اللحم العظام يكون الإنسان قد أنشئ خلقاً جديداً وظهرت جميع أعضاء الجسد (٤٦) .

وقد كان المسلمون في القرون الخالية يقرعون تلك الآية وأمثالها قراءة تعبدية محسوب ، ويمرون على ما فيها من علم صادق ويقولون آمناً به كل

(٤٥) سورة المؤمنون آية ١٢ — ١٤ .

(٤٦) محمود دياب « الطب والأطباء » ص ٩٤ — ٩٥ .

من عند ربنا ، حتى جاء علم التشريح ، ووضح هذه النظرية العلمية التي سبق القرآن بها العالم أجمع فقد قال تعالى « تلك من أنباء العيب نوحينا اليك ماكنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا » (٤٧)

وهنساك اعجاز قرآنى آخر فى مجال الطب فى قوله تعالى « فلينظر الانسان مم خلق ، خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب » (٤٨)

فهى هذه الآية يبين الله تعالى عملية خلق الانسان ، وكيف توضع النواة فى رحم الأم وتنوعيتها ، وكل ذلك عكف على دراسته العلماء . فوجدوا فى القرآن الكريم أساسا لما يدرسون فهو الذى يبين كيفية الحمل ومراحل الخلق وكيفية الوضع : ثم عملية الرضاعة ، وأهميتها الصحية للانسان ، ومدتها ، كل هذه آيات محكمة دقيقة الصنع . وما العلماء المحدثون الا أناس يحاولون تفسير ماغض (٤٩) .

وإذا أردنا أن نتمعن كيف كان الاسلام هو أساس الطب الحديث . فلننظر الى تعاليمه التى أمرت المسلم بالوضوء فى قوله « يا أيها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم الى الكعبين ، وان كنتم جنبا فاطهروا » (٥٠) .

فللوضوء حكمة بالغة ، فالانسان ينظف أعضائه الظاهرة ، فكلما نعفر الانسان وتغير جاء ميعاد الوضوء فأزال القذارة عن أعضائه فلذلك فهو دين يدعو الى النظافة التى هى الأساس الاول فى علم الطب ، فهى التى تحمى الانسان من مختلف الأمراض (٥١) .

وأما تعاليمه بالنسبة للصوم : فهو يغيسد الانسان لعلاج كثير من الأمراض ، ويقلل من وزن الجسم .

(٤٧) سورة هود آية ٤٩ .

(٤٨) سورة الطارق آية ٥ — ٧ .

(٤٩) عبد الرزاق نوفل . ص ٧٦ .

(٥٠) سورة المسعدة آية ٦ .

(٥١) محمود دياب ص ٨١ .

كذلك حرم الله تعالى الميتة والدم ولحم الخنزير . فالحيوان الميت لا يموت الا لمرض او شيخوخة ، فاذا مات نتيجة لمرض فانه مما لا شك فيه انه مازال يحمل فى جسمه بعد الموت مواد غير طبيعية ، وتسمميه خسارة بجسم الانسان الحى حتى بعد ان تعتم من الجراثيم .

وكذلك الدم . فانه سائل أغلبه وأهم عنصر فيه كريات الدم الحمراء وفيه من افرازات الجسد ما هو معد للاقراز بالبول والعرق .

فالدم مزيج من مواد مفيدة للجسم ، ومواد تضر اذا لم تفرز ، واذا كان الحيوان المأخوذ منه الدم ايضا مريضا كان شرب الدم اشد ضررا .

واذا بقى الدم فى الحيوان قبل اكله احدثت تفاعلات فى أنسجة الحيوان مثل العضلات ويصبح أكلها غير صالح للانسان .

والميتة بالشيخوخة ضررها كضرر الميتة بالمرض لأن الشيخوخة معناها انحلال احد الأنسجة وذلك متدمة لانحلال آخر حتى تتحل جميعا ويصبح الاكل فى هذه الحالة اكلا لأنسجة مريضة متحللة ، ولحم الخنزير كثيرا مايصاب بطفيليات ، وينقل من الامراض التى ثبتت اخيرا مثل التيفيا والبلاتيديوم، كما انه الحيوان الوحيد الذى يصاب بالتركينا وهو نوع خطير من الديدان لانه اذا اصاب به الانسان يحدث تسمما عموميا واسهالا مثل السكوليرا يؤدى الى الوفاة (٥٢) .

وقد حرم الله سبحانه وتعالى الخمر ، فالخمر تسبب الاضرار بكثير من اجهزة الجسم المختلفة ، كالجهاز الهضمى والعصبى والدموى (٥٣) .

وفى مجال الطب والصحة التى اثبت العلم الحديث صحتها واهميتها قول الله تعالى « ويسألونك عن المحيض ، قل هو اذى ، فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن » (٥٤) .

ولقد ثبت علميا ان الحيض اذى اى ضرر على الرجل والمرأة على

(٥٢) عبد العزيز اسماعيل « الاسلام والطب الحديث » ص ١٠٤ .

(٥٣) احمد علوش « الخمر والحياة » ص ٦٥ .

(٥٤) سورة البقرة آية ٢٢٢ .

حد سواء فهو يؤدي الى امراض للرجل لان دم المرأة فى هذه الفترة خليط من خلايا بطانة الرحم وافرازات الغدد وبه كثير من الجراثيم (٥٥) .

وهناك معجزة علمية طبية فى القرآن فى قوله تعالى فى سورة الأحزاب آية ١٩ « فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون اليك تدور أعينهم كالذى يخشى عليه من الموت » (٥٦) .

تشير الآية السكرية الى حقيقة علمية لم يكن سببها معلوما عند نزول القرآن وهى دوران مقلة العين عند اقتراب الموت وعند الخوف ومن اسباب ذلك ان شدة الخوف تذهب الوعى فتعطل الادراك ، فتعمل المراكز العصبية اللاواعية منطقة مهاد المخ فيصير الخائف فى حالة شبيهة بحالة الذى يغشى عليه من الموت اذ تدور مقلته وتتسع حدقته (٥٧) .

وهناك معجزة أخرى من قوله تعالى فى سورة الحديد آية ٢٥ « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » (٥٨) .

فللحديد منافع جمة للكائنات الحية اذ تدخل مركبات الحديد فى تكوين الكلوروفيل وهو المادة الأساسية فى عمليات التمثيل الضوئى التى ينشأ عنها تنفس النباتات وتكوين البروتوبلازم الحى وهى الطريقة التى يدخل الحديد بها جسم الانسان والحيوان .

ويدخل الحديد فى تركيب بروتينات النواة « المادة السكروماتينية » فى الخلية الحية ، كما انه يوجد فى سوائل الجسم مع غيره من العناصر وهى احدى مكونات الهيموجلوبين .

ويقوم بدور هام فى عملية الاحتراق الداخلى للانسجة والتمثيل الحيوى بها او الحديد يوجد كذلك فى السكبد والطحال والسكى والعضل والنخاع الأحمر ، ويحتاج الجسم الى كمية مناسبة من الحديد يجب ان

(٥٥) دياب ص ٩٠ .

(٥٦) سورة الأحزاب آية ١٩ .

(٥٧) دياب ص ٩٩ .

(٥٨) سورة الحديد ، آية ٢٥ .

يزود بها من مصادر مختلفة ، فإذا نقصت تعرض الإنسان لأمراض
أهمها فقر الدم (٥٩) .

الإسلام وعلم الكيمياء :

حاول كثير من المستشرقين أن يغمسوا الطرف عن الدور الذي قام
به المسلمون في مجال الكيمياء ، هذا المجال الذي يعتبر واحدا من أهم
الميادين العلمية التي اشتغلوا بها ، بعد أن حثهم دينهم الحنيف على العلم
والبحث واستطلاع خبايا الكون .

ومن أول من اتهم المسلمين المستشرق أوليري في كتابه « الفكر
العربي ومكانه في التاريخ » قال أن « الكيمياء العربية تعيد عرض ما قام
به السكيميائيون في مدرسة الاسكندرية » ويرى المستشرق Rnska
« أن مادة الكيمياء العربية منقولة الى العربية من القبطية ، ولكن
ربما كان بها عنصر خفي مصري أصيل » فان أوليري يرجع فيقول « أن
النسخ القبطية فيها يبدو ، انها ترجمت من أصول عربية الأمر الذي يبعد
معه أن يكون أصل الكيمياء العربية ترجمات من القبطية » (٦٠) .

والحقيقة أن العرب غطنوا الى علم الكيمياء منذ صدر الدولة
الإسلامية في العصر الأموي فقد شغف المسلمون كما نعلم منذ بداية الأمر
بالبحث عن الحقيقة ، فاتبعوا منهاج سلیمان تتبعوا به سير الظواهر ، ولم
يقبلوا شيئا على أنه الحق مالم تؤكد به الخبرة والواقع العلمي (٦١) .

ومن أوائل العلماء الذين ظهروا في ميدان الكيمياء وآثروا ابلغ الأثر
في تطور هذا العلم ، واقامة دعائمه ، خالد بن يزيد الأموي وجابر بن
حبيب وابو بكر الرازي وابن سينا وكثير غيرهم ، إلا أن جابرا هو بحق
المثل العظيم للكيمياء الإسلامية في عهدها المبكر (٦٢) ، وبجهود جابر

(٥٩) دياب ص ١٠١ .

(٦٠) أوليري « الفكر العربي ومكانه في التاريخ » ص ١٣٦ .

(٦١) مصطفى لبيب « الكيمياء عند العرب » ص ٢٤ .

(٦٢) Mocre " A History, of, Chemistry." p. 23.

والرازي وبفضل عبقريتهما بدأت تتضح مبادئ الكيمياء ويصبح لها
مناصب العلم الحقيقي ، كما بدأت الحقائق التجريبية تساند النظريات العقلية
التأملية وتدعمها ، وتحدد المواد الكيميائية . وصنفت تصنيفا محدد
الخصائص كما تقدمت وسائل البحث العلمي وطرق التقطير والتصفية
والحل والعقد والتبلر ، وفهم الفرض منها . وقد بعثت عقلية هؤلاء
الرواد من علماء المسلمين عن السحر والخرافة وكانوا أول من طبق المنهج
العلمي في دراسة الظاهرة الكيميائية (٦٣) .

وقد ثار جدل بين مؤرخي العلم حول حقيقة الأصول التي استقى
منها المسلمون معارفهم الكيميائية ، وتنوعت حججهم قوة وضعفا في
هذه السبيل ، ويكاد يجمع الغربيون والمسلمون من كتاب التراجم والطبقات
على أن خالد بن يزيد هو أول من تكلم في الكيمياء وأنه تلقى علومه من
مصادر يونانية أو على الأرجح مصادر هلينستية على يد واحد من رهبان
الاسكندرية يدعى ماريانوس الذي ترجم كتب الكيمياء الى العربية .

والواقع أن المسلمين الأوائل ان كانوا قد ورثوا شيئا من المعلومات
الكيميائية التي انتهت اليها جهود المصريين القدماء أو اليونانيين إلا أنهم
بحق قد بعدوا عن الارتجال والغوض وأسسوا كما يقول هوليامر
« نظاما عمليا عماده الحقائق التي تدعمها التجربة ، وتبعد عن الخيال ،
ومن الجانب العملي في الكيمياء الإسلامية يبدو التنظيم السليم
بأوسع مداه » (٦٤) .

وحينما بدأ المسلمون يتشككون في النظريات الكيميائية القديمة بدأت
مرحلة وصولهم الى مستوى عال من التفكير الكيميائي (٦٥) . وإذا كان
من الممكن للمرء أن يطلع على علوم الآخرين فإن ذلك ليس ضمانا له
بالتقدير على التفكير المبدع ، فالعرب وقد كانوا تلاميذ معتمدين على كتب
اليونان إلا أنهم سرعان ما أدركوا أن التجربة والرصد خير من الف
كتاب (٦٦) .

Holmyard. " Makers of Chemistry " p. 56. (٦٣)

Holmyard. " Chemistry to the Time of Dalton " p. 30 (٦٤)

(٦٥) سارتون جورج « مقدمة لتاريخ العلم » ص ٣١ .

(٦٦) لوبيون « حضارة العرب » ص ٢٥ .

ان تاريخ العلم يؤكد ان المسلمين فى بحوثهم الكيميائية اتبعوا الطريق العلمى بالرغم من معرفتهم ان التجربة لاتوصل الى اليقين الحاسم وليست وثيقة وثاعة البرهان او القياس ولكنهم وقد كان هذا شأنهم ادركوا تماما ان مطلب اليقين ليس هدف الكيميائى ، او حتى فى متناوله وان نتائج العلم تخضع لاعتبارات الاحتمال والترجيح كمسا لم يروا فى القانون العلمى صبغة مطلقة تحتم ضرورة صدقه فى كل مكان وزمان وتجعل « التنبؤ العلمى » فى المستقبل على نحو ما اظهرته تجربة الماضى والحاضر امرا محتوما . لذلك نرى ان المنهج العلمى فى الكيمياء الاسلامية قام على المشاهدة المضبوطة ، والتجريب المحكم بعكس الطريقة المدرسية التى سادت اوربا بعد ذلك طوال العصر الوسيط ولا يمكن فى واقع الامر ان نظهر قيمة العرب الحقيقية ومكانتهم العلمية الا باظهار الفرق بين المنهجين السالفى الذكر ، فان زملاء العالم الايطالى جاليليو قد رفضوا فى عناد حتى مجرد ان يكلفوا خواطرهم بالنظر فى منظاره ليروا ما يتعاقب على اجرام من تغيرات » .

فالجانب التجريبي فى الكيمياء العربية من اهم المسائل الجديرة بالاعتبار ، وعلى اساسه استطاعت اوربا ان تجد الاساس السليم ، ونقطة البدء الصحيحة فى هذه الدراسات التى خلفها العرب ، يقول هولياذر ، لقد قدم كيميائيو العرب الجوهر والاساس لهذا العلم الناشئ واستطاعت اوربا ان تبدأ بحوثها الكيميائية على اساس واقعى سليم ، وبناء نظرى مشتق وتأكيد لقيمة الكيمياء المباشرة فى حياة الفرد » (١٧) .

ان النقاش الطويل حول الطريقة التجريبية ، ومحاولة اسفادها لغرب العرب ليس الا حلقة من حلقات التضليل وليس الا تصحيفا فى فهم المصدر الحقيقى للحضارة الاوربية كما يقول « بريغولت » فالدراسات العلمية التى ظهرت فى اوربا كانت نتيجة لروح جديد فى البحث وطرق حديثة فى الاختبار والفحص ، وكانت كذلك نتيجة للتجارب والملاحظات ودقة المقاييس ، وكل هذه الدعائم لم تكن معرفة للاغريق انهما جميعا هدية المسلمين الى اوربا .

الفصل السّادس

الإسلام ومشكلات الحضارة والمدنية الحديثة

مشكلات الحضارة

تعرضت الانسانية عامة فى الشرق والغرب لهزات عنيفة بمسد الحربين العالميتين الاولى والثانية .

فقد انقلب ميزان القوى فى العالم ، وانتصرت فئة وانهزمت فئة اخرى وعلت جبهة وانخفضت جبهة ، بل ان هنالك من الدول العظمى انكسرت هذه السكسة فى الحرب — مثل المانيا ودول المحور — وكان لابد عليها من ان تعيد بناء نفسها من البداية .

اصبح امام الشعوب مشكلات ضخمة سياسية واقتصادية واجتماعية، وقد اصبح من المحتم على العالم الاسلامى ان يسهم بحظ وافى من تلك المشكلات ، وان يشترك بتيمة العالم فى القاء القدر الكافى من الاضواء لحلها والاستفادة من نتائجها .

ومن الطبيعى ان العالم الاسلامى يختلف كلية عى العالم الغربى فى دينيته وتقاليده وعاداته وتراثه العلمى ، الذى يختلف مع ما للآخر من نظائر هذه المميزات كل الاختلاف .

ويرجع هذا الاختلاف الى الفترة التى بدأت فيها اوربا عصر النهضة، واذعنت لدعوة الاحرار من مفكريها ، فانفصلت عن الكنيسة ، واندفعت فى الطريق الذى جعلها تبتعد عن المدنية والحضارة الشرقية شيئا فشيئا .

ولقد جعل مفكرو الغرب يمعنون فى توسيع الهوة بين الحضارتين، فأعلنوا جحودهم للروحانيات ، وصرخوا بانكارهم لكل ما لا يعرفون سببه الظاهرى ، ونادوا باستقلال العلوم التجريبية عن الدين ونادوا بصدارتها عليها ، وتمرروا ان كل ما لا يخضع للتجربة غير ثابت ، ولا جدير بالتصديق . فقال قائلهم « اذا وضعت الاله والروح على المشرحة ، وصوبتم اليهما

الميكروسكوب ، فانا مستعد للايمان بهما » (١) . واعلنوا كذلك ان العقل البشرى المعتمد على الحواس هو وحده الوسيلة المثلى للمعرفة ، وجأهروا بأن المعرفة نسبية وبأن مبادئ الأشياء وغاياتها مجهولة أو غير قابلة للمعرفة ومعنى هذا انه يجب علينا ان نحصر جهودنا فى دراسة الظواهر الطبيعية ، وما دامت هى وحدها فى متناول عقولنا ، فلم يعد العقل سوى قوة تتعقب تحولات المادة ، لتنتزع منها خواصها .

هذه هى مميزات الروح الغربية التى يسودها العلم التجريبي سيادة تامة . والتى ظفرت فى القرون الأخيرة بنمو وانتشار غير قابلين للتصديق ولقد تغلغلت فى جميع البيئات الدينية ، بل نفست الى أكثر القلوب المسيحية اخلاصا ، واشدها استمساكا بالايمان وحرصا على العقيدة ، دون أن يبدو لها ما فيها من تناقض مع العقل السليم ، والمنطق السليم (٢)

سلط الغرب افكاره على العالم كله ، ومنها العالم الشرقى الذى بدأت تتغلغل فى مجتمعاته وبيئاته ، وطالما كان الاجتياح مقصورا على الثئون المادية من الحياة محصورا فى الأمور العملية من الوجود ، لم يكن الخطر داهيا ، ولا الدمار محققا ، ولكنه بدأ يقرز الأرواح والنفوس والعقائد والقلوب ، فقد سلط الغرب على الفرد المسلم أو « الإنسان » فكرا وعادات وعقائد غريبة عنه ، محسولا بذلك تحطيم المفهوم الحقيقى للإنسان المسلم وللمجتمع الإسلامى ، لكى ينشأ أفرادا يكفرون بالإسلام والمجتمعات الإسلامية ويعملون على هدمها .

فالاسلام دين دعوة الى الحياة بنص القرآن الكريم ، فقد جاء فيه قوله تعالى « يا ايها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم » (٣) .

وهكذا انفرد الاسلام بطابع دعوة الى الحياة ، ولكنها حياة تقوم على أسس جديدة تكفل الأمن والسلامة لجميع بنى الإنسان ، فكما ربطنا

(١) محمد غلاب « الاسلام من خلال مبادئه التأسيسية » ص ١٩ .

(٢) محمد غلاب « المرجع السابق » .

(٣) سورة الأنفال : آية ٢٤ .

ما بين دعوة الاسلام وبين مشكلات الحياة التي يعاينها الناس . وجدنا حولا علمية تضمن لهم حياة انسانية كريمة ، وآمنة .

وكما اغفلنا هذه الصلة ما بين دعوة الاسلام ومشكلات الحياة التي يعاينها الناس ، فقد ابتعدنا عن روح الاسلام .

وانه مما يلفت نظر الدارس لتاريخ الحضارات العالمية المقارن هو ان جميع النهضة المادية في التاريخ - كما هو شأن النهضة في عصورنا الحديثة - وقد تكشفت في عز سلطاتها عن مشكلة واحدة مشتركة وهي انها هدفت عملا بمبادئها ونظمها الى جعل فئة قليلة من الناس او امة من الامم تتحكم في مصير لقمة غيرها من الجماهير والامم ، وفي مصير امنها وسلامتها ، وذلك بما اقتصت به تلك الفئة القليلة او الامم الغالبة نفسها من امتيازات خاصة وحق الوصاية على الغير بما لا يتفق مع مبادئ الوحدة الانسانية ، ولا مع القواعد الاخلاقية ، ولا مع الحقوق الطبيعية . ولكن نهضة واحدة ظهرت في القرون الوسطى ، وهي النهضة الاسلامية الانسانية شذت عن ذلك ، وكانت وحدها بكل مبادئها وقواعد نظامها قائمة على محاربة هذا التحكم بجميع اشكاله والوانه . واستنت نظاما اجتماعيا جديدا يقوم على فكرة الاخاء والتضامن .

والسائد الآن في العصور الحديثة هو انتشار الحضارات المادية التي تحاول ان تقضي على الانسان وتحوله الى آلة ، وتدمر خصائصه في تعامله بالمقاييس الآلية وبالمقاييس الحيوانية التي امكن دراستها في عالم الحيوان (٤) .

الى جانب ذلك نجد الانسان الان اصبح جاهلا بدوره الذي رسمه له الله سبحانه وتعالى في الحياة ، والمعيشة وفي كيفية استغلال طاقات الحياة وكنوزها كلها في التعمير والتنمية والارتقاء ، وفي ان يضع لنفسه نظاما شاملا لجواند بحياته كلها ، يتناسب مع طبيعته وخصائصه ، ويحتفظ بها جميعا في حالة تجدد ونمو وازدهار .

(٤) سيد قطب « الاسلام ومشكلات الحضارة » ص ٧ .

معنى ذلك أن هذا الإنسان يحتاج قبل كل شيء إلى تقييم بينيه ، وإلى تمسك تام بالشريعة السماوية حتى لا يخرج بحضاراته عن الهدف المقصود منها وحتى لا يجعل من تلك الحضارة أداة تدمير تدمره ، مهنويا وجسديا .

معنى ذلك أيضا أن المؤمنين يستطيعون — إذا تحررت عقولهم من أى أفكار هدامة تخرج تحت اسم الحضارة والمدنية — أن ينشئوا أروع الحضارات ، وأن يستلهموا سر الحكمة من الله خالقهم ، وخالق الأكوان ، وأن ينهضوا برسالتهم الكبرى فى الحياة .

على الإنسان أن يقدر نفسه كإنسان خلقه الله سبحانه وتعالى ونفخ فيه من روحه وأنه قد تحول بهذه النفخة القدسية من روح الله إلى كائن عظيم ، له قداسته ومنزلته تسجد له الملائكة بأمر الله ، وسخر له السكون كله (٥) قال تعالى « إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين : فإذا سويته ونفخت فيه من روحي سجدوا له ساجدين » (٦) .

فبالإسلام قد رفع الإنسان إلى أعلى منزلة وكرمه أعلى تكريم ، وجعله من روح الله ، فهل هناك منزلة أعلى من ذلك .

إلى جانب أن الإسلام يؤكد إنسانية الإنسان ، ويرتفع بها فوق حيوانيته ، ويؤكد بالتالى القيمة العليا للإنسان فى الوجود كله ، ويؤكد أن معنى حياة الإنسان من دين وعلم . وما للإنسان من حواس وأدراك ، وما لجماعته من تاريخ هو مجموعة مناسقة من طرق المعرفة تفتى إلى غاية واحدة هى سعادة الإنسان .

وعندما لاح نور الإسلام ، وانشر فى أرجاء العالم أجمع ، حمل معه حضارة ذات خصائص معينة ، كل جانب من جوانبها يعمل على سعادة الإنسان ورخائه ، وعلى تطور عقله وعلمه ، وعلى احترام آدميته ، وعلى إرضاء الله جل وعلى خالقه ، فكانت هى الحضارة الغالبة والسائدة .

(٥) توفيق سبع « قيم حضارية فى القرآن الكريم » ص ٩٥ .

(٦) سورة ص آية ٧١ ، ٧٢ .

ولم تقتصر هذه الحضارة الإسلامية على خدمة الفرد المسلم فقط ،
ولسكنها ذاعت وانتشرت وشملت العالمين الشرقي والغربي ، فعندما بدأ
الأوروبيون نهضتهم اعتمدوا اعتمادا كبيرا على الحضارة الإسلامية في
نستى غروعتها .

ولعل أهم جانب من جوانب الفكر هو المنهج التجريبي الذي يؤكد
العلماء الغربيون أنه ليس من صنع الغربيين ، ولكنه مأخوذ حصا
عن العلماء المسلمين (٧) .

يقول بريغولت في كتابه « بنساء الانسانية » ان روجر بيكون درس
اللغة العربية والعلم العربي والعلوم العربية في مدرسة اكسفورد ، على
خلفاء معلميه العرب في الأندلس وليس لروجر بيكون ، ولا لسميه الذي
جاء بعده الحق في ان ينسب اليهما الفضل في ابتكار المنهج التجريبي ،
فلم يكن روجر بيكون الا رسولا من رسل العلم والمنهج الاسلاميين الى
أوربا المسيحية ، وهو لم يمل قط من التصريح بأن تعلم معاصريه اللغة
العربية وعلوم العرب ، هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة والمنساقشات
الى دارت حول واضعى المنهج التجريبي ، هي طرف من التحريف الهائل
لاصول الحضارة الأوروبية ، وقد كان منهج العرب التجريبي في عصر
بيكون قد انتشر انتشارا واسعا ، وانكب الناس في لهف على تحصيله
في ربوع أوربا « (٧) .

وبعد ان انتقل المنهج الاسلامي الواقعي التجريبي الى العقلية
الأوبية ، اتجه الفكر الغربي الى البحوث العلمية التجريبية ، وبدأ البحث
العلمي يكشف عن حقائق فلكية وجغرافية وطبيعية ، غير تلك المجموعة
من الأوهام والأساطير والخرافات التي تتبناها الكنيسة ، وتعتبرها حقائق
مقدسة ، وهي ليست من النصرانية في شيء ، وانما هي مجرد أفكار —
غير علمية كانت شائعة في تلك الأزمان ولم يتنزل بها كتاب من عند الله
تتبنها الكنيسة ، وداغت عنها بوصفها جزءا من العقيدة .

ولقد وقفت الكنيسة ، وقفة عنيدة في وجه هذا الاتجاه الجديد
المنبثق من منبع الثقافة الإسلامية في الأندلس وفي الشرق كذلك ، وقابلت

(٧) نسيب قطب « الاسلام ومشكلات الحضارة » ص ٣٥ .

حسائح بحوث الطليعة من العلماء الأوربيين الذين استنقوا من ذلك النبع بجفوة وعداء شديدين ، واستخدمت سلطانتها ضدهم بوحشية كان من جرائرها ذلك الشرود من الكنيسة وضمنا من الهها الذي تستطيل باسمه زورا وبهتانا ، ومن كل ظل للدين وللتوجيه الدينى (٨) .

لذلك ضاق المجتمع الأوربى ذرعا بالكنيسة ، وتطلع الى معرفة انقى وعلم انفع ، فلم يكن بد أمام الأوربيين الا أن يعتمدوا على العقل وحده بعيدا عن أى دين ، لأن الدين فى نظرهم عدو للعلم والحرية والابتكار .

انطلق الفكر الأوربى مزهوا تياها بما احرز من انتصار على الكنيسة فظن انه يستطيع أن يبنى حضارته بعيدا عن دين صحيح ، يسبغ عليها السكامة ، ويحفظها من الانزلاق ويعصمها من الهبوط ، لأن الاتحاد هو الأب الطبيعى لكل المساوىء والآفات الحضارية ، ورغم ذلك فقد انطلقت الحضارة الغربية من نقطة الاتحاد لا تلوى على شىء ، ووصلت بهذا إلى قمة التفوق المادى (٩) .

وعلى الرغم من أن العالم الغربى تسد نجع فى ايجاد عالم صناعى مريح فيه كل مايفتقر اليه الانسان المتحضر من الكماليات ، الا ان القوم هناك فى غاية التوتر والقلق ، تغمرهم المشكلات الحساسة ، وتواجههم المتاعب القاسية ، وكأنها الانسان فى ظل الحضارة قد اعتراه الملل وسئم الأجواء الصناعية المادية ، وتطلع الى لون آخر من الحضارة تغذى عواطفهم وتملا قلوبهم بالأمن والسكينة .

ولو تتبعنا الانعكاسات السيئة التى ترسلها هذه الحضارة لأعياننا الاستقصاء وتكفى وسائل التدمير والتخريب ، وكيف تستعمل فى ترويع الأمن والاعتداء على كرامة الشعوب ، يكفى ما أورثته هذه الحضارة أصحابها من غرور وصلف ففقدت معه التوازن ، وتحيزت للظلم وضربت حركات الايمان فى كل مكان .

ان الحضارات المسادية فى الشرق والغرب ، قامت على أساس

(٨) سيد قطب ، المرجع السابق ص ٣٦ — ٣٧ .

(٩) توفيق سبع « قيم حضارية فى القرآن » ص ١١٣ .

مناهج بشرية تدعى أنها تستطيع أن تلبى حاجات الإنسان أو تصنع حياته، وكانت نتيجتها شقاء وضلال ، لأنها حضارات قامت على جهل مطبق بطبيعتنا وبحجمتنا وعواطفنا وخصائصنا .

وقد بدأ العالم الغربى يشعر بأزمة ضمير لأنه لم ينطلق بالحضارة المادية الى افئتها الروحي النبيل ، فيتخذ منها وسائل لرضا الله . ودعائم لتقوية الايمان ، وانما اعتبرها فى ذاتها غاية ، فانفصل عن الله بل الانفصال ، ولم يتجسج فى تهيئة هذه الحضارة لخدمة الانسان ، فاستبعدت هذه الحضارة المادية ضمير الانسان والفعت ارادته . وبددت مطامحه واشواقه ، وجعلته عبدا خاضعا لها لا سيدا مسيطرا عليها .

ومثل هذه الحضارة لا يمكن أن تنجح فى بناء مدنيت غاضلة . لكنها تنجح فى بناء امبراطوريات ضخمة ، تغرى بمظهرها فى حين ان الباطن خواء لانها دعت الى تخلف الخلق عن العلم فى مضمار السباق ، وبذلك باعت مثلها وقيمها فى عالم الأرقام والكميات والحساب . وصارت حضارة بلا ضمير ، وتابى الحضارة المثالية الا ان تكون مزاجا بين الروح والسكم بين الغائبة والسببية ، حتى اذا حدث اختلال فى هذا التوازن هوت المدنية الى الحضيض ، لانها تحيف على فطرة الانسان ونصادم طبيعته التى جعلها الله مزيجا من المادة والروح .

لذلك فلا بد على الانسان المؤمن ان يفجر بالعلم كل ينابيع الحضارة ويضبط بالايمان مسارها فلا تنحرف أو تضل . وبهذا يتعانق الايمان مع العلم فى تشييد صروح الحضارات ، ومن غير الايمان بالله : واتبع منهجه وهواه يقل الانسان وتخطى الحضارة طريقها وتتصارع عناصرها تصارعا يؤدى الى تدمير الحياة والأحياء « ومن اضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله » (١٠) .

وهذه النتائج السيئة للحضارات المادية ليست نظريات للدراسة ، وانما هى تجارب للذكرى والاتعظ والتدبير .

قال الله قد اهلك امما وامننى حضارات ودمرها على رؤس اصحابها
لانها قد ضلت طريقها ، واخطأت سبيلها حين رفضت ان تخضع لأمر
الله وتحقق منهجه وهداه « فصب عليهم ربك سوط عذاب — ان
ربك لبالمرصاد » (١١) .

وعندما طغت الحضارة المادية على اوروبا بهذه الطريقة السريعة ،
فقدت اوروبا معها دينها ، وضعف سلطان الدين نهائيا . ، ولذلك بداوا
ينظرون الى الامم الأخرى ليتوسعوا فيها ، وليصرفوا منتجاتهم بعد هذه
الانطلاقة الحضارية المادية ، ولينشروا فكرهم وآراءهم بين الشعوب
المختلفة .

ولعل أهم الشعوب التي ركز الغربيون النظر عليها هي الشعوب
الاسلامية لما بينهم من عداوة ديني ، ولما تتمتع به البلاد الاسلامية من
خيرات وموارد ، وموقع جذب انتباه الغربيين .

لذلك بدأت حركة استعمار الشعوب الاسلامية منذ القرن السابع
عشر الميلادي الى النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، فتمكن
الاستعمار الغربى المسيحى من السيطرة سيطرة تامة على المسلمين فى
وسط آسيا وشرقها ، واتخذ له نقطة ارتكاز رئيسية فى افريقية ، كما
تمكن من مد نفوذه الى قلب العالم الاسلامى ومركزه الرئيسى فى منطقة
الشرق الأدنى ، وبذلك طوق العالم الاسلامى من الشرق والغرب ،
وسلط الاغبيه ودسائسه على بقية التجمعات الاسلامية الأخرى بين هذين
الطرفين ، فوهنت هذه التجمعات ، وانحل عقدها بسقوط بعضها اثر
بعض تحت نفوذ المستعمر الغربى ، وما جاءت الحرب العالمية الاولى
وانقضى اجلها حتى أصبح العالم الاسلامى كله تحت نفوذ هذا المستعمر .

وبهنا من هذا الموضوع خطورة تدفق سيل الأجانب على البلاد
الاسلامية وقيامهم بنشر الحضارة المادية بين صفوف المسلمين على
اساس من أضعاف العقيدة الاسلامية وتوهينها ، وتخريج جيل غير مؤمن
بالدين وبالرسالات السماوية .

(١١) توفيق سبع « قيم حضارية فى القرآن الكريم » ص ١٥١ .

وبما يؤكد صحة هذه النظرية المقال الذى كتبه المستشرق الفرنسى « هانوتو » يصف فيه المسلمين وعقيدتهم ؛ ويضع المقترحات الضرورية فى نظره لتوجيهه سياسة فرنسا فى مستعمراتها الاسلامية تحت هذا العنوان (١٢) .

« اخترق المسلمون انحاء آسيا شمال القارة الافريقية بسرعة لاتجارى حاملين فى حقائبهم بعض بقايا تمدن البيزنطيين ؛ ثم تراموا بها الى اوروبا . ولسكنهم وجدوا فى نهاية انبعاثهم هذا مدنية يرجع اصلها الى اسيا بل اقرب فى الوصلة الى المدنية البيزنطية مما حملوه معهم الا وهى المدنية الآرية المسيحية ؛ ولذلك اضطروا الى الوقوف عند الحد الذى اليه وصلوا . واكرهوا على الرجوع الى افريقيا حيث ثبتت اقدامهم احتسابا منعاقة . ولكن لا يزال الهلال ينتهى طرفاه من جهة بمدينة القسطنطينية . ومن أخرى ببلدة غاس فى المغرب الاقصى معانقا بذلك الغرب كله .

« فى تلك البقعة الافريقية التى أصبحت مقر ملك الاسلام جاءت الدولة الفرنسية لماغته — جاء القديس لويس الذى ينشئ الى اسبانيا بوالدته — ليضرم نيران القتال فى مصر وتونس ، وتلاه لويس الرابع عشر فى تهديده الامارات الافريقية الاسلامية . وعاد هذا الخاطر نابليون الاول . فلم يوفق الى تحقيقه الفرنسيون الا فى القرن التاسع عشر ، حيث أخذوا على دولة الاسلام التى كانت لاتنى فى متابعة الغارات على القارة الاوربية . فأصبحت الجزائر فى ايديهم منذ سبعين عاما وكذلك قطر التونسي منذ عشرين عاما .

« انن فقد صارت فرنسا بكل مكان فى صلة مع الاسلام ؛ بل صارت فى صدر الاسلام وكبدته ، حيث فتحت اراضيه ، وأخضعت لسلطوتها شعوبه وقامت تجاهه مقام رؤسائه الاولين ، وهى تدير اليوم شئونهم وتجبى ضرائبه وتحشد شبابه لخدمة الجندية وتتخذ منهم عساكر يذبون عنها فى مواقف الطعان ومواطن القتال » .

(١٢) محمد البهى « الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى » ص ٢٨ — ٣١ .

نرى من هذا الموضوع أن هاتوتو يرى أنه يجب على المسلمين أن ينتقلوا إلى الحضارة الأوربية الآرية المسيحية ، ويجب على شعوب أوربا المسيحية الآرية أن تتعاون فيما بينها على دفع الخطر الإسلامى الكامن ضمن الوحدة الإسلامية الفكرية والروحية

معنى ذلك أن الغربيين يعملون على إضعاف المسلمين فى إسلامهم أولا وحضارتهم ثانيا . وفملا استطاع الأوربيون أن يدخلوا إلى البلاد الإسلامية كثير من المذاهب المسادية والفكر المادى الذى سبب لنا مشكلات حضارية كبيرة ، وأغوى شبابنا ، مما يدعونا إلى البحث فى هذه المذاهب والأفكار لتحديد نوعية المشكلات الحضارية . أفكار فلسفية عقائدية مثل فلسفة هيغل والوجودية وأفكار اقتصادية وسياسية مثل التيار الشيوعى الماركسى ، والفكر الرأسمالى ، ومذهب الليبرالية الديمقراطية . وكل هذه الأفكار - كما سنبين فيما بعد - أدت إلى مشكلات حضارية فى المجتمعات الإسلامية ، وخلفت فى هذه المجتمعات أفرادا آمنوا بها - بحكم ضعف إيمانهم - وأفرادا قاوموها ودفعوها ، كما أنها أدت إلى نشأة حركات دينية لهدم مبادئ الإسلام - تحت اسم التقدمية - مثل حركة الأحمدية والقاديانية فى الهند ، والبهائية فى البلاد الإسلامية الأخرى إلى غير ذلك مما سنعرض له .

نظرية دارون

وسنبدا موضوعنا هذا ببحث عن نظرية دارون ، وكيف كانت سببا فى خلق مشكلات فكرية وحضارية عند الشعوب الإسلامية .

والحقيقة أن نظرية دارون تعتبر من أخطر النظريات التى ظهرت فى القرن التاسع عشر ، وأوجدت مشكلات حضارية ، وعملت على بليلة الفكر الدينى ، إلى جانب أنها كانت بداية لموجة الألحاد التى سادت فى العصور الحديثة .

ولابد لنا أن نعطى فكرة عن دارون هذا ، فهو عالم بريطانى شهير ، له نظريات علمية من أهمها نظرية التطور والارتقاء ، وخلصتها « أن الحياة الأولى للإنسان والحيوان والتبسات بدأت على ظهر هذه الأرض بجرثومة أو جراثيم قليلة تطورت من حال إلى حال تحت تأثير عوامل طبيعية حتى وصلت إلى هذه التنوعات التى نراها وعلى رأسها الإنسان .

وعلى هذا فإن الإنسان عندهم بسدات حيساته على ظهر الأرض بجرثومة صغيرة تحولت الى حيوان صغير ، ثم تدرج هذا الحيوان وارتقى الى حياة حيوانية بدائية ، فالى حيوانات اكبر ، فأكبر ريشيه ومجنحة ، ثم تحولت الى ذوات فقرات ، ثم ارتقت الى حيوان أشبه بالإنسان ، ثم كانت نهاية هذا التطور انسانا اول لايعقل ولا يدرك ولا يتكلم . ثم انسانا كاملا ، وهو المشهود اليوم بمقتله وتفكيره وإدراكه . ويقولون ان هذه التحولات والتطورات والفرقيات جاءت بعد صراع مرير بين هذه الكائنات وعوامل الطبيعة وتقلباتها ، وبين نفس هذه الكائنات الحية بعضها مع بعض عبر آلاف القرون من أجل البقاء (١٢) .

وجه الالتحاد فى هذه النظرية :

لابد من مناقشة الجانب الالحادى الذى حمل لواءه باسم هذه النظرية ارنست هكل وأوبارين وقبلهما لامارك وغيرهم من مادييين وماركسييين استغلوا اهتمام الناس الشديد « علميا » بهذه النظرية واقتبالهم على الاعتناء بها ودراستها فصاروا يتخذون منها شركا يصطادون بوساطته صغار العقول من البسطاء الذين قل حظهم من الثقافة الدينية فيرمونهم فى هاوية الالتحاد ، وذلك عن طريق تفسيرهم لهذه النظرية تفسيراً يتخلون بوساطته « وباسم العلم » فى روع هؤلاء البسطاء المجردين من الحصانة الروحية والدينية أن واقع الوجود وطبيعة الكائنات الحية وتطورها، وتحول بعضها عن بعض ، واشتقاق بعضها من البعض الآخر ، كما هى « قواعد نظرية التطور والارتقاء » من انتخايب طبقى واصطناع نوعى يجعل من غير الضرورى الاعتقاد بوجود خالق يتولى إدارة هذا السكون وتنظيمه لأن المسادة — كما يزعمون — بطبيعتها وخصائصها اللازمة لها تقسم مقسام الخالق فى ذلك .

فالجناح الالحادى من انصار هذه النظرية يزعم أن الحياة الاولى جاءت نتيجة تفاعل طبيعى بين أجزاء من المادة ، هذه المادة التى يزعمون أنها كانت ولم تزل قادرة بطبيعتها على اعطاء الحياة ، ولهذا فهم يفكرون أن تكون الحياة من صنع قوة فوق الطبيعة .

(١٢) محمد احمد باشميل « الاسلام ونظرية داروين » ص ٢١-٢٢

فهذا الجناح الالحادى — عندما يتحدث عن مراحل التطور والارتقاء، يخرج من حسابه قوة ما فوق الطبيعة « وهى القوة الالهية » لأن حالة المادة — بزعمهم لا تحتاج الى هذه القوة ، فالطبيعة ملازمة للمادة بحركتها الدائمة، هى التى تخلق وتبدع وتنوع وتطور وتصفى وتبيد .

بل انهم حاولوا أن يفسروا الطبيعة ويقولون ان ظهور الأحياء الى الوجود قديم بفضل الطبيعة مباشرة . وأن تنوع الأحياء ، إنما حدث بقوة الطبيعة اللازمة للمادة وعلى طريقة النشوء والتحول والارتقاء (١٤) .

ومنطقة الخطر فى نظرية التطور والارتقاء ليست هى كرنها لم تبلغ من الناحية العملية درجة الصحة واليقين ، وإنما فيها يتولد عن الإيمان بها — فى محيط تحسار النظر وضعفى الإيمان — من نزعات الحسادية وميول تحولية وجودية تربط الإنسان بما على وجهه الأرض من غرائز حيوانية ، وميول بهيمية ، وتقطع صلته بما سواها على اعتبار أن الإنسان — كما هى نظرية دارون — فى الأصل حيوان .

ويذكر الأستاذ محمد قطب « ان العيب الرئيسى لنظرية دارون ليس فى الوثائق العملية التى بسطها فى كتبه ، وتابعه فيها أعوانه ومريدوه ، بقدر ما هو فى إحياءات تلك النظرية التى خلفت طابعها الخطر ، لا فى افسكار الجماهير وحدها ، بل فى اتجاه العلماء كذلك منذ عهده الى العصر الأخير » (١٥) .

ومن أهم الاعتراضات التى وجهت لمذهب دارون ما كتبه الأستاذ محمد فريد وجدى فى « دائرة المعارف » (١٦)

١ — عدم مشاهدة أى ارتقاء من أى نوع كان فى الأحياء الأرضية من عهد الوف السنين .

٢ — عدم وجود الصورة المتوسطة بين الأنواع اللازمة لمذهب

(١٤) باشميل « الاسلام ونظرية داروين » ص ٢٦—٢٧ .

(١٥) محمد قطب « الاسلام بين المادية والاسلام » ص ١٩ .

(١٦) محمد فريد وجدى « دائرة المعارف » ص ٣١ .

التسلسل كأن يوجد مثلا حيوان ارقى من القرد رتبة واحدة وادنى من الانسان رتبة واحدة ايضا .

٣ — طول الزمان اللازم لحصول الترقى بين الاحياء : فان عمر الأرض كما قالوا لا يكفى لاحداث كل مايرى من هذه الاشكال المختلفة غاية الاختلاف .

وهناك راي آخر يدحض هذه النظرية يقول الأستاذ نديم الجسر :
ان الحيوانات البحرية الدنيا هي باقية حتى اليوم ، على الحالة التي كانت عليها في ابتداء العالم ولم نجد انها تأثرت بناموس الارتقاء ، وان طوائف الاحياء الكبرى ، الدنيا منها والعليا ، وجدت منها آثار في اسفل طبقات الأرض ، غلو كان ناموس الارتقاء أكيدا لوجب ان يكون الأعلى منها كنفوات الفقرات في أعلى الطبقات واننا نجد كثيرا من الاجناس والطوائف قد كانت في العصور القديمة الاولى اكمل منها اليوم ، ونجد في الطبقات الأرضية بعض حيوانات دنيئة فوق حيوانات عالية جدا (١٧)

والمهم في نظرية دارون هذه انها اتخذت أساسا للمذاهب المسادية المختلفة والفلسفات التي سادت الغرب بعد ذلك ، فقد استندت عليها الشيوعية واستند عليها فرويد في نظريته الى غير ذلك من المذاهب الهدامة .

وقد حاول دارون في كتابه « أصل الأنواع » ان يبين ان انواع الاحياء كلها ترجع الى أصل واحد او عدة أصول أوجدها الخالق ، وان الحياة سر يعجز كل البشر عن معرفته . معنى ذلك ان دارون قد اعترف بدون ان يدري — بأن لهذا الكون خالقا بل لقد صرح دارون نفسه بأن بحوثه الخاصة بنظرية التطور والارتقاء لا تستهدف الدعوة الى انكار الخالق، وليس فيها أى خطر على الدين (١٨) .

والمهم في هذا الموضوع — كما يرى الأستاذ العقاد — ان صاحبي مذهب التطور والارتقاء « داروين وولاس تلميذه من بعده » لم يستندا الى

(١٧) نديم الجسر « قصصة الإيمان » ص ١٦٥ .

(١٨) عيساى العتصاد « عتسائد المفكرين » ص ٥٦ .

هذا المذهب في انكار العقيدة الدينية ، ولم يزعم انهما يفسران سر الحياة أو سر الكون — واحداهما وهو ولاس — كان مؤمنا بالله وبحكمته في مخلوقاته والآخر وهو دارون كان يأبى أن يوصف بالالحاد ويؤكد في آخر أيامه أن الاستدلال بمذهب التطور على انكار الاله الخالق خطأ كبير .
وادعاء لاسند له من العلم ولا من التفكير الأمين .

هذا من ناحية موقف نظرية دارون الشخصي حيال مايفترية الملحدون من شيوعيين وغيرهم من ادعاء مفاده أن بحوث هؤلاء الأقطاب « حول التطور والارتقاء — تقوم على انكار الخالق سبحانه وتعالى .

أما من ناحية جوهر نظرية التطور والارتقاء ، فإنه بالرجوع الى قواعد هذه النظرية يتضح لكل ذي عقل منزه عن الهوى أنه ليس للملحدين في أي من هذه القواعد سند علمي أو برهان يعتمدون عليه لذا يبد نزعهم الإلحادية الداعية الى انكار وجود الله » .

بل ان بعضا من هذه القواعد اذا ما آمن الانسان فيه النظر يجد أنه لا يؤدي الى انكار الله تعالى وإنما يمد الانسان بروافد من الايمان بعناية الله ورحمته وحكمته (١٩) .

موقف الاسلام من نظرية دارون :

يجب علينا كمسلمين مؤمنين بالله وبكتابه وسنة نبيه أن نقف موقف الحذر وأن نحكم بالكفر والخروج عن الدين على من قال واعتقد في :

١ — ان الحياة الأولى التي أشار اليها دارون في نظريته قد وجدت مصادفة وانما حدثت بغير قدرة الله وارادته ، وانما تولدت من المسادة نولدا ذاتيا — وان كل أدوار التطور والتحول والارتقاء قد حدثت تلقائيا أي بغير قدرة الله وعلمه وارادته كما زعم الآخرون بهذه النظرية من الملحدين أمثال لامارك وأرنست هيكل وأوبارين .

٢ — ان يسلم القبائل بهذه النظرية ان الانسان الاول الذى كان يعقل ولا يدرك ولا يتكلم هو ابونا آدم عليه السلام؛ وهذا لم يرد فى كتاب دارون ولكن قال به من اقتنع بصحة هذه النظرية من علماء الغرب .

ان فى القول الاول انكارا لوجود الله سبحانه وتعالى ؛ وفى القول الثانى تكذيبا صريحا للقرآن الكريم ؛ لأنّ، ينفى قصة آدم وحواء — الوارد ذكرها فى القرآن الكريم — نفيا تاما يضاف الى هذا ان قصة وجود انسان اول لا يعقل ولا يدرك ولا يتكلم « كما هى قواعد نظرية دارون » هى قصة مبنية على الفرض والتخمين والظن ومن السفه ان ينفى الانسان خاصة المسلم — قصة آدم وحواء المذكورة فى القرآن الذى لا يأنىه الباطل من بيد يديه ولا من خلفه ليصدق قصة ليس لها أى ظل من الحقيقة، قصة أساسها الفرض والحدس والتخمين لا القطع واليقين (٢٠) .

بطلان نظرية دارون :

تميز الانسان — كما عرضنا من قبل — بخصوص لا توجد فى عالم الاحياء ، وهو الذى جعل « جوليان هكسلى » فى « الدارونية الحديثة » بتراجع عن الكثير من الدارونية القديمة التى قررها دارون .

يقول هكسلى فى كتابه « الانسان فى العالم الحديث » بعنوان تفرد الانسان .

« لقد تأرجح رأى الانسان كالخطر « البندول » فيها ينقلب بمركزه بالنسبة لبقية الحيوانات ، بين اعجابه الشديد او التليل بنفسه ، تفصل بينه وبين الحيوانات هوة سحيقة جدا وحينما آخر هوة صغيرة جدا » .

وبظهور نظرية دارون بدا الخطار « البندول » يتسارح عكسيا ؛ واعتبر الانسان حيوانا مرة أخرى ، ووصل الخطار شيئا فشيئا الى أقصى مدى تأرجحه ، وظهر مابدا انه النتائج المنطقية لفروض دارون ، فالانسان حيوان كغيره من الحيوانات ، ولذلك فان آراءه فى معنى الحياة الانسانية والمثل العليا لاتستحق تقديرا أكثر من آراء الدودة الشريطية أو بكتريا

(٢٠) باشميل « الاسلام ونظرية دارون » ص ١٥٤ .

(م ١٣ — الاستشراق)

الباشلى ، والبقعاء هو المقياس الوحيد للنجاح التطورى ، ولذلك فكل الكائنات الحية متساوية القيمة ، وليست فكرة التقدم الا فكرة انسانية ، ومن المسلم به ان الانسان فى الوقت الحاضر سيد المخلوقات ، يمكن سد حل محله القطة او الفسار .

« ولم تصغر الهوة هنا بين الانسان والحيوان نتيجة المبالغة فى اعطاء الحيوان صفات الانسانية ، وانما نتيجة التقليل من الصفات الانسانية فى الانسان ، ومع ذلك فقد ظهر منذ عهد قريب اتجاه جديد سببه فى الغالب زيادة المعرفة ، واتساع نطاق التحليل العلمى .

« ان الخطار يتأرجح مرة ثانية ، وتتسع الهوة بين الانسان والحيوان مرة اخرى وبعد نظرية دارون لم يعد الانسان يستطيع تجنب اعتبار نفسه حيوانا ، ولكنه بدا يرى نفسه حيوانا غريبا جدا ، وفى حالات كثيرة لامثيل له . وتحليل تفرد الانسان من الناحية البيولوجية لم يبلغ تمامه بعد . وما هذا المقال الا محاولة لعرض مركزه الحالى .

« واول خصائص الانسان الفذه واعظمها وضوحا قدرته على التفكير التصورى . ولقد كان لهذه الخاصية الأساسية فى الانسان نتائج كثيرة ، وكان اهمها نمو التقاليد المتزايدة ، ومن اهم نتائج تزايد التقاليد او اذا شئت من اهم مظاهره الحقيقية مايقوم به الانسان من تحسين فيما لديه من عدد وآلات ، وان العدد والتقاليد لهما الخواص التى هياأت للانسان مركز السيادة بين سائر الكائنات الحية وهذه السيادة البيولوجية — فى الوقت الحاضر — خاصية اخرى من خواص الانسان الفذه ، وهكذا يضع علم الحياة « الانسان » فى مركز مماثل لما انعم به عليه كمسيد المخلوقات كما تقول الاديان » .

« والانسان لا مثيل له ايضا كنوع مسيطر ، اذا تقسمت كل الانواع الاخرى المسيطرة الى المئات وآلاف كثيرة من الانواع المنفصلة ، وتجمعت فى اجناس ونصصائل عديدة ومجموعات اكبر ، اما الانسان فقد حافظ على سيادته من غير انقسام ، ولقد تم تنوع سلالات الانسان فى حدود نوع واحد .

« وأخيرا فإن الإنسان لا مثيل له بين الحيوانات الراقية في طريقة تطوره .

وللإنسان خاصية أخرى بيولوجية ، وهي تفرد تاريخ تطوره ، وما خاصية الإنسان الجوهرية ككائن حي مسيطر فهي « التفكير المعنوي » (٢١) معنى ذلك أن نظرية التطور والارتقاء التي قال بها دارون وأخذ بها الكثيرون نظرية غير ثابتة ثبوتا قاطعا لا من الناحية العلمية ولا من الناحية الحسية .

وإذا كان دارون قد اعترف صراحة بأن الطريقة التي وجدت بها الحياة الأولى على وجه الأرض لاتزال مجهولة حتى يومنا هذا . فإن جهله بالطريقة التي تسلسلت بها السكائنات الحية ، وتنوعت « كما يزعم » لا عن جهله بالطريقة التي وجدت بها الحياة الأولى على وجه الأرض ، وكيف ومتى وجدت .

فالمتمع لما كتبه ونشره دارون من نظرية التطور والارتقاء . يجد أن دارون لم يبين هذه النظرية على أسس علمية قاطعة ثابتة ، لا يمكن الرجوع عنها ، وإنما بناها على افتراضات وتقديرات وتخمينات تحتل الخطأ والصواب .

فجميع الذين قالوا بنظرية التطور والارتقاء وعلى رأسهم دارون يعترفون بأن هذه النظرية هي فرض علمي يعوزه الدليل الحسي ، بل أن جوهر بحوث علماء التطور والارتقاء جميعها تشير كلها إلى أن أصول هذه النظرية وفروعها هي من باب الافتراض لا القطع والتقدير لا التأكيد . وإذا رجعنا إلى مكان مذهب التطور من العلم لانجد من يحسبه علما قاطعا مفروغا منه من أصوله وفروعه وأكبر أنصاره لا يدعى له أكثر من أنه صحيح في بعض ملاحظاته ومقارناته (٢٢) .

(٢١) سيد قطب « الإسلام ومشكلات الحضارة » ص ٣٩-٤١ .

(٢٢) عباس العشاد « عقائد المفكرين » ص ١٢٠ .

ولعل من أخطر آثار فكر دارون ونظريته هو انهمالك العالم الغربي بعد ذلك في البحث العلمى من هذا المنطلق المادى ، محاولين الاستناد على ما جاء بهذه النظرية ، بل محاولين تفسيرها على النحو والاتجاه الذى يرضيهم فى ضوء المسادية الحديثة .

وإذا أغمضنا الطرف عما فى هذه النظرية من مكامن الضعف ، ومواطن النقص من الوجهة العلمية والفعلية ، ونظرنا الى الفتن التى قد اثارها هذا التخيل البساطل لاهلاك الانسانية والفتك بها بعد أن دخلت الفلسفة والاخلاق والعلوم العمرانية والاجتماعية . فلعل أحدا لا ينكر ان نظرية دارون هذه قمة النظريات التى ناصبت الانسان العداء ، وعملت للقضاء على انسانيته ، فقد حاولت أن تجعل الانسان يعتقد أنه ليس الا حيوانا كسائر الحيوانات ، ومن نتائجها أن بنى آدم لايتعاملون فيما بينهم الا كما يتعامل الوحوش فى الغابة ، ومن تأثيرها أن الانسان بدلا من يستمد القوانين والمبادئ لحياته من المصادر السامية انما يبحث عنها فى حياة البهائم والوحوش . وهى التى عرضت على الانسان نظام الحياة كميدان للصراع والقتال ، وان من يبدى قوته وجدارته فى هذا الصراع يستحق الحياة . ومن نتائجها أن الأمم والشعوب جعلوا الدنيا ميدانا للتنافس والصراع ليس مقتضى الفطرة ولكن لأن القوى من حقه أن يبيد الضعيف (٢٢) .

نظرية فرويد وأثرها على الحضارة الإنسانية

أثرت نظرية فرويد فى الجنس تأثيرا خطيرا على الحياة الاجتماعية فى أوروبا والشرق فقد أدت نظريته فى العقل البساطل ، وفى التفسير الجنسى لمختلف نواحي سلوك الانسان الى انقلابات خطيرة .

وترجع خطورة نظرية فرويد الى اصرار زج الجنس فى كل مجالات النشاط الحيوى للانسان ، وقيل فى هذا الصدد أنه تأثر بدراسة الشواذ الذين كان يفحصهم ، ثم أخطأ فى تعميم احكامه المستقاة من حالات شاذة على بقية البشر الاسسوياء .

(٢٢) أبو الأعلى المودودى « الاسلام فى مواجهة التحديات » ص ٢٥.

ولكن النقد الأول الذى ينبغى أن يوجهه الى فرويد فى أساس نظريته الى الانسان على أنه كائن ارضى بحت ، لا يرتفع بمشاعره . وعواطفه من عالم الارض الا فى حالات الشذوذ (٢٤) .

ولعل نظريته هذه اتخذها من نظرية دارون السابقة الذكر التى تنظر الى الانسان على أنه مخلوق ارضى عائه كله محصور فى هذا النطاق الضيق الغريب .

وتأثر فرويد بدارون من ناحية أخرى حين تابعه فى قوله ان غرائز الانسان هى الامتداد الطبيعى لغرائز الحيوانات السابقة فى سلم الصعود مضافا اليها قدر من التطور ، هو القدر الذى نتج من الظروف التى صادفت الجد الأعلى للانسان فأثرت فيه ، وانتجت منه الكائن البشرى على مر الايام . فالنظرة الحيوانية للانسان ان كان يصلح تطبيقها فى علم الحياة . من الخطأ ان تطبق كما هى فى علم النفس لانها تؤدى الى نتائج بعيدة عن الصواب .

ونظرية فرويد التى وجدت فى كتاب *The Contribution to Sexual Theorg* تؤدى الى أن الغريزة الجنسية هى التى تحرك الحياة كلها ، وهى منبع المشاعر البشرية جميعا بلا استثناء ، كما أنه يؤكد ان الحضارة كلها ناشئة من الغريزة الجنسية ، وعلى هذا النسق من التعسف والسخف يجرى فرويد فى تفسير السلوك الانسانى كنه على سوء الجنس ، وما يحتاج الانسان لكن يؤمن بقوة الدافع الجنسى وتعمقه ان يصل الى كل هذا التعسف (٢٥) .

والدين فى رأى فرويد اختراع محض خلقت من الرغبات البشرية المرفوضة لسكى تجد جنة خيالية لحركة حرة من غير عائق ، وهم يقولون ان العقائد والاراء الدينية ليست شيئا أكثر من نظريات بدائية عن الطبيعة حاول البشر استخدامها فى تخليص الحقيقة من بشاعتها الأصلية وإظهارها فى صورة أقرب الى هوى القلب مما تسمح به حقائق الحياة ، أما ان

(٢٤) حيد تطيب « الانسان بين المادية والإسلام » ص ١٦ .

(٢٥) دارون السابق ص ١٦٨ .

هناك أديانا وصورا من الفن تهيء لنا نوعا من الفرار المزرى من حقائق الحياة ، فأمر لا إنكره وكل الذى أجادل فيه هو أن هذا الحكم لا يصدق على الأديان كلها ، فالعقائد والآراء الدينية لها من غير شك اشارة ميتافيزيقية (٢٦) .

هذه هى الآراء المسادية التى نادى بها فرويد ، والتى أخذ بها الغرب واعتقدوا فيها ، وبذلك أخرجوا الإنسان من الوضع الكريم الذى رسمه الإسلام ، ووضعته فيه حضارة الإسلام ، وجعلوه يتردى الى أسفل الدرك فى صورة بهيمية حيوانية ، فهو يجرى وراء شهواته بدون ضابط ، وبدون نظام ففى هذه الحالة لا نرى هناك فرقا بين الإنسان والحيوان ، فالإنسان الذى ميزه الله سبحانه وتعالى بالعقل ، ووضع له الأسس والقواعد يترك ذلك ليسير وراء شهواته فيعيش الإنسان فى مجتمع الغابة .

إن هناك وهما سارخا يستولى على أفئدة الناس فى الغرب ويتسلسل إلى المستعبدى فى الشرق فيما مسمى نفوسهم من لغاهة وفراغ ، أنهم يظنون أن العظمة العلمية تستتبع حتما أن يكون الإنسان كله قد ارتقى . فلا بد إذا أن تكون الأخلاق والعادات والتقاليد الموجودة فى عصر السذرة أفضل من مثيلاتها فى العصور السابقة ، التى لم يكن العلم فيها قد وصل إلى هذه الأسرار ، وما دام الناس لا يؤمنون بالله ولا يتبعون قواعد الأخلاق ، ويستبيحون الفوضى الجنسية . وينكرون القيم العليا ويعتبرونها خرافة ، فلا بد إذا أن يكون هذا كله هو السدمار الحقيقى للإنسان والإنسانية (٢٧) .

ذيوخ نظرية هيغل :

من الضلالات الكبرى التى تدفقت مع الحضارة الغربية على الإنسانية ، وسببت للعالم الإسلامى مشكلات حضارية ضخمة ، ترجع بعضها إلى الفلسفة التى وضعها هيغل للتاريخ ، وأسس على مقدماتها كارل ماركس بناء تفسيره المسمى للتاريخ فيما بعد وهيغل هذا فيلسوف المانى ظهر فى أوروبا فى نهاية القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر ،

(٢٦) محمد البهى « الفكر الإسلامى الحديث » ص ٣٨٦ .

(٢٧) محمد قطب « المرجع السابق » ص ٢١٨ .

وكان يشغل أستاذا لسكرسي الفلسفة في جامعة هايدلبرج سنة ١٨١٦
ثم في جامعة برلين سنة ١٨١٩ (٢٨) .

وخلاصة فلسفة هيجل للتاريخ « ان ما يحصل في الحضارة الانسانية
من تطور وارتقاء انما يحصل بظهور الأضداد وتناطحها وتمازجها فيما بينها .
وان كل دور من ادوار التاريخ في حد ذاته وحدة او كائن جسمى حي .
وان مختلف نظريات الانسان من سسية واقتصادية ومناخية وعرقية
وعلمية وعقلية ودينية تكون على مستوى معين في ذلك الدور ويكون بها
التناسب والتلاؤم والوحدة المتناسكة ، كأنها جوانب مختلفة لئذا الكائن
الحي ، او الوحدة الزمنية تسرى فيها روح الدور بكامله .

وان المبادئ والنظريات والأفكار الانسانية التي تقوم بالنوحيه
في هذا الدور عندما تصل بالحضارة الانسانية ومدنيها الى قمة الذلقة
والصلاحية ينبثق من حضن هذا الدور نفسه عدو الذي يترعرع فيه .
ويأتي أشده أي ان طائفة أخرى من الأفكار الحديثة والميول الحديثة
والنظريات الحديثة والمبادئ الحديثة لا تقبل من المقضى الطبيعي
لهذا الدور الأخذ في الزوال نفسه ثم تشرع في محاربة الأفكار البالية
القديمة » .

يستمر الصراع على قدم وساق بين القديم والجديد الى ما من
الزمان ، وفي النهاية يحصل التمازج بينهما بعد الأخذ والرد . وشرح الى
حيز الوجود حضارة عصرية جديدة فخلطة من عناصر قديمة وأخرى جديدة .
وهكذا يفتح الدنيا دور جديد من ادوار التاريخ .

ثم عندما ترتقى روح هذا الدور الجديد في اعلى مدارجها على غرار
الدور الذي سبق يظهر من حضنها أيضا عدوها ، وينشب الصراع العنقادي
الذي ينمخض عنه أيضا خليط جديد مكون من عناصر من هذا وعناصر من
ذاك ، وبعد الأخذ والرد يصير روحا لدور جديد للحضارة والمدينة (٢٩) .

(٢٨) عبد الفتاح الديدي « فلسفة هيجل » ص ٦٤ .

(٢٩) أبو الأعلى المودودي « الاسلام في مواجهة التحديتات »

وهذه العملية للارتقاء هي التي يعبر عنها هيجل حسب اصطلاحه بالعملية الجدلية فسكان مجال التاريخ . وحلبة الدهر تجري فيها — في نظره — مجادلة منطقية متسلسلة وبموجبها يقوم أولا الدعوة ثم يبرز صدها جوابها ، وبعد ان يطول بينهما الصراع فان المعتل الكلى او الروح العالمية تعتد بينهما الصلح اى تقبل شيئا من هذا وجانبها من ذلك وتجمل منهما مزيجا . وهذا المزيج الحضارى عندما يتقدم قليلا يتحول الى دعوى ثم يواجه هذه الدعوة جوابها ، ثم ينعقد بينهما الصلح بعد نشوب النزاع بينهما مدة ، وياتى الى حيز الوجود مزيج جديد وهلم جرا ..

فالعملية الجدلية بموجب نظرية هيجل عملية اجتماعية كلية . وبعبارة اخرى ان الحضارة الانسانية بكل شعبها وغروعا في كل عصر من عصور التاريخ بمثابة جسد حي او كائن حي ، وليس الأفراد او الطوائف الا بمثابة اعضاء او اجزاء لهذا الجسد فعلى هذا لا يمكن لفرد من الأفراد او لطائفة من الطوائف ان تتحرر من طبيعة عصرها الجماعية او من الروح العامة لمدينة عصرها وحضارته ، فكل انسان مهما كان كبيرا ، ومن المع الشخصيات التاريخية وبرزها ، ليس في هذه اللعبة الجدلية او الصراع الكلى الداخلى الا بمثابة قطعة من قطع البندق في لعبة الشطرنج (٢٠) .

والواقع ان خطورة هذه الفلسفة الهيجلية على المدنية الحديثة وعلى الانسانية ترجع الى انها قد جعلت وجهات نظر اهل العلم في العصر الحاضر عن الدين والأخلاق والحضارة والاجتماع خاطئة من حيث الأساس والمبدأ ، والذين اقتنعوا بهذه الفلسفة سيطر عليهم امران اثنان .

١ — ان الحضارة بجمليتها في كل عصر من العصور التاريخية وحدة ، وان كل ما يوجد في عصر من العصور من الأخلاق والقوانين والدين والعلم والفلسفة والعلاقات الدولية انما هو في حقيقة الأمر مظاهر متنوعة للطبيعة الاجتماعية او الروح العالمية لذلك الزمان .

٢ — ان اى مدنية من مدنات الانسان عندما تتضخم وتتبلور وتبلغ ذروة كمالها فان طائفة جديدة من الميول والأفكار والنظريات والتصورات تبرز الى الوجود من بطن تلك المدنية نفسها وتشرع في محاربة الأفسكار

والنظريات القديمة التي تخرج الى المسرح مدنية جديدة يبقى فيها كل ما في المدنية القديمة من العناصر الصالحة ، وتحل محل العناصر غير الصالحة عناصر غالبة من الأفكار والميول والنظريات الجديدة .

ووجه الخطورة على الاجيال الاسلامية من انتشار هذه الفلسفة وغيرها يرجع الى :

١ — ان هؤلاء لا يعترفون بالحضارات القديمة ، ولا يعترفون بأدوار الأنبياء والرسل .

٢ — تصورهم ان كل ما يوجد في عصر خاص من عصور التاريخ من الأفكار والتصورات الدينية والخلقية والقانونية ولد من النظام الاقتصادي الراجح في ذلك العصر .

ومعنى ذلك أنه كلما تغير أسلوب انتاج وتوزيع أسباب المعيشة للإنسان فلا بد أن يصاحبه التغير الشامل في الدين والأخلاق والقانون . وهذا لا يتفق مع ما جاءت به الشرائع السماوية .

٣ — سيطرة الفكرة التي نادى بها هيغل على عقول الشباب وهي « أن الانسان في مسرح التاريخ ليس الا ممثلا لا شعور له ، لا اختيار ولا ارادة له ، وان الله هو الذي يطرح الأفكار المتعارضة على بساط المسرح بواسطة الناس ويجعلهم يقتتلون أولا ، ثم يعتقد بينهم الصلح ، ويحدث فيهم صورا جديدة للفكر والخيال ، فهذا أيضا قياس فاسد لا أساس له من الصحة ، ولا تؤيده حقيقة علمية .

معنى ذلك انهم نفوا عن الانسان الارادة والعقل الذي خص الله بها الانسان عن بقية مخلوقاته ، ورفعوه عن مرتبة الحيوان ، وأنه دعا الى أعماله دائما للتفكير والتدبر لمعرفة عظمة الله عز وجل وقدرته ونعمه على عباده وللتمييز بين الخير والشر » (٣١) ولو أن هيغل قصد درس القرآن الكريم ، لما لقي في فهم حقيقة الانسان وادراك القسائون الأساسيين لارتقاء المدنية الانسانية من العثرات ما قد لقي باللجوء الى الظن والتمسك

(٣١) صلاح الدين المنجد « الاسلام والعقل » ص ٥٩ .

بأنذال التخمين ، لأن ماقد يتقدم به القرآن من علم الانسان وفلسفة التاريخ يحل بصورة صحيحة ، وبأسلوب مقنع جميع تلك المسائل التي قد ارتبك فيها هيجل وغيره من فلاسفة الغرب (٣٢) .

فلا بد على الشباب المسلم ، ألا ينحرف وراء هذه الفلسفة الجاهلة التي تخرج الانسان عن دائرة انسانيته وتجعله عبدا لحيوانيته ، وما بالناس لو وجدنا حضارتنا قد امتزجت بها افكار هدامة مثل هذه ، وجرى وراءها كثيرون ممن لا دين لهم ، فسترى ان الفساد والانحلال والجرائم الخلقية ستزيد وتنتشر نتيجة لانتشار الدعوة الى سيطرة بهيمية الانسان على ارادته وانسانيته .

ان الدين الاسلامي وحضارته يرفضان هذه الافكار لأن الله سبحانه وتعالى وهب الانسان مواهب مختلفة من العقل والوعى وقوة اكتساب العلم والرأى وجعل له غرائزه ليستخدمها وقتما يشاء ، وعليه ان يطوعها لارادته لا يجعلها تسيطر عليه ، لأن الله اعطاه طريقين طريق الخير والشر « وهسديناه النجدين » ، وطلب منه ان يميز بينهما ، فصور له سبل كل طريق من هذه ، وعاقبة السير فيه وله ان يختار .

الوجودية وأثرها على الحضارة الإسلامية :

الفلسفة الوجودية هي فلسفة الذات الانسانية المتفردة دون ارتباط بعمرها من الذوات ، وهي في واقع الامر ليست فلسفة ، ولسكننا لانجد لها اسما في الواقع يمكن ان يعبر تماما عنها فنستعير لها كلمة فلسفة .

ومن أهم من نادى بالوجودية في الغرب كير كجارد ، وهيسدجر ، وسارتر .

والوجوديون لا يقيمون وزنا للقيم التي تربط الأفراد بالمجتمع ، ولا يحتفلون بما يوحى به العقل النظام مالم يكن ذلك فقط متفقاً مع أهوائهم

(٣٢) المودودي ، المرجع السابق ، ص ٣٥ .

مصادفة ، إنما العبارة عند الوجودى الأحسبيل بالتجربة الشخصية
والمعاناة الذاتية .

ومن هنا تنشأ فكرة اللادينية . إذ الوجودى لا يعترف بشيء غير
مرئى وغير محسوس ، غير واضح فى نفسه فالقواعد والتقاليد والنظم
والأديان هى أفكار متالية وتشريعات وتوجيهات لم يضعها الوجودى .
ولم يساهم فى وضعها فهو لا يعترف بها (٣٣) .

والوجودى لا يلتفت الى الوراثة لينظر ما خلفه السابقون ، ولا يربط
نفسه بأفكارهم والدين عندهم خرافة لأنه نسيج من الاتجاهات العقلية أو
الغيبية يجب أن تؤمن بها ولو لم تحسها فى نفسك ، وليس معنى هذا
أن الوجودية تسقط عالم الفكر من حسابها وإنما لها فى ذلك منطقتها الخاص .
فبما نجد الفلاسفة يجعلون الفكرة سابقة على الوجود إذا بالوجودى
يجعل ذاته قائمة أولا ومنها بعد ذلك تنبثق الاتجاهات الفكرية وقد تسربت
الفكرة الوجودية الى كثير من النفوس التى عانت بعد الحرب العالمية
مراغا روحيا هائلا ونهض الذين قضى عليهم أن يستأنفوا الحياة من تحت
انتقاض عالمهم وهم يمسحون عن وجودهم غبار الانقياد الذى انهارت معه
أعصابهم . غاصبت القيم المعنوية .

وكان لابد لكثير من الناس أن يجد له راحة يصنعها بنفسه يستمد
منها فلسفته الجديدة ، فبرزت الوجودية من مخبئها القديم . ووجدت
مرعاها الخصيب فى أوساط الشباب .

وقد ساعد على ذلك عجز رجال الدين الذين لم يتمكنوا من الوقوف
أمام هذه الأفكار وقد بدأت تنتشر هذه الأفكار الى الأوساط الإسلامية فى
صور أدبية فى قصص ومسرحيات وروايات عالمية من أهمها ماكتبه سارتر
والبير كامو . غانتشرت هذه الأفكار الشاذة التى تدعو الى الإباحية
فى كل شيء .

وهى تدعو الى الحرية التى ماهى الا عملية عزل مسنمر وانفصال

(٣٣) محمد لبيب البوهى « الوجودية والاسلام » ص ١٨ .

من المجتمع الانساني وما دامت الوجودية ترى أن الانسان مقتضى عيه حتما بالفشل والخسران وأن الوجود نفسه باطل الابطال ، فما معنى هذه الحرية التي تنادى بها الا أن تكون دعوة الى ممارسة الانحطاط باعتباره الصفة اللازمة للوجود (٣٤) .

وحيثما نسلط بعض أضواء الاسلام على الوجودية انما نعلم بذلك العقيدة ، فالاسلام رمز للمعتقد السماوية ، وبينما يعمل الوجودي على تفتيت المجتمع ونسف تجمعاته ليذهب كل فرد في طريقه نرى ان العقيدة الدينية تعمل على تجميع القوى الفردية ، فالوجودية تدعو الى الفردية والدين الاسلامي يدعو الى الجماعية والتضحية في سبيل الغير والتعاون وانكار الذات .

فالوجودي عدو اله ، والذي يعادي الله ، انما يمسادي كل شيء حتى نفسه .

الماركسية الشيوعية كمشكلة من مشكلات الحضارة :

اكتسب الاعلام الشيوعي منذ السنوات الأولى للثورة الحمراء قدرات لم تعرف من قبل ، اذ أصبح قوة مؤثرة في صنع الفكر وتوجيه الحركات الثقافية في أنحاء العالم ، ويكفي للتدليل على حجم هذا الاعلام ماورد في احصاءات الأمم المتحدة اخيرا من أن الاتحاد السوفيتي يمثل المركز الاول في انتاج الكتب اذ يصدر يوميا ٣٧٠٠٠٠ كتاب اي ما يوازي ربع انتاج العالم ، ويبلغ ما تنتجه المطابع السوفيتية في الدقيقة الواحدة ٢٠٥٠٠ نسخة ، ولعل في هذه الأرقام ما يكفي بل ما يصرح بالمراد . ونجاح الاتحاد السوفيتي في ادراك هذا المستوى العالي من الانتاج يعود اني ما تقرر خلال الايام الأولى لقيام الثورة ، فقد أصدرت الحكومة في

(٣٤) محمد لطيف البوهي « الرأسمالية والاسلام » ص ١٠٤ .

١٩١٧/١٢/٢٩ م مرسوما حددت فيه مبادئ ونظم نشر الكتاب (٣٥) .

ويعتقد الشيوعيون أن الصحافة والكتب من أهم وسائل الثورة الثقافية أو بتعبير آخر من أهم وسائل الانقلاب الفكرى الذى ينشدونه ، ولا شك أن الكتب والرسائل المؤلفة بذكاء من أمضى الأسلحة فى القضاء على الأفسكار والنظرات المعارضة ، وبث الآراء والتصورات الماركسية .

وتقول الأرقام : أن عدد الجرائد فى الاتحاد السوفيتى ٧٩٣٧ ، ويبلغ مجموع النسخ من كل طبعة ١٢٠ مليون ، ويصدر منها فى العام الواحد ٢٦ مليار ، ٦٥٥ مليون نسخة ، أما عدد المجلات فقد بلغ ٤٧٠٤ يصدر منها فى كل طبعة ١٣٢ مليون نسخة ، وبديهي أن هذا الانتاج الضخم يتوزع على روسيا وغيرها من المؤسسات الشيوعية فى أرجاء العالم ، وهو يطبع باللغات المحلية واللهجات الوطنية (٣٦) .

ولابد لنا أن نعطي فسكرة عن ماهية الشيوعية الماركسية ، وكيف استطاعت أن تنشر فسكرها فى العالم حتى أفقدته مثله ودينه وتاريخه بل آدميته .

قامت فلسفة كارل ماركس — وهو يهودى روسى — على أساس الفسكرة المادى التاريخى وقد أسس عليها حتمياته فى التغير الاجتماعى ، كذلك التبشير بالحكومة العمالية العالمية، وديكتاتورية الطبقة العاملة، وبالمجتمع الانسانى عديم الطبقات .

وتعود فلسفته الى الفكر المادى التاريخى ، لأنها تستخدم تاريخ المجتمع البشرى — كما يدعى — فى علاقة هذا المجتمع بالاعتقادية «المادة» وتقتن تبعاً لذلك قوانين اجتماعية يخضع لها المجتمع فى مستقبله وتطوره .

(٣٥) محمد الغزالي « قذائف الحق » ص ١٣٩ ، نقسلا عن ابراهيم دسوقي أباطة « رسالة عن المخطط الشيوعى » .

(٣٦) المرجع السابق .

ويعلق زعيم من زعماء الشيوعية على ذلك بقوله « ان على حزب طبقة العمال الا يقيم اعماله على مبادئ العقل البشرى المجردة ، وليسكن بقيمتها على الاحوال المقررة للحياة المادية للمجتمع باعتبارها القوى الفاصلة للارتقاء الاجتماعى » (٣٧) .

ويقول انجلز من زعماء الماركسية « ان العالم المادى ندركه بحواسنا ، والذى نحن جزء منه ، هو الحقيقة الوحيدة . وليست المسألة من انتاج العقل : بل ان العقل ماهو الا اسمى انتاج للمادة . ويذهب الى ان العالم بطبيعته مادى والظواهر المتضاعفة للعالم تشتمل على اشكال مختلفة من المسألة فى تحرك وارتباط الظواهر واعتماد بعضها على بعض هو قانون ارتقاء المادة ، وليس من حاجة الى الروح الشاملة ، فهناك ايمان بنظرية النشوء والارتقاء التى قال بها دارون ، ومن ثم فهناك انكار لوجود الله » (٣٨) . .

ومن هذه النظريات نرى ان الاقتصاد او المادة هو المحرك للمجتمع فى تغييره وللأفراد فى تطورهم الفعلى ، وفى التأثير فى مجرى حياتهم ، كما تأخذ من أحداث التاريخ فى ماضيه دليلا على هذا الربط بين التغيير الاجتماعى والوضع الاقتصادى ومصدرا ايضا للتنبؤ ، او الحتمية كما يذكر ماركس — بما سيكون عليه المجتمع الانسانى فى غده تبعا للتغير الاقتصادى (٣٩) .

فطالما كان هناك فى الماضى مجتمع يملك مصادر الثروة فيه شخص واحد هو المالك المطلق ثم تحولت الى ملاك عديدين هم اصحاب القطاع فى

(٣٧) فؤاد شبل « الدستور السوفيتى » ص ٢٨ .

(٣٨) احمد جمال الدين « نقد النظرية الماركسية » ص ٣٣ .

(٣٩) محمد البهى « تهافت الفكر المادى التاريخى بين النظرية والتطبيق » ص ١٣ .

الأراضي الزراعية الذين يكونون في مجتمع الاقطاع ، تم تحول مجتمع هؤلاء الى مجتمع رؤوس الاموال في الصناعة ، فسلابد ان يتحول مجتمع اصحاب رؤوس الاموال الى مجتمع آخر يغيره تماما ، وهو مجتمع عمال الصناعات .

ان السبب في تحول المجتمع هو مبدأ النقيض ، اي وجود تناقض بين الشيء ونقيضه وهذا مايدموا حتما الى انتقال الشيء الى نقيضه .

فمجتمع الملك المطلق كان ومعه نقيضه ، وهو الآخرون الذين لا يملكون شيئا مما يملك ، فتحول الى مجتمع هؤلاء الآخريين المعدمين بسبب العداء بين النقيضين ، والصراع بين الطرفين (٤٠) .

وقد عملت الماركسية على تحقيق هدفها بالوسائل التالية :

١ - الملكية الجماعية لوسائل الانتاج الثلاث : الأرض - رأس المال - العمل وتحرير الملكية الخاصة لهذه الوسائل .

٢ - محاربة الفردية بجميع خصائصها ، وعدم الاعتراف بها في النظام الجماعي .

٣ - تبني الصراع بين الطبقات كوسيلة للتطبيق الاشتراكي ، والمجاهرة بأنه لم يكن جميع الناس اخوة في أي حال من الأحوال في نظر ماركس ، بل كانوا أعداء طبيعيين يتصارعون ، ولذلك كان شعار ماركس في البيان الشيوعي « يا عمال العالم اتحدوا » وتجنب عن قصد أن يقول يابني الإنسان اتحدوا .

٤ - العمل على تغيير العالم بجميع نخله ، كما صرح بذلك ماركس لتفسيره على ما هو قائم عليه من الخصائص الفردية والدولة السياسية ولا يكون ذلك التغيير عندهم ، الا بتدمير النظام القائم بجميع لوازمه

(٤٠) المرجع السابق . ص ١٤ .

وخصائصه ، من دين وقانون وأخلاق ، وعدالة ، وعدالة بين الطبقات ، باعتبارها كلها عندهم من خصائص هذا النظام الرجعي والبورجوازي ، وإن مراعاة التعاليم الأخلاقية تضعف من حدة الصراع بين الطبقات ، كما أكد على ذلك ماركس نفسه .

٥ — إن ذلك التدمير لا يكون إلا بعمل ثوري وذلك لتقسيم الأمة ، والاعتماد على الثوريين منها ، وإحلال روح الثورة والصراع مكان روح الحب والإخاء .

٦ — تصفية الدولة بعد مرحلة حكم ديكتاتوري يتسلمه طليعة طبقة البروليتاريا وبعد أن لا يبقى في المجتمع غير طبقة البروليتاريا ليحيا الناس عندئذ في مجتمعات خيالية غير مركزية تعمل وتنتج ، من غير دولة ولا قيادة سياسية ، ولا قانون ولا نظام إلا ما يعرف عليه المقيمون فيها بينهم من سلوك طوعي لا إكراه فيه ، ولا سلطة فوقه لتحديه (٤١) .

وزاد في خطورة الوضع ذلك الصراع الرهيب الذي تام حينئذ في أوروبا خاصة في القرن التاسع عشر ما بين الكنيسة والاشتراكية ، ففقدت الكنيسة أمام الاشتراكية وكانت الاشتراكية تهدف إلى القضاء على الكنيسة بوصفها ديناً ، والدين عندهم من خصائص الرجعية والبورجوازية ، فتحملت الكنيسة عندئذ وحدها تلك الصدمة ، ولم تقو على ردها ، وكانت الكنيسة كدين توجهه سلوك الأمة ، والحكم ، فلما انهزمت كان انهزامها انهزاماً لكل دين (٤٢) .

وبذلك نرى أن الشيوعيين قد نجحوا في تنفيذ حركتهم على نطاق دولتهم ، وفرضوا نظرية كارل ماركس التي بينا فحواها ، وبذلك فراهم قد عملوا على دراسة الحياة الاجتماعية ففسروا تطور المجتمع وأرجعوا

(٤١) محمد معروف الدواليبي « الإسلام أمام الرأسمالية والماركسية » ص ١٢ — ١٤ .

(٤٢) المرجع السابق ص ١٧ .

حوادثه الى اسباب مادية بحيث لا يتركون شئاً منها للمصادفة وللارادة الالهية او للاسباب الخارجة عن الطبيعة ومن ثم نراهم قد أرجعوا كل شئ حتى الدين والأخلاق والفكر والفلسفة والتقانة والقانون والسياسة الى انعكاسات للاحوال الاقتصادية ، والمصالح الطبيعية ، وأمدوا جذورها الى الظروف المادية للحياة ، وتاريخ ارتقاء المجتمع عندهم قبل كل شئ تاريخ ارتقاء الانتاج ، واهتموا بتفسير الاحداث التاريخية تفسيراً مادياً ينكر الدين (٤٢) .

اثر الحركة الشيوعية الماركسية على الحضارة والدين الاسلامى :

لو ان الثورة الروسية لم تقم فى اعقاب الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٧ م ، لسا حفل الفكر المعاصر فى القرن العشرين بالماركسيه ، ولطغت عليها اتجاهات المثالية والأخلاق الدينية فى هذا الفكر ، ولكن حسن حظ الماركسية انها وجدت فى الانقلاب الروسى قوة مؤازرها ، ونحند لنشرها اقوى واحداث اساليب النشر والدعاية .

وجاءت الحرب العالمية الثانية ، وحصل الاتحاد السوفيتى فيها على نصر عسكرى وسياسى اضاف قوة جديدة الى القوة السابقة التى آزرت الماركسية ، ثم جاء ما وقعت فيه الدبلوماسية الغربية من معارضة الروس فى هذه الحرب للقضاء على ماسى وتقتاذك بالديكتاتورية العسكرية فى «لين وروما» ، وذلك تحت ضغط اليهودية العالمية والكنيسة الكاثوليكية ، فضعف كذلك من قوة المؤازرة للماركسية فى تثبيت دعائمها ونشرها (٤٤)

وقد بدا السوفييت فى الدعاية للشيوعية بطريقة التهويل والاستخفاف وجذب عقول الشباب محاولين ابعادهم عن الدين والصوفيين منه فى نفوسهم الى جانب جذبهم بالاموال ، وبطرق الاقتناع العجيبة تحت مؤثرات مختلفة ، واستغلال الأوضاع الاقتصادية والطبوعات بطرق جذابة تجذب

(٤٣) احمد جمال « نقد النظرية الماركسية » ص ٣٦-٣٧ .

(٤٤) محمد البهى « الفكر الاسلامى الحديث وملكته بالاستعمار » ص ٣٢٨ .

الشباب ، ومحاولة عقد الندوات ، وبث السموم الفكرية فيما بينهم .
محاولين اقناعهم ان هذه الدعوة ما هي الا دعوة اصلاح ، ومحاولين تقذوب
الفوارق بين الطبقات للقضاء على الرأسمالية .

والدعاية الشيوعية تركز قوتها في ثلاث نقاط :

- ١ — معارضة ثبات القيم الروحية والاخلاقية والعقلية .
- ٢ — معارضة وضعية المرأة في المجتمع غير الشيوعي .
- ٣ — الاستخفاف بأصحاب المزارع ، وأصحاب رؤوس الأموال وتمجيد
أصحاب العمل البدني (٤٥) .

ونجد هنا في الشرق الاسلامي ان توهين امر الدين ، ورجال الدين
هو الهدف الأول للدعاية الشيوعية ، لأن الاسلام في هذا الشرق يعتبر
مصدر انواع القيم الثلاث الثابتة الروحية ، العقلية ، والدينية ، ثم هو
مع ذلك مصدر تحديد وضعية المرأة في المجتمع الاسلامي كذلك ، وأخيراً
هو مصدر حق الملكية الفردية سواء للأراضي الزراعية او للصناعات .

أضف الى ذلك أنهم يعملون على تحرير المرأة بالصورة التي لايرضى
عنها الاسلام ، ومحاولة بث الدعاية للعمل على القضاء على مآثره
الاسلام في حثها ، خاصة ، في موضوع الطلاق وتعدد الزوجات ، وذلك
حتى يخلقوا الفوضى في المجتمعات الاسلامية .

وهناك ظاهرة ثالثة في نشرات الدعاية للشيوعية في الادب المعاصر .
هي ظاهرة تمجيد العمل البدوي ، وإبراز تفوقه على العمل الفكري ، وبالتالي
تفضيل الطبقة العاملة على الطبقات الأخرى ، وهذه الظاهرة اثر للفكر
الماركسي الذي يرمى الى تحويل الجماعة الى دولة ذات طبقة واحدة ،
هي طبقة العمال ، كما أنها مادة للدعاية الشيوعية لسحب الانتباه عن
أوسع دائرة ممكنة (٤٦) .

(٤٥) محمد البهن ، المرجع السابق : ص ٢٣٧ .

(٤٦) المرجع السابق . ص ٣٤٩ .

واستطاعت الشيوعية عن هذه الطرق ، وهذه الدعاية أن تسيطر على البلاد الإسلامية ، وأن تجد لها أنصاراً في بعض طبقات المثقفين الذين اغرنهم الدعاية الأجنبية ، وفي بعض العقول التي لم يمررها الله بالدور ، حاولوا اقناعهم بهذا المذهب الهدام .

وقد حاول الشيوعيون أن ينكروا الدين والفلسفة المثالية بين الفئات التي آمنت بهم ، وأصبحت التضحية وإنكار الذات ، والصبر على الشدائد ، والرضا بالتقدير عند العجز عن الدفع ، وأصبحت الأخوة في الوطن ، والإنسانية ، معاني جوفاء لا مدلول لها ، وأصبحت الدعوة إلى الله والتفكير الذاتية ، كمصدر لإشباع التوجيه للبشرية عامة دعوة إلى التخدير .

ويؤكد هذا الموقف من الدين الإسلامي ، ما قاله أحد الزعماء الشيوعيين ويدعى مولوتوف « لن تنتشر الشيوعية في الشرق إلا إذا أعدنا له من تلك الحجارة التي يعبدهونها في الحجاز وفلسطين » (٤٧) .

لقد عاين زعماء الشيوعية فكرة الجامعة الإسلامية لقوميات المسلمين هناك ، ولم تأت عام ١٩٣٣ م حتى أرغمتهم الحكومة على اتخاذ الحروف اللاتينية بدل العربية ، وبذلك قطعوا صلتهما بالعال الإسلامي . وفي عام ١٩٣٨ م أمرتهم باتخاذ الحروف الروسية (٤٨) .

شجعت الماركسية الشيوعية الحيوانية بين صنوف الشباب في جميع جوانبها . شجعتها على ابتلاء المدة ، وإشباع الرغبة الجنسية في أية صورة ، واحتقار العقل ، وإزدراء الطبقة المثقفة ، وإغراء الدولة الطبقة العاملة ، بأن الدولة ديكتة ، حتى تضمن ولاء السكينة العديدة في الجماعة الإسلامية لنظامها (٤٩) .

وقد عملت الشيوعية على إزالة الملكية الفردية أي كانت صغيرة أو كبيرة ، وتطبيق نظام الأجور من كل حسب حاجته ، مع القضاء على التجارة الداخلية وتبني نظام البطاقات (٥٠) .

(٤٧) محمد النواوي « بين الشيوعية والإسلام » ص ٣٠ .

(٤٨) المرجع السابق ، نقلاً عن « الشيوعية في الميزان » ص ٥٢-٥٣ .

(٤٩) محمد البهي ، المرجع السابق ص ٣٥٥ .

(٥٠) الشيوعية في الميزان ، ص ٥٢ - ٥٣ .

موقف الاسلام من الشيوعية الماركسية :

١ — الاسلام يتفق مع الطبيعة الانسانية وضرورات الحياة في اباحة للملكة الشخصية ، وهذا ما انكرته الشيوعية النظرية كما وضعها كارل ماركس وانجلز ، فالاسلام يسمح لكل انسان ان يتخذ من الوسائل والسبل المشروعة لاكتساب المال وثمنته ، ما يحبه ويستطيعه ، وبذلك بهذه السبل ما يشاء ، والاسلام من حيث انه دين ترفض عقيدته ونظامه الشيوعية رفضا باتا لانها فلسفة مادية السكبان ، بفكرة بلادة العقيدة .

فالاسلام يعترف بمبدأ الملكية ، ويضعه تحت الوصاية الدقيقة من معالمه المقررة في قواعد العامة ، ونصوصه الخاصة ، فهو يطلقه ان كانت المصلحة العامة تقتضي باطلاعه ، ويحده ان كان الامر علمي العكسي ، وفي كلتا الحالتين ، فالاسلام واضح في رفضه لكل ذلك باطل ، وهو يسأل كل مالك من ان لك هذا ليعرف اهو حق فبقية له ام باطل فسله اياه (٥١) قال تعالى : « ولا تأكلوا اموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقا من اموال الناس بالاثم » ، وانتم تعلمون « (٥٢) .

والعجيب ان الشيوعية قد تراجعت اخيرا في مرحلتها التطبيقية ، واعترفت بالملكية الشخصية : ولو في حدود ضيقة تأكيداً لبطلان زعمها النظري . فقد جاء في الدستور السوفيتي مايلي :

مادة ٧ : لكل عائلة من عوائل المزرعة التعاونية بالانضمام اليها دخلها الاسامي الذي يأتيها من اقتصاد المزرعة التعاونية المشترك ، قطعة من الأرض خاصة بها ، وملحقة بمحل السكن ، ولها في الأرض اقتصاد اضافي ، ومنزل للسكني ، وماشية منتجة وطيور وادوات زراعية بسيطة للسكنية خاصة (٥٣) .

(٥١) محمد الغزالي : « الاسلام المفترى عليه بين الشيوعية والراسخالية » ص ١٤٥ — ١٤٦ .

(٥٢) سورة البقرة آية ١٨٨ .

(٥٣) مصطفى السباعي : « اشتراكية الاسلام » ص ١٦٥ نقلا عن النسخة العربية من الدستور السوفيتي المطبوعة في موسكو سنة ١٩٤٢ ، والمترجمة عن النسخة الروسية المطبوعة في موسكو سنة ١٩٤١ م .

٢ — ان الاسلام فى ابحاثه للملكية الشخصية ، انما يسمح للمواهب الإنسانية ان تنطلق فى ميدان التنافس والبفس الذى هو بلا ريب اكبر سبب من أسباب تطور الحضارة ، ونمو الانتاج ، والشيوعية تزعم ان هذا التنافس هو الذى يجر البلاء على المجتمع . اذ يؤدى الى استغلال ارباب الأموال للجماهير اسوا استغلال ، وهذا انما يصدق على التنافس الراسمالى الذى راقه الشيوعية النظرية قائما فى أوربا ، ولكنه لا يصدق ابدا على التنافس الاشتراكى الاسلامى لانه مقيد اولا بهيادىء التملك . ومقيد ثانيا باشراف الدولة وتوجيهها ويقتظها . ومقيد بالمثل الاخلاقية العليا التى هى جزء من عقيدة الاسلام . وببقتلة الضمير الدينى الذى تعتمد اشتراكية الاسلام عليه اكبر اعتماد . وفى واقع راس المال الاسلامى فى الدولة الاسلامية الاولى وما بعدها اكبر دليل على هذا .

٣ — الاسلام يعمل على تعاون فئات المجتمع المختلفة لا الى حرب الطبقات كما تفعل الشيوعية . فحين يكفل الاسلام الحياة الكريمة للضعفاء والمعاجزين والفقراء وغيرهم . ويمنع استغلال الاغنياء وتحكمهم . ويمجر ينابيع الخير فى نفوس الناس كافة . اما الشيوعية فاساس دعوتها اثاره انفئات بعضها على بعض وملء قلوب بعضها بالحققد على بعض (٥٤) .

٤ — الاسلام يعتمد على الاخلاق الكريمة ، ويجعلها جزءا من العقيدة ، ويحمل الانسان على ان يتحلى بها . والشيوعية لاتؤدن بالقيم الاخلاقية العاطفية كالحب والرحمة . والاجتماعية كالصدق والوفاء ولا تنظر اليها الا فى اطار المصلحة الشيوعية . والشيوعى يستخدم المثل العليا التى يؤمن بها الناس فى الدعاية لمبادئه للتضليل والتفريز . والشيوعى يدعو الى الحرية فى مجتمع غير شيوعى ليتخذ منها وسيلة لاثارة العمال والطلاب والجماهير ضد الحكم القائم .

٥ — الاسلام يعتبر هو صرح بفس الحضارات منذ عرف الانسان ، ذلك هو الايمان بالله خالق الحياة رب العالمين ، العادل الذى لا يظلم . ثقالة ذرة والعقيدة الاسلامية توقظ الضمير ، وتهذب النفس وتكبح من جماح اهوائها وشهواتها او تجعل الانسان دائما امام ضميره ، وأمام ربه

فى جميع علاقاته ، ويوم تتخلى الأمة عن هذه العقيدة — كما تهدف الشيوعية —
فقد سمحت للشر أن يستفحل فى صفوفها (٥٥) .

٦ — الاسلام يعلن ثقته بالانسان وبغرائز الخير فيه ، وانه الى الخير
اقرب منه الى الشر « كل مولود يولد على الفطرة » (٥٦) وفى قصة خلق
آدم . كما رويت فى القرآن الكريم اشارة واضحة الى هذا .

قال تعالى « واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة .
قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها . ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك
ونقدس لك قال انى اعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم
على الملائكة فقال : انبئوني باسماء هؤلاء ان كنتم صادقين ، قالوا سبحانك
لا علم لنا الا ما علمتنا انك انت العليم الحكيم ، واذ قلنا للملائكة اسجدوا
لآدم فسجدوا الا ابليس ابى واستكبر وكان من الكافرين » (٥٧) .

فالانسان — كما تدل عليه هذه القصة — خلق ليكون خليفة عن الله
فى الارض يعمرها ويملوها بالمعرفة والخير ، ولم يمنعه ما فيه من غرائز
الشر أن يستحق هذه الخلافة . ومن أن يسخر الله له جميع القوى .
ويخضع له جميع المخلوقات .

ولهذا يعمل الاسلام على أن يقوى فى الانسان دينه أو يهذب نفسه ،
ثم هو يكله بعد ذلك الى ضميره فى تنفيذ مبادئه ، أكثر مما يجبره على ذلك
بنوة الدولة ورهبة السلطان .

ولسكن الشيوعية لانتق بالانسان — لأن تاريخه كله من اوله الى
آخره تسلط وقتال من أجل الاكل والمال ، انها لانتق بدينه لأنه يؤمن بخرافة ،
ولا تثق بضميره لأن القيم التى يؤمن بها الضمير قيم باطلة ، انها لا تؤمن
بغرائز الخير فيه ، انها تثق بغرائزه الجشعة ، ورغبته فى الاستئثار
والطغيان ، ولذلك فهى لاتسلمه المال لأنه يستعمله فى استغلال الكادحين ،

(٥٥) مصطفى النبأى « اشراكية الاسلام » ص ١٦٧ .

(٥٦) رواه البخارى ومسلم .

(٥٧) سورة البقرة آية ٣٠ — ٣٤ .

ولا تطلق له الإرادة لأنه ينزع إلى التحكم والاستبداد . ولا تعطيه الحرية لأنه لا يحسن استعمالها .

٧ — الشيوعية تعتبر مأساة الإنسان كلها منذ أقدم الساريح إلى اليوم مأساة بطن جائع ، ومن ثم فهي تنادي بأنه لا سبيل للسلام والسعادة إلا بنظامها الذي يسلب من الناس أموالهم ويملا بطونهم . ومعنى ذلك أنه ليس في الإنسان رذيلة إلا حب التسلط على الآخرين (٥٨) .

وخلاصة ذلك أن الإسلام يفكر على الشيوعية موقفها من الأديان ، ومهاجمتها في أصولها وفروعها كما ينكر عليها وأدها للحريات ؛ وهذا أهم حازف بين الإسلام والشيوعية ، أما أساليب الحياة وتنظيمها والرقى بالافراد والجماعات ، ومحاربة الفقر والبطالة وتأمين الفرد على نفسه ومعيشته وذريته مما جاءت به الشيوعية فإن الإسلام له موقف مخالف نهائيا . فهو يحرم الإنسان ويحترم انميته (٥٩) .

ولابد ان ندلل على صحة رأينا في موقف الإسلام من الشيوعية برأى تحدد المنشرقين الغربيين وهو المنشرق « جب » يقول « مازال الإسلام يحفظ التوازن بين الاتجاهين المتقابلين في الغرب . فهو يسلم ويوائم بين الاشتراكية القومية والأوربية . وبين شيوعية روسيا . فلم ينه بالجناسب الاقتصادي من الحياة إلى ذلك النطاق الضيق الذي أصبح من مميزات أوربا في الوقت الحالي ؛ والسدى هو اليسوم من مميزات روسيا أيضا » (٦٠) .

ويذكر جاك أوستري في كتابه « الإسلام أمام التطور الاقتصادي » :
« ليس هناك في الحقيقة إلا طريقة وحيدة وضرورية لأبد منها للانداء الاقتصادي كما تريد أن تقنعنا به المذاهب القصيرة النظر في النظامين الاقتصاديين السائدين » (٦١) .

(٥٨) مصطفى السباعي : المرجع السابق ص ١٦٨ .

(٥٩) الغزالي « الإسلام المفترى عليه » ص ١٥٠ .

(٦٠) محمد علي « مولانا » « الإسلام والنظام الجديد » ص ٤٥

(٦١) Jacques Austry " L'Islam Face au developement (٦١)

ولذلك الحق ، هذا المؤلف في كتابه على المسلمين بضرورة العودة الى الاسلام نفسه والى دراسة قواه الكامنة فيه « بشق الطريق فهو نهوض المسلمين عوضا عن التقليد الأعمى » وجاهر « بأن الاسلام يتمتع بإمكانيات هائلة وأنه إذا ما وجد الطريق الصحيح فإن كثيرا من الصعوبات الاقتصادية التي ظهر للاقتصاديين تعذر التغلب عليها .. » ون يخلصها الاسلام « (٦٢) .

هذا هو الاسلام بمبادئه التي تناقض المذهب الشيوعي — الذي حاول أن يعمل جاهدا على التوصل في المجتمع الاسلامي لسحق الدين . وبليلة افكار المسلمين تحت ستار ما يدعونه من مذاهب فكرية متحررة ومتجددة . وما هي الا فقااعات لا تلبث ان تزول . قال الله تعالى « كذلك يضرب الله الحق بالباطل فأما الزيد فببذهب جفاء . وأما ما ينفع الناس فيمكنك في الأرض » (٦٣) .

الراسمالية وأثرها على الحضارة الإسلامية

قام النظام الراسمالي الغربى على أساس من إطلاق العنان لنشاط الفرد الى غير حد . وللحرية الفردية من غير قيد ، ولاعتبار الصالح الفردى هو الصالح الأعلى .

وبرزت هذه الاتجاهات فى المجال الاقتصادى الى أقصى حد . اذ ترك كل شىء فى هذا المجال لنشاط الأفراد ، ورغباتهم ومصالحهم ، دون أى اعتبار للمجتمع أو للأخلاق أو لأية اعتبارات أخرى يمكن أن تحد من الحرية الفردية . أو من تحقيق الصالح الفردى كما يتراءى للفرد ان يحققه (١) .

ان اول ما يأخذه الاسلام على الراسمالية باعتبارها نظاما جرب وشهد العالم تطبيقه وآثاره ، ان الذى يربح منه طبقة محدودة جدا ، وان هذه الطبقة الاربعة تقبل على الدنيا اقبالا عارما ، موصول اللذة محدود المتعة ، تاكل التراث اكلا لمسا . وتحب المال حبا جما .

والاسلام يضيق بالراسمالية لانها تضع نظاما جادا لمحاربة الفقر ، بل لم تؤسس حكمها على فكرة اراحة الناس منه ، كما ان النظام الراسمالي سوى بالضعفاء والمحتاجين فى مكان سحيق ، ولا يتعرف اليهم الا ادوات انتاج يحترقون فى النار التى تعطى للمسادة ، ثم تتحول بوقودها الى عالم من التراب (٢) .

ونريد ان نعطي لمحة تاريخية عن نشأة الراسمالية . فقد ظهرت فى اوربا عقب الثورة الصناعية التى بدأت فى القرن الثامن عشر فى انجلترا أولا ثم فى بقية اوربا الغربية بعد ذلك .

(١) سيد قطب « الاسلام ومشكلات الحضارة » ص ٩٧ .
(٢) محمد الغزالي « الاسلام المفتوح عليه » ص ١٩١ - ١٩٢ .

وقد أدت الثورة الصناعية الى قضاء الآلة نهائيا على العمل اليدوى فى الصناعات . وشمل الانتاج اليدوى فى مواجهة الطاقة الكبيرة لصنع الآلة ، وتحول العمال اليدويون ، وقد كانوا ملاكا فى مصانعهم الصغيرة من قبل الى أجراء لدى أصحاب الصناعة الآلية الكبيرة .

وفيما بين المصانع الآلية كان المصنع الكبير فيها بطاقته الواسعة من الانتاج اقل تكلفة منه فى المصنع الأصغر ، لذا لم يستطع المصنع الآلى الصغير أن يستمر طويلا فى مواجهة المصنع الكبير ، وأثر صاحب بسبب قوة المنافسة وضررها عليه أن ينضم الى المصنع الكبير ويدخل فى حمايته . وتكونت بذلك الشركات المساهمة الكبيرة .

وهكذا أيضا بين الشركات المساهمة الكبيرة كانت المنافسة فى رخص تكلفة الانتاج ، ولكن هذه المرة ليست من طريق كثرة الانتاج — بجانب جودته — ولكن عن طريق تخفيف التكلفة خارج المصنع . سواء فى شراء المواد الخام أو فى تسويق مصنوعات المصنع فى الأسواق المحلية أو الخارجية والعامل الأساسى فى التكلفة هو — النقل — وضمان وسائل عدم التلف للسلع ، وفائدة القروض التى يقترضها المصنع أو الوسيط بين المصنع والأسواق وهو التاجر (٢) .

فكلما كانت أجور النقل ، وفائدة القرض أقل ، وكلما كان الخطر الناشئ عن تلف السلع المصنعة أو الخام فى نطاق ضيق أو منعدا تماما، كانت التكلفة أقل وبالتالي كانت المنافسة اقوى للصناعة التى قلت تكلفتها تبعاً لذلك على المنافسة ، اتحدت بعض الشركات الصناعية المساهمة ، على أن تباشر خدمات النقل أو التأمين على السلع أو القرض لتسويقها . وأصبحت هذه الشركات داخل اطار الصناعة ، ثم فى تطور العمل فيها أصبحت نوعية ، وتقوم بخدمات لغير المساهمين فيها ، فأصبح منها البنوك وشركات التأمين وشركات السكك الحديدية والسفن والبريد ووسائل النقل الأخرى . والشركات الصناعية التى أصبحت خدماتها الخارجية ذاتية من نقل وتأمين وقروض طغت فى منافستها على بعض الشركات الأخرى،

(٢) محمد البهى « تهايت الفكر المادى » ص ٢٠ .

وعظم أثرها في الانتاج وفي الأسواق المحلية ، وفيها وراء البحار ،
والبعض منها امتد نفوذه الى الاحتكار اما في نوع من الانتاج او في تجارة
سلعة معينة من سلع المواد الأولية او في بعض الخدمات الخاصة كالنقل
والتأمين .

وتبعاً لهذا التركز أصبح رأس مال الصناعة ، ويتبعه غالباً رأس
مال التجارة ورأس مال الخدمات المالية في يد قلة من أصحاب رؤوس
الاموال ، وبالتالي تجمعت لديهم الأرباح الواسعة في استثمار القارتين
الأفريقية والآسيوية وفي تسخير المواطنين فيهما في خدمة الصناعة
الأوربية الغربية .

وأصبح في أوروبا ثراء فاحش يتصرف فيه عدد قليل من الأثرياء .
كما نشأت حضارة غربية مادية في المدن والمرافق التي تساعد الإنسان
الأوربي صاحب الثراء على الاستمتاع بالحياة المادية في مسورها
المختلفة (٤) .

ونمت هذه القلة من أصحاب رؤوس الاموال في الصناعة الغربية
وقف مد الثراء الفاحش ، سواء اكان من الأرباح المباشرة او غير المباشرة ،
كما وقف عليها الاستمتاع بترف الحياة المادية .

وكلما قوى تيار هذا المد للثروة البشرية — اذ ذاك — في اتجاهه
للتكدس تحت اقدام هذه القلة في عسدها من أصحاب رؤوس الاموال
الصناعية زاد نفوذها في السياسة الدولية ، وفي توجيه الفكر والتعليم ،
وكلما ازداد من عداهم فاقة وحرماناً وضعفاً في رعاية صحتهم وأحوالهم
الاجتماعية .

كان عمال المصانع اقرب للآخرين عسداً أصحاب رؤوس الاموال
الى الاحساس بالوضع المزدوج المتناقض الناشئ من تسكدس الأرباح في
أيدي قلة من الأفراد وهو :

١ — وضع الثراء الواسع والترف الذي هو العيب بعينه في جانب .

(٤) محمد البهي ، المزج السابق ص ٢١ .

٢ — الحرمان وفقد الرعاية الاجتماعية ، والاعتبار الثرى فى جانب آخر (٥) .

وكانت نتائج الثورة الصناعية مايلى :

١ — استعمارهم لبلاد آمنة مطمئنة ، وحرمانها من ثروتها الطبيعية، وبخس المجهود البشرى لابنائها المواطنين فيها ، وذلك لان الطاقة الانتاجية للصناعة تضخمت الى حد أن أصبحت عاجزة عن استيعاب طاقتها الانتاجية الكاملة فالسوق الداخلية صارت غير كافية لاستنفاد ما انتجه المنتجون بالأسعار التى يرون . بحكم جشعهم الباغى — انها صارت مجزية — ومن أجل الاحتفاظ بهذه الأسعار الفاحشة استقر رأى المنتجين بعد ان تجمعوا فى كتل احتكارية على أنه لامناص لهم من سلوك أحد طريقين . إما خفض الانتاج ، وهذا ينقص من كمية أرباحهم . وإما خلق أسواق أجنبية نستوعب فائض الانتاج ، وتكفل لهم الحد الأقصى من الأرباح .

الى جانب حاجة الاقتصاد الغربى الى ميادين أجنبية لاستثمار فائض المدخرات لان الأرباح الفاحشة التى تؤول الى أصحاب الصناعات الكبرى لا يمكن توظيفها فى السوق الداخلى الا بفائدة منخفضة فى حين انها تغل فائدة مرتفعة فى البلاد المتخلفة اقتصاديا .

الى جانب حاجة الصناعة الكبيرة فى الاقتصاد الغربى الى الموارد الطبيعية فى البلاد المتخلفة اقتصاديا . وأصحاب الأموال لا ضابط له ، ولا قيد عليه ، يريدون الحصول على هذه الموارد ببخس الأثمان تدعيمها لأرباحهم الفاحشة والسبيل الى ذلك هو حمل حكوماتهم على بسط نفوذها السياسى على هذه الأقاليم (٦) .

٢ — أرهاق العمال فى المصانع وحرمانهم نعمة الاقتناء بعد حرمانهم من نعمة التعليم .

(٥) المرجع السابق ص ٢٣ .

(٦) محمد عبد الله العربى « الاقتصاد الإسلامى » ص ٣١٤ .
محاضرة « القاها فى الموسم الثقافى لجامعة الأزهر سنة ١٩٦٠ م .

٣ — تكسب الثروات في أيدي قلة قليلة من الأفراد لثروات لا تفتقر هي في واقع الأمر اغتصاب لما تملكه الملايين الأخرى من أموال وطاقات.

٤ — وتمكننا من سلطة الحكم في المجتمع ، ومن توجيه سياسته لضمان بقاء العامل في وضعه الاجتماعي ، وبقاء البلاد الأفريقية والآسيوية قسماً وراء البحار مستعمرات للمواد الخام بأثمان زهيدة ، وللطاقات البشرية الرخيصة في نفقاتها .

ووصلت الرأسمالية الصناعية في القرب إلى ثروتها في الآثار والنتائج ، وهي آثار ونتائج كلها سلبية على البشرية ، حتى ما كان منها أرباحاً طائلة لأصحاب رؤوس الأموال القليلين (٧) .

منذ ذلك نرى أن النظم الرأسمالية ما هو إلا استغلال الإنسان لأخيه الإنسان وهو الذي يشجع على الاحتكار الذي نهى عنه الإسلام .

ومن أهم النتائج التي صاحبت نشأة الرأسمالية إنشاء المصارف والبنوك . التي ترتب عليها جعل العمال والصناع والتجار وأصحاب المصانع مجرد إجراء للسيارفة الذين قاموا بتأسيس البنوك ، وجذبوا إليها أموال حملة الأسهم والمودعين ، ليستغلوها لصالحهم ، إذ تعود عليهم حصيلة تشغيل هذه الأموال ماعدا النصيب الضئيل الذي يصرف لحملة الأسهم ، وللمودعين في بعض الحالات بينما يكسب العمال والصناع والتجار والمستهلكون وأصحاب المصانع أنفسهم كذلك. للوفاء بالفوائد الربوية التي تعود في النهاية إلى الحلقة القليلة من المالكين الذين يمولون الصناعة والتجارة عن طريق الاقراض ويقيضون وهم قاعزون — ثمرة كد الجميع في نهاية المطاف (٨) .

إن مشكلة النظام الرأسمالي لا تتمثل فقط في الظهور البسار الذي يوجه إليه النقد ، وهو تسخير الشعوب بالحكومات ، هي طبقة مستترة وراء اكدهاس من النظريات الاقتصادية ووسائل الدعاية والتدويع ، والأساندة

(٧) اليه « تهافت الفكر المادي » ص ٢٢ .

(٨) سيد قطب « الإسلام ومشكلات الحضارة » ص ١٨ .

الكبار والجامعات والقوانين واللوائح في جميع أرجاء الأرض . طبقة الزابيين ، الطبقة التي تؤسس بنوك الاقتراض ، وتمتلك سندات التأسيس .

ومصاحب النظام الرأسمالي الاتحلال الأخلاقي أولا : نحت تأثير النظريات المختلفة الاتجاهات ، سواء نظريات الحرية المقردة التي لايجوز أن يأخذها أحد أو قيد أو نظريات حيوانية الإنسان ومادية الكون (٩) .

انتشار البنوك التي تتعامل بالفسادة :

انتشر حفظ ودائع الأفراد والشركات والحكومات في البنوك بفوائد محددة . كما انتشر منح الناس قروضا بالملايين . وليسكن مما يؤخذ على هذا الموضوع هو تحديد الفائدة : فالإسلام ينص على أن رأس المال والعمل يجب أن يشتركا في الربح والخسارة ، فلا يأخذ رأس المال فائدة دائما ، حتى ولو كان ذلك يؤدي إلى خسارة العمل (١٠) .

ولا يستطيع أحد في عصرنا الحديث أن ينكر أن البنوك في وضعها الحالي تؤدي للمجتمع خدمات قيمة سواء في ميدان التجارة الداخلية أو ميدان التجارة الخارجية .

ولكن ؟ من أين تأتي البنوك بالأموال التي توجهها في انجاز عملياتها المختلفة ، وعلى الأخص في تمويل المشروعات ؟ بعضها يأتي من رأس مال البنك ، أي من قيمة الأسهم التي اكتتب بها المساهمون ، ولكن أكثرها يأتي من ودائع المودعين .

في النظام الرأسمالي يودع الناس فائض أموالهم النقدية في البنوك مقابل فائدة منخفضة السعر يقررها البنك لودائعهم ، ثم يقسم البنك بالاقتراض من هذه الودائع لعلائه بفائدة مرتفعة ، ويكسب البنك الفرق بين السعرين ، ويعتبر البنك ودائع المودعين كأنها رصيد واحد ، متجدد نظل يقرض منه المقترضين بالفائدة المرتفعة ، وكلما رد مقترض قيمته يقرضه

(٩) سيد قطب « المرجع السابق » ص ٩٩ .

(١٠) على عوض « الاقتصاد في ضوء الإسلام » ص ٩٤ .

إعادة البنك إلى هذا الرصيد ، ويكرر المرة بعد المرة الاقتراض منه ، والإعادة إليه ، ومن هنا تأتي الأرباح الضخمة للبنوك في النظام الرأسمالي . وهي بئس من كل مخاطرة مطمئنة إلى استرداد قروضها وفوائدها وهي بمعصم من كل خسارة (١١) .

هذه الوظيفة المصرفية ربوية ، وهي علاوة على هذا التحريم الشرعي ثبت للاقتصاديين أنها تلحق أضرارا جسيمة بالاقتصاد القومي ، فإن البنوك في استغلالها للودائع على هذا النحو ، إنما تخلق نقودا مصطنعة هي مايسمونه « بالائتمان التجاري » وهي في هذا الخلق تفتصب وظيفة الدولة المشروعة في خلق النقود بما يحفظ بها وبقا توازنها من مسؤوليات ، وكما قال الاقتصادي الأمريكي هنري سيمونز معلقا على الأزمة الاقتصادية العالمية التي خيمت على أكثر الدول سنة ١٩٣٠ وما يليها « لسنا نبالي إذا قلنا أن أكثر عامل في الأزمة الحاضرة هو النشاط المصرفي التجاري ، بما يصمد إليه من أسراف خبيث ، وتقدير مضموم في تهيئة وسائل التداول النقدي ، ولا نشك في أن البنوك بمعاونة الاحتكار سوف توالينا بأزمات أشد واقسى إذا لم تتدخل الدولة في الأمر واستعانت في حكمة ومسئولية وظيفتها في ضبط أداة التداول (١٢) » .

والثابت إذا بحكم الواقع المعاصر هو أن البنوك بالدور الذي تقسم به في إحلال الائتمان المصرفي محل العملة النقدية اعتمادا على رصيد الودائع التي لديها ، واطمئنانها إلى استمرار تدفقه ، تؤدي للمجتمع ندما في تيسير التعامل التجاري ، ولكنها في الوقت نفسه تلحق الضرر بالمجتمع الذي ينشأ من مصدرين الأول : ماتصيبه من اغتناء غير مشروع بسبب حصولها المحتوم على فوائدها المقررة على المقترضين واجتنابها المساهمة في مخاطر مشروعاتهم ، الثاني : ميلها في أوقات الركاب إلى التوسع في الاقتراض بفتح الاعتمادات التي تربو على رصيدها أضساعا مضاعفة ، وميلها في أوقات الركود إلى التضيق في الاقتراض والكف عنه خوفا من احتمالات الخسارة والعمل على استرداد قروضها ، وأرغام

(١١) محمد عبد الله العربي « الاقتصاد الإسلامي » ص ٢١٩ .

(١٢) محمد عبد الله العربي « المرجع السابق » ص ٢٢٠ .

المتراضين على السداد . فهذا البسط والتبسط الذي تتحكم فيه ارادة
القائمين على البنوك هو من أهم المبررات التي تهيئ السكبان الاقتصادي .
ويشعر الى نتائج الازمات (١١٢) .

فالبذخ في المجموعات الرأسمالية بتحويلها للمشروعات من طريق
أرسدة الودائع تستحدث نفعا ، وتستحدث ضررا في آن واحد ، والنظام
الاسلامي حريص كل الحرص على انتقاء الضرر ودفعه ، واجتلاب النفع
واستبقائه .

هذا من ناحية أما من الناحية الشرعية ، فالاسلام ينظر الى هذه
البائدة على أنها ربا . ومن مبادئه الأساسية تحريم الربا والفائدة ماكان
منها للاستهلاك ، وما كان منها للإنتاج . سواء أكان سعر الفائدة بسيطا
أم كبيرا وذلك صريح وواضح في قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اتقوا
الله وذروا ما بقى من الربا » (١٤) وقوله تعالى « وذلك بأنهم ثالوا إنما
يبيع مثل اليا ، وأحل الله البيع وحرم الربا » (١٥) وقوله أيضا وفيه
إبرهان الفائق والدلالة الصحيحة على تحريم الربا « وإن كنتم فلكم رؤوس
أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون » (١٦) أما ما يخرج به من قوله تعالى
« لا تأكلوا ربا اضعافا مضاعفا » (١٧) فالمقصود هنا فائدة الفائدة أي الربح
المركب ، وهو ضم الفوائد الى أصل الدين بحيث يصبح الكل بمثابة رأسمال
واحد منتجاً لفوائده القانونية أو الاتفاقية . ولقد أثبت علم المال الحالي
أن الدين بهذه الطريقة أي بطريقة فائدة الفائدة يتضاعف ، حتى أن المبلغ
الذي يفترض بفائدة ٥٪ يتضاعف الى مثله في مدة ١٤ سنة تقريبا ، وهذا
إذا كان سعر الفائدة ٥٪ ، ولكن إذا بلغ سعر الفائدة ١٠٪ أو ١٥٪
أو ٢٠٪ أو ٢٥٪ مثلا وهذا ما يحدث كثيرا ، فإن المبلغ يتضاعف في مدة
تدأ تقل عن ٥ سنوات أو تزيد قليلا (١٨) .

(١٣) المرجع السابق ص ٣٢١ .

(١٤) سورة البقرة آية ٢٧٨ .

(١٥) سورة البقرة آية ٢٧٥ .

(١٦) سورة البقرة آية ٢٧٩ .

(١٧) سورة آل عمران آية ١٣٠ .

(١٨) "شيد الكيف" . الاقتصاد في ضوء الاسلام ص ٥٩ .

هذا هو المقصود من قوله تعالى « أضعافاً مضاعفة » أي أضعافاً بالنسبة لقيمة رأس المال المقرض ، وذلك لأن الدين الإسلامي دين أبدي لم ينظر إلى شكل الفائدة ، وأقسامها وأنواعها على ما هي عليه في الماضي والحاضر فحسب ولكنه نظر أيضاً لما سيحدث في المستقبل وحرمتها بجميع أشكالها وأنواعها وأقسامها وقد حرم الإسلام الفائدة أو الربا لأسباب كثيرة سياسية واقتصادية وتعاونية واجتماعية وخلقية .

فنرى من الناحية السياسية أن الأجانب عندما بدأوا غزوهم الاقتصادي القائم على الفوائد الربوية والقروض ، كثيراً ما يكون الأساس الثابت للاحتلال والاستعمار . إذ أول ما فعله المستعمر خصوصاً في بلدان الشرق هو أنه اقترض الشرقيين بفوائد باهظة ، وما هي إلا سنوات قليلة حتى انتقلت الثروة وعوامل الإنتاج من زراعية وصناعية وتجارية من أيدي أهلها إلى أيدي المستعمر (١٩) .

أما من الناحية الاقتصادية ، فإن الفائدة تؤدي إلى تضخم الثروة . والإسلام يكره تضخم الثروة في جانب وعدم وجودها في الجانب الآخر وهذا صريح في قوله تعالى « كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » (٢٠) .

وهناك سبب آخر وهو حفظ التوازن بين رأس المال وبين العمل فلا يسمح لرأس المال أن يستبد وبأخذ أكثر مما يجب ، ولا يرضى أن يأخذ العمال أقل من نتائج عملهم . كما أن الفائدة سواء أكانت بسيطة أم مركبة تؤدي إلى إفلاس بعض التجار وخصوصاً الذين تصيبهم وقتاً ما ضائقة مالية . وإذا عمل بمبدأ الفائدة، فإنه يقتضي على التعاون ، وذلك لأنه يقتضي الإسلام الذي يحث على التعاون بين الناس .

أضف إلى ذلك أن الإسلام إذ يحرم الفائدة ، فإنه بتحريمه هذا يحاول أن يحفظ التوازن بين الجانب المادي ، والجانب الروحي بحيث لا يسمح لأي من الجانبين أن يطفئ على الآخر ، إلى جانب أن الفائدة تؤدي إلى استغلال ضوائق المجتمع ، وبيع المساعدات بمقابل ، سواء أكانت هذه

(١٩) المرجع السابق ، ص ٦٠ .

(٢٠) سورة الحشر آية ٧ .

انضوائق استيلاكية ام انتاجية . وبذلك تتمزق الانسانية ، ويصبح افرادها أشبه بحيوان الغراب ، الغنى يطمع فيفترس الفقير ، والفقير يحقد فيفترس الغنى ، ولكل سلاحه الذى يقتل به أخاه (٢١) .

وتد حاولت النظريات الرأسمالية التى وفدت على حضارتنا الاسلامية أن تجد لنفسها منفذا ، وأن تحلل كثيرا من نظمها حتى تأخذ بها الدول الإسلامية فتقول « أن التحديد تفرضه الحاجة الى التيسير » .

ولكن لا لأنه ليس فى نظام الفائدة أى تيسير ، وقد ارتفعت الشكوى فى الغرب من نظام الفسادة ، وهاجمه علماء متخصصون فى الفلسفة والاجتماع ، والانتحساد ولأرائهم وزن كبير ، وذلك فى البلاد الرأسمالية فضلا عن الجمهوريات الاشتراكية التى سبقت الى الغاء المعاملات بالفائدة .

وعلى أية حال ليست فى الرأسمالية ، ولا فى الاشتراكية أى فلسفة خاصة تفوق نظرة الاسلام الى الأمور الانسانية (٢٢) .

الى جانب انه من الكذب ، القول بأن نظام الفائدة يحمى المقرض البصير الضعيف من جبروت المقرض الفنى القادر ، فهذه مجرد دعاية يهودية تجوز على بعض الناس .

وفى ظل نظام الربا والفائدة يزداد العبء الملقى على كاهل المقرض بثلاثة عوامل رئيسية .

(أ) الضمان الذى يقدم ، فكلما قلت ثروته ، قل ضمانته ، وزاد سعر الفائدة الحقيقية .

(ب) حجم القرض ، فكلما قل حجم الدين أو المبلغ المتعاقد عليه زاد سعر الفائدة .

(ج) مدة القرض اذ الفائدة على القروض القصيرة الاجل ايسر من

(٢١) محمود شلتوت « الاسلام عقيدة وشريعة » ص ٢٧٣ .

(٢٢) عيسى عبده ابراهيم « وضع الربا فى بناء الاقتصاد القومى » محاضرة القاها فى الموسم الثقافى لجامعة الأزهر سنة ١٩٦٠ ، ص ١١٤ .

نظيرتها على الديون الطويلة الأجل هذا في حالات ، وفي حالات أخرى
ينعكس الوضع وتقل الفائدة إذا طالت مدة الترخّص . وفي هذا تفصيل في
الدراسة الاقتصادية لسوق رأس المال .

على أن سعر الفائدة يتأثر أيضا بندرة رأس المال ، بمعنى أنه كلما
اشتدت الندرة النسبية للمدخرات المتاحة للتوظيف ، ارتفع سعر الفائدة .

وفكرة الاسلام في تحريم الربا أبعد كثيرا مما ظن الذين افقوا بجوار
فائدة المودعات لدى البنوك وصناديق البريد وغيره من المنشآت : ففكرة
الاسلام تتلخص في أن نظام النقد بجميع صورته لا ينبغي أن يكون إلا للدولة ،
ومن ثم يكون سك النقود ، وإصدار العملة الورقية ، وخلق النقود
الحسابية بالائتمان مثلا ، ومن ثم تكون المصارف ، وهيئات تكوين رؤوس
الأموال كشركات التأمين وتوظيف المدخرات منشآت لا يجوز للفرد ولا
لشركة أن تملكها .

والفائدة الثابتة هي استمرار لسورة من صور الربا ، هي بقية من
بقايا سيطرة رأس المال ونهم الحياة ، ولم تحقق من الآثار الاقتصادية
إلا الفساد ، ذلك لأنها قرينة التحكم في رأس المال ، واتخاذ البطش
بالمجتمع (٢٢) .

أثر الربا على السلوك الإنساني وعلى المجتمع :

الربا يؤدي إلى انتشار الأمراض الأخلاقية بطريقة غير مباشرة ،
وذلك لأنها تؤدي إلى حبس ثروة المجتمع في أيدي قليلة مترفة ، الأمر الذي
يترتب عليه انتشار الدعارة ، وكثرة الجبر ، وشرب الخمر ووجود الحقد
والخسائن والاحن ، وغير ذلك من الأمراض الأخلاقية ، وسبب ذلك أن
هذه الطائفة تملك طاقة مالية كبيرة نتيجة التعامل بالربا .

وهناك أمراض اجتماعية أخرى مثل السرقة ، وضياع المروءة وغيرها
وغيرها مما يؤدي بنا إلى الهلاك تحقيقا لقوله تعالى « وإذا أردنا أن

(٢٢) محمود شلتوت « الاسلام عقيدة وشريعة » ص ٢٧٣ .

نيلك قرية امرنا متوفيهما ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا « (٢٤) .

والذى يعمل بهذا النظام « نظام الفائدة الربوية » عندما يقيم مشروعا من المشروعات لا يفكر الا فى المشروعات التى تكفل تغطية الفوائد الربوية وتكفل له أيضا فائضا من الربح ، والمشروعات التى تخدم الجنس ، والتى تقوم على إثارة الميل الى الترف وتلبينه وهى احدى المشروعات الى الربح (٢٥) .

ومن ثم يصبح من السياسة الثابتة لأصحاب المال « الصياغة ، وبيوت المال ومؤسسى البنوك ، وحملة السندات التأسيسية ومعظمهم من اليهود فى العالم ، كما يصبح من سياسة الكثيرين من أصحاب المشروعات الذين يقترضون من هذه المؤسسات بالربا أن ينشروا فى المجتمع الإنسانى حالة من الانهيار الخلقى ، ومن الترف ومن التفاهة ، تسمح بأن تروج فيه ، مشروعات الترفيه الجنى فى شتى صوره » (٢٦) .

وهكذا تصبح صناعة الافلام المستهتره ، والمحلات العامة التى تنتشر فيها الفساد ليلا ونهارا ، الى جانب الصحافة التى تدعو الى الفساد ، والرزيلة والتى تهتم بأمور الفن والفسق والفنانين ، وتجارة الرقيق ، والخمر والمخدرات ، كما تصبح صناعة ادوات الترف وما وراءها من تقاليد المجتمع المستهتر والحفلات والسهرات الى آخر مظاهر الانحلال والترف التى تقوم عليها مئات الصناعات فى العالم ، تصبح هذه كلها فى خدمة الرأسمالية ، ويكون لرأس المال فى هذه الانظمة القوة التوجيهية لأنه هو وحده الذى يتحكم فى المجتمعات اللادينية ، فليس المال هو الذى يفسد المجتمع ، وانما المنهج والمذهب والنظام والتصور الذى يحكم مجتمعا من المجتمعات .

(٢٤) سورة الاسراء آية ١٦ .

(٢٥) سيد قطب « الاسلام ومشكلات الحضارة » ص ١٠٠ .

(٢٦) المرجع السابق .

• الاحتكار كأثر من آثار الرأسمالية :

اساس الرأسمالية الاحتكار الذي نهى عنه الاسلام . في أكثر من موضع وذلك لان فيه اهدارا لحرية التجارة والصناعة . فالمحتكر لم ينح لكل الناس أن يصنع صنيعة . فهو يتفرد بسلطة ، ينحكم في السوق ، ويفرض مائشاً من الأسعار ويحدد الكمية المباعة ، ويقتل منافسيه ، فيكون سبباً في عدم تجويد السلع ومحو مبدأ تكافؤ الفرص بين الأفراد . ونكليف الناس فوق طاقتهم ، وقد يضطر المحتكر لكي يفرض السعر الذي يريد الى اعدام كميات كبيرة من السلع يحتاج اليها الناس ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الجالب مرزوق » والمحتكر ملعون « وقوله « من احتكر فهو خاطيء » وقوله عليه السلام « من احتكر طعاماً أربعين يوماً فقد برىء من الله وبرىء الله منه » فالاحتكار له اضرار جمه نطغى على بعض الفوائد التي يذكرها له بعض الاقتصاديين (٢٧) .

قال الله تعالى « ولا تأكلوا أموالكم بينكم ب ساطل وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون » (٢٨) .

الليبرالية التقدمية

الليبرالية لفظ له أكثر من مدلول في اللغات الأوربية ومن هنا كانت الصعوبة في وضع تعريف منطقي جامع يحدد مدلولها بدقة .

حتى اشتقاق كلمة ليبرالي نفسها اختلفوا فيها : هل هي مأخوذة من كلمة « ليبرني » التي معناها الحرية . أو من اصل إسباني .

وعلى أي حال فإن الليبرالية التي شاعت في بلادنا العربية هي الليبرالية الانجليزية وهي تركز على مفهوم التحرر من تدخل الدولة في تصرفات الأفراد . سواء أكان هذا في السلوك الشخصي للنسرد أم في حقوقه الطبيعية أم في نشاطه الاقتصادي « أخسذاً بمبدأ دمه يعمل

(٢٧) على عوض « الاقتصاد في ضوء الاسلام » ص ١٢٨ .

(٢٨) سورة البقرة آية ١٨٨ .

ودعه يمر « Laisse Faire - Laisse Passé (٢٩) والظاهر من تاريخ الليبرالية : أنها كانت رد فعل لتسلط الكنيسة والاقطاع في العصور الوسطى بأوروبا ، مما أدى الى انتفاضة الشعوب وثورة الجماهير ، وبخاصة الطبقة الوسطى والمناداة بالحرية والاخاء والمساواة كما وضع ذلك في الثورة الفرنسية .

والمعروف أن البلاد العربية الاسلامية قد تعرضت لموجات الاستعمار كما ذكرنا آنفا : لذلك بدأ هذا الاستعمار يتلاعب بمصائر هذه الشعوب ، ويختار حكماها أو يوجههم ، ويدير دفة الأمور .

ولهذا سار الحكم في هذه البلاد في الاتجاه الليبرالى الديمقراطى الراسمالي الغربى ، الذى يؤيده الاستعمار المتسلط ، كما تؤيده جمهرة المثقفين الذين تعلموا على يديه ، والذين رأوا أن هذا النظام الجديد يحمل معانى التقدم والحرية والتطور والتجدد ويقاوم الجهل والجمود ، والتخلف والاستبداد ، الذى اتسمت به عصور الانحطاط السابقة (٣٠)

ولم يتح لهم من العلم النافع ما يعرفون به حقيقة دينهم « الاسلام » الذى يؤمنون به اعتقادا ويجهلون شريعة ونظاما ، وفلسفة وحضارة ، كما لم يكون لديهم من دوافع الرغبة فى معرفته ما يجعلهم يطلبون العلم عند اهله العارفين به وقليل ما هم .

ومن أهم مظاهر هذه الحركة الليبرالية التقدمية فى بلادنا الاسلامية هو تشجيع الاقليمية والعنصرية ، والبعد بالمسلمين عن الوحدة والاتحاد ، وغرس روح الانفرادية . فأصبح المسدء بين الشعوب بعضها وبعض واضحا ، بل بين أبناء الوطن الواحد أكثر وضوحا .

وقد قرر القرآن الكريم والسنة الشريفة أن المسلمين امة واحدة « يسمى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم » ومن لم يصبح ناصحا — أى مخلصا بارا — لله ولرسوله ولائمة المسلمين وعامتهم فليس منهم »

(٢٩) موريس كرانستون « المصطلحات السياسية » ص ٤٦ .

(٣٠) يوسف القرضاوى « الحلول المستوردة » ص ٤٩ .

ولكن النزعة الوطنية والقومية جعلت المسلم يفكر في وطنه قبل عقيدته . ويقدم الكافر اذا كان من عنصره أو وطنه على المسلم من عنصر آخر أو في بلد آخر ، ويسمى هذا أجنيا ويعامله معاملة الأجانب (٢١) .

ومما هو معروف « أن الغرب يوم استضعف الأمة الإسلامية في أفريقيا وآسيا منذ القرن التاسع عشر ، وبدأ عصر الصناعة الحديثة دخل ديارها بجنوده واحتكر ثرواتها لمصالح مصانعه برؤوس أمواله . وسخر أنبائها في خدمة الاقتصاد الأوربي بنفوذته السياسي . ثم أرسى قواعد نظامه الإداري والسياسي وثبت نظامه الاقتصادي الرأسمالي . وطارد القيم الأصلية للمجتمع ، واستبدل بها النظام العلماني في التعليم ، ونظريات الفقه الأوربي في التشريع ، وقيم التبعية للغرب في التوجيه . ولقد وصل الوضع في كل مجتمع إسلامي أفريقي أو آسيوي استعمره الغرب الأوربي لمصالح صناعته ورؤوس أمواله إلى تمكين الأجانب من اغتصاب الثروة القومية بمساعدة القوة العسكرية وعلى الأخص مصادر الثروة المعدنية والأراضي الزراعية الجيدة والمرافق الحيوية العامة ، وتسخير المسلمين في تنمية رؤوس الأموال الأجنبية بدون مقابل أو مقابل أجور زهيدة ، واستنزاف الدخل القومي باحتكار التجارة الخارجية في المحاصيل الرئيسية والسلع المصنعة للاستهلاك الغربي . ورهن الأراضي والأموال المقارية بالفائدة المركبة وإقامة البنوك ليعسر الحوالات المالية وإعادة نقل رؤوس الأموال إلى الخارج من غنائم العائد الوغير لخدمة البناء الأوربي ، على حساب افتتار الشعوب الإسلامية من ثرواتها الخاصة ، وطاقات أبنائها البشرية ، وطالما أن عمليات التصدير والاستيراد تساعد على إنجاز البنوك ، فهي ثغرة واسعة لتهرب الأموال أو إعادة ماورد منها وأرباح البساق من ثمرتها وعائدها ، ولقد كان القطاع الاقتصادي في المجتمع الإسلامي المستعمر ، هو القطاع السري المغلق الذي لايدخله الوطنيون ، إلا لاداء خدمات محدودة ، وفي غالب الأحيان تكون خدمات إضافية ، والوطن في هذا القطاع كان الثروة والمجهود البشري

(١١) يوسف القرضاوي « الحلول المسنودة » ص ٦٣ .

نى العمل والعائد منه كان الفقر والمذلة على المواطنين « (٣٢) .

وقد كان لهذه الأفكار الليبرالية أثرها الهدام على الناحية الاجتماعية للشعوب الإسلامية فقد أصبح الأغنياء — نتيجة للتخلي عن الإسلام ودخول الأفكار والنظريات الغربية الى العالم الاسلامى — طبقة تتوارث الثرى والثروة . كما جعل من الفقراء طبقة تتوارث البؤس والشقاء ، أولئك كتب لهم ان يعيشوا فى حياة الترف ناعمين وهؤلاء كتب عليهم ان يعيشوا فى اكواخ الحرمان لاهثين ؛ وكان هذا الترف فى جانب الاقلية العاطلة ، والحرمان فى جانب الاكثرية العاملة ، نذيرا بانتهيار المجتمع واشرافه على هاوية الهلاك والدمار ، وصدق الله العظيم اذ يقول « واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسدوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » (٣٣) .

ولا عجب ان شاع شرب الخمر ، ولعب الميسر ، واصبح فى المجتمع الاسلامى حانات واندية يمارس فيها هذا الرجس من عمل الشيطان .

ولا غرابة كذلك اذا شاعت الفاحشة وانتشر وباء الزنى سرا وعلانية وصار فى بلاد الاسلام مراقص وكباريهات قائمة لتسهيل العبث والفجور ، وعملت المؤسسات المشبوهة المخربة عملها فى التهوين من فضيلة العفاف ، وفى التحريض على التحلل من عرا الأخلاق ، وفى تيسير كل السبل للشهوات والفرائز الحيوانية ، ولتخدمت كل الوسائل من الصورة والخبر ، والاغنية والقصص والتشيلية والزى المفزى والسهرات المختلطة .. الخ (٣٤) .

والحقيقة ان موضوع المرأة كان من أهم الموضوعات التى تأثر بها المجتمع الاسلامى امام الغزو الغربى . يقول « جان بول رو » فى كتابه « الاسلام فى الغرب » :

« ان التأثير الغربى الذى يظهر فى كل المجالات ويقلب ، رأسا على عقب ، المجتمع الاسلامى لا يبدو فى جلاء أفضل مما يبدو فى تحرر المرأة » .

(٣٢) محمد البهى « الاسلام فى الواقع الايديولوجى المعاصر » ص ١٧٠ — ١٧١ .

(٣٣) سورة الاسراء آية ١٦ .

(٣٤) يوسف القرضاوى « الحلول المستوردة » ص ٧١ .

والحقيقة التي لا بد من ذكرها أن النظريات التي سادت في المجتمعات الإنسانية في القرن التاسع عشر — والتي أثرت اليها آنفاً — مثل نظرية دارون وكارل ماركس وغيرهما إذا كانت قد أثرت على الإنسان ، وعقيدته ، فلا بد أنها قد أثرت كذلك في النظرة إلى المرأة وفي العلاقات بين الجنسين ، وعملت على تحطيم كل قوائم الأخلاق ، وأطلقت الجنسين في حيوانية مطلقة (٣٥) .

ولعل خروج المجتمع الغربي من سلطان الكنيسة كان له أثر كذلك في إطلاق العنان لهذه المبادئ الأخلاقية ، ولعمليات الاختلاط بين الجنسين ، والحركات المفرطة ، وما أدت إليه من انصراف إلى الجنس ، والتفكير على هذا الموضوع سواء بالنواحي الإعلامية من صحافة ، وإذاعة ، وتليفزيون ، سينما ، وقصص وروايات سوداء وفجائية . أو بإطلاق الحرية إلى أبعد الحدود حتى صار الفتى والفتاة حين ينطلقان مع شهوة الجسد ، لا يحسن أن منهما أنه قد أتى منكراً يحاسبه عليه أحد ، لا ضميره ، ولا المجتمع ولا الدولة والدين (٣٦) .

وهذه الأفكار اللغريبة « الليبرالية » التي طغت على المجتمع الإسلامي ، خاصة ، بليخص العلاقة بين الجنسين ، قد جعلت الإنسان ينزلق إلى الدرك الأسفل بانسانيته إلى أدنى المستويات . في حين أن الإسلام يعترف بالطاقة الجنسية من حيث المبدأ أصرح اعتراف يمكن أن تصبو إليه الإنسانية ، ولكنه لا يعترف بها ضرورة هابطة ، بل على العكس من ذلك يرفعها ويطهرها ، ويسلط عليها النور .

ويتصور الإسلام وجود علاقة بين الرجل والمرأة على أنه الشيء الطبيعي الذي ينبغي أن يكون ، فهو يقرر أن الله جعل في قلب كل منهما هوى للآخر وميلاً . يقول القرآن « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتستكوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة » (٣٧) ولكنه يذكرهما بأنهما يلتقيان لهدف حفظ النسل وتلك حقيقة لا أصبها موضوع

(٣٥) سيد قطب « الإسلام ومشكلات الحضارة » ص ٧٤ .

(٣٦) محمد قطب « الإنسان بين المادية والإسلام » ص ١٧٦ .

(٣٧) سورة الروم آية ٢١ .

جدال : فمن المسلم به لدى « العلم » أن للوظيفة الجنسية هدفا معلوما .
وليست هي هدفا في ذاتها . فقول القرآن « نساؤكم حرث لكم » (٢٨)
فيحدد بذلك هدف العلاقة بين الجنسين بتلك الصورة الموحية ، صورة
الأرض التي تحرث لوضع البذرة وتعهدها حتى تثبت ، وتأتي بثمره جديدة
من نفس النوع (٢٩) .

وبهذه الصورة الموحية يتبين رأي الاسلام منذ البدء فهو يرى ان
للشهوة هدفا محددا ، ولا يوافق على ان ارضاء الشهوة هو في ذاته الاول
والاخر .

آثار الحضارة المادية

على عقائد المسلمين

ان المشكلات التي واجهت المسلمين ، وواجهت حضارتهم لم تقف
عند حد مآذكرناه من ذبوع نظريات ، وافكار ومبادئ هدامة ، عملت على
هدم الانسان عن طريق هدم اخلاقه ، وعقيدته ، ومكره ، ومحاولة تحريك
شهواته وابعادته عن الدين .

ليس هذا فقط ، ولكن استكمالا لهذه السياسة المسادية البحتة ،
لقد عمل الغرب على تشجيع اناس خارجين عن الدين على ان يقوموا
بحركات تحمل اسم الدين — والدين منها براء — من اجل محاربة الاسلام ،
والتشكيك فيه ، والتهوين من امر العقيدة لدى الافراد .

ولذلك رايت استكمالا لهذا الموضوع الا اختتمه دون ان اعرض صورة
أو صورتين لهذه المساوئ والمشاكل التي صاغت الامة الاسلامية من فعل
القائير الغربي ، واختبرت لذلك حركتي القاديانية التي نشأت في الهند ،
والبهائية التي عمت العالم الاسلامي اجمع .

(٢٨) سورة البقرة آية ٢٢٣ .

(٢٩) محمد قطب ، المرجع السابق ص ١٩٤ .

١ — القاديانية :

نقتسب هذه الفرقة الى ميرزا غلام احمد القاديانى من قاديان باقليم البنجاب بالهند .

وترجع دعوة هذا الرجل الى التعاليم التى بثها من قبل فى هذا الاقليم السيد احمد خان بهادور الذى كان عميلا للانجليز هناك ، وعمل من قبل على تشجيع اقامتهم فى البلاد ، وتشجيع مخططاتهم من اجل القضاء على الاسلام والمسلمين بالهند ، وقد نادى هذا الرجل بدعوة تقديمية فى الهند — من اجل ارضاء الانجليز — فقال بأنه لاوجود الا للطبيعة ، وليس لهذا السكون اله حكيم ، وان جميع الانبياء كانوا طبيعيين لا يعتقدون بالاله الذى جاءت به الشرائع ، واخذ يغري انساء الاغنياء من الشهبان انطائشين (٤٠) .

فحركة احمد خان كانت تقوم على الافتتان بالعلم الطبيعى والحضارة الغربية المادية كما يفتتن فى عصرنا الحاضر بعض المفكرين بما يسمى «العلم» وبالمركبات الحضارية التى قامت عليه ، والافتتان بالعلم الطبيعى او بالطبيعة كما يقال يؤدى الى خفة وزن القيم الروحية والمثالية ، وهى القيم التى تقوم عليها رسالة الاديان السماوية التى ينادى بها الاسلام اوضح تمثيل (٤١) .

لذلك جاء غلام احمد بعد ذلك حاملا نفس مبادئ احمد خان ، وبدا يعمل هو الآخر لخدمة المادية الغربية ، والافكار الجديدة التقدمية التى ليس لها هدف الا هدم الاسلام .

ولكن غلام احمد حاول ان يتطور بدعوته عما قام به احمد خان من قبل ، وذكر ان عيسى عليه السلام بعد ان بعث من موته الظاهري هاجر الى كشمير فى الهند لينشر تعاليم الانجيل فى البلاد ، وأنه توفى بعد ان بلغ من العمر ١٢٠ سنة ، وان قبره لم يزل موجودا هناك ويدعى ميرزا

(٤٠) محمد البهى « الفكر الاسلامى الحديث » ص ٣٩ .

(٤١) محمد البهى ، المرجع السابق ص ٤١ .

غلام أحمد أنه « المهدي » ويذكر أنه حل فيه عيسى ومحمد علي السواء فهو نبي . ومع أنه لم يدع أنه عيسى بن مريم نفسه فقد ادعى أنه زميله في الرسالة (٤٢) وأعلن تدويمه برسالة جديدة . بعد أن خالف الأولين والآخرين في أن محمدا خاتم النبيين .

وقد ألغى النبي الهندي شريعة الجهاد في سبيل الله وشرائع أخرى كثيرة ، وذلك طبعا لحساب الاستعمار الانجليزي (٤٣) .

يقول الأستاذ المودودي :

« أول ما يميزهم عن المسلمين ويبعدهم عنهم هو ما جاعوا به من التفسير المبتدع « لختم النبوة » وقد خالفوا فيه تفسير جميع المسلمين المتفق عليه بينهم فما زال المسلمون يعتقدون منذ ثلاثة عشر قرنا ونصسف قرن ولا يزالون يعتقدون الى اليوم ان سيدنا النبي محمدا صلى الله عليه وسلم هو خاتم النبيين فلا نبي ولا رسول بعده الى يوم القيامة ، وذلك هو المعنى الذى فهمه الصحابة رضوان الله عليهم جميعا من قول الله عز وجل في كتابه الكريم « ما كان محمدا ابا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » (٤٤) ، وهم الذين قاتلوا كل من ادعى النبوة بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا هو المعنى الذى مازال المسلمون يفهمونه في جميع العصور المتعاقبة ، فلم يقبلوا من بين انفسهم رجلا ادعى النبوة أما القاديانيون فقد فسروا « خاتم النبيين » لأول مرة في تاريخ المسلمين بأن محمدا صلى الله عليه وسلم هو خاتم الانبياء اى « طابعهم » فكل نبي يظهر الآن بعده تكون نبوته مطبوعا عليها بخاتم تصديقه صلى الله عليه وسلم « ومن أقوالهم « قال المسيح الموعود عليه السلام في خاتم النبيين: أن المراد به أنه لا يمكن أن تصدق الآن نبوة اى نبي من الانبياء الا بخاتم « صلى الله عليه وسلم » وكما ان كل قرطاس لا يكون مصدقا مستندا الا

(٤٢) محمد الغزالي « دفاع عن العقيدة والشريعة » ص ٢٤٢ .

(٤٣) المرجع السابق .

(٤٤) سورة الأحزاب آية ٤٠ .

حين يطبع عليه بالخاتم فكذا كل نبوة لا تكون مطبوعا عليها بختمه
وتصديقه صلى الله عليه وسلم تكون غير صحيحة (٤٥) .

ومن أقوالهم « أن جميع المسلمين الذين لم يشتركوا في مبايعة
المسيح الموعود كافرون خارجون عن دائرة الاسلام ، ولو كانوا لم يسموا
باسم المسيح الموعود » (٤٦) .

يقول أبو الحسن الندوي « من كبار علماء الهند في كتيب له عنوانه
« القاديانية ثورة على النبوة المحمدية والاسلام » .

« قد تحقق علميا وتاريخيا أن القاديانية وليدة السياسة الإنجليزية .
فقد أهم بريطانيا وأطلقتها حركة المجاهد الشهير السيد الامام « أحمد بن
عرفان الشهيد » سنة ١٨٤١ م ، وكيف ألهم شعلة الجهاد والفداء ، وبث
روح النخوة الاسلامية والحماسة الدينية في صدور المسلمين في الربع
الأول من القرن التاسع عشر المسيحي وكيف ألهم حوله وحول زعامته
آلاف المسلمين عانت منهم الحكومة الإنجليزية في الهند مصاعب عظيمة ،
فكانوا موضع اهتمامها » .

وقال في موضع آخر :

« أن القاديانية تنشر في العالم الاسلامي الفوضى الفكرية ، وعدم
الثقة بمصادر الاسلام الصحيحة ومراجعه ولسنه ، وتقطع صلة هذه
الامة عن ماضيها وعن خير أيامها وأفضل رجالها ، وتفتح باب الادعساء
والمتطفلين على مصراعيه وتسيء الظن بقوة الاسلام ، وحيويته وانتساجه
وتثبيس المسلمين من مستقبلهم » (٤٧) .

ويرى الدكتور محمد اقبال « أن القاديانية محاولة منظمة لتأسيس
طائفة جديدة على أساس نبوة منافسة لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم » .

(٤٥) محمد الفزالي ، المرجع السابق ص ٢٤٣ نقسلا عن ملفوفات
أحمدية « بترتيب محمد منظور الهي القادياني » ص ٢٩٠ .
(٤٦) « ميرزا بشير الدين » مرآة الصدق ص ٢٥ .
(٤٧) محمد البهي « الفكر الاسلامي الحديث » ص ٤٥ - ٤٦ .

ويقول « ان كل مجتمع ينفصل عن الاسلام ، وله طابع دينى يقوم على اساس نبوة جديدة ، ويعلن كفر جميع المسلمين الذين لا يصدقون بهذه النبوة المزعومة يجب ان ينظر اليها المسلمون كخطر جدى على سلامة الاسلام (٤٨) .

ومن هذه الفرقة الخارجة عن الدين ، نرى كيف تمكن الانجليز من زعزعة العقيدة الاسلامية فى الهند ، وبث الفرقة بين المسلمين ، وتشكيكهم فى عقيدتهم ، واحلال نقائص الباطل ، محل مثل الحق .

البهائية

البابية او البهائية مذهب انتحله رجل يدعى مرزا على محمد ولد فى ٢٠ اكتوبر من سنة ١٨١٩ م ، كان ابوه تاجرا فى بلدة شيراز جنوب ايران ، توفى والده وهو صغير فكفله خاله ، وقد تعلم القراءة اللاتقة به الى سن الخامسة عشرة ثم اشتغل بالتجارة وتزوج فى سن الثانية والعشرين .

وفى سن الخامسة والعشرين ادعى انه هو « المهدي المنتظر » ، ويرجع ذلك الى ان بلاد فارس كانت كلها تلهج بقرب ظهور المهدي . لذا سمى نفسه « بالباب » وتبعه اناس كثيرون الى ان قامت حكومة ايران بقتله فى ٩ يولية سنة ١٨٥٠ م (٤٩) .

بعد مرور تسعة عشرة سنة من وفاة الباب ظهر رجل من انبأه والمؤمنين به يدعى مرزا حسين على ادعى : ان الباب ماكان الا مبشرا به ، وانه اى حسين على المذكور ليس نبيا ولا مهديا فقط ، بل هو مظهر الالوهية التى تجلت وظهرت فى جميع الانبياء والمرسلين مثل آدم وذريته وبوذا وغيره ، فهو موسى وعيسى ومحمد وسمى نفسه بهساء الله ، وان

(٤٨) محمد الغزالي ، المرجع السابق ص ٢٥٢ .

(٤٩) عبيد العزيز نصحي « البهائيون من اخطر المعاول لهدم

الاسلام » ص ٩ .

مظهره سيتجلى ويظهر في خلفائه مثل ابنه البكر عباس المسمى عبدالبهاء، وخليفة عباس وهو ابن بنته شوتى افندى (٥٠) .

وقد بذل الغرب جهدا مكثفا في مساندة البهائيين كي يعلو صوئهم وتتسع دائرتهم ، وذلك بمسد أن طردتهم حكومة ايران لما قاموا به من اعمال وحشية في البلاد ضد مخالفينهم . فقام الغرب بمساعدتهم على ان يتخذوا من مدينة عكا بفلسطين وطننا لهم ، فبذلك زرعوهم في داخل جسد الامة الاسلامية ، خاصة وان البهائيين يذكرون انهم مسلمون ، وبذلك يفتنون المسلمين ، ويشككونهم في حقيقة دينهم ومبادئه .

يذكر محمد فاضل عن مظالم البابيين مايلي (٥١) « لما استفحز امر الباب وعاشت بقلوب الناس دعوته ، وصار اتباعه يعدون بالآلاف ، وبات همهم الاكبر ان ينصروا هذا البهتان وينشروه في سائر ارجاء الفرس بدأوا تحقيق امانتهم هذه ، بأن اوقعوا الرعب والفزع في القلوب ، فسكانوا يطلعون بوسائل شتى من الحيل والدسائس على سرائر الناس وخبائياهم من كان يؤمن بالطعن في معتقداتهم ، لم يلبثوا ان يقتلوه ، وتفشى منهم التعدي والغدر حتى كانوا يتشكلون بأشكال متعددة كالسائلين ونحوهم ليتمكنوا من الفتك بمن ظنوا به أو توهوا فيه ان يشير بسوء الى ديانتهم فسفكوا بذلك دماء كثيرة ، ماجنت ذنبا ولا جريرة ، الا ان آمنت بالله ، وكفرت بالطاغوت ، فهم في هذا الدور من مظالمهم كانوا أشبه بالفداوية الذين اشتهر امرهم على عهد الفاطميين خلفاء مصر ، بل الفسداوية كانوا خيرا منهم واخف وطأة .

ثم ثاروا على الحكومة وجهسروا بدعوتهم على ملا من الاشهاد ، وزادوا فجورا على فجورهم ، وامتلاوا شرورا فوق شرورهم ، فسكانوا يمثلون بالناس تمثيلا فظيحا ، ويعذبونهم تعذيبا وخيما لايرحمون صغيرا لصغره ، ولا كبيرا لسكبره ، ولا امرأة لضعفها ، ولا جنينا في بطنها ، فمالكل سواء في نظرهم ماداموا لا يؤمنون ببابهم ، فكانوا يسلون الالسنه

(٥٠) المرجع السابق .

(٥١) محمد فاضل « الحراب في صدر البهاء والباب » ص ١٨٨ .

وبسملون العيون ويسلخون الجلود ، ويكونون الجسوم ويشوهون الوجوه ،
يقطعون الأيدي والأرجل من خلاف ، ويبترون ائداء المراضع ، ويشقون بطون
الحوامل ويتلقفون الاجنة على اطراف اسنة الى غير ذلك من ضروب التمثيل
وصنوف التعذيب .

ودين البهائيين ينحصر فيها يأتي :

١ — ان جميع الاديان هي من الله الذي ظهر في الانبياء كما تظهر
الشمس في المرآة ، وان جميع كتب هؤلاء الانبياء لم يعثروها تحريف
او تبديل ، انها بشرت به « اي بالبهاء » .

٢ — ان جميع الاديان اصبحت لا تصلح لاصلاح العالم الآن فيقتضى انزال
دين جديد يوافق هذا العصر ، عصر التقسيم المادي العظيم ، عصر
الاختراعات الجديدة ، ولذلك جاء « بهاء الله » هذا بدينه الجديد
الموافق لهذا العصر الجديد (٥٢) .

٣ — ان رسوم العبادات من صوم وصلاة اصبحت لا توافق الناس في هذا
العصر المادي ، فلتكن لهم صلاة ، وصيام آخران ، ثم غير نظام
السنة ، فجعلها تسعة عشر شهرا بدلا من اثني عشر شهرا ، وكل
شهر تسعة عشر يوما وسميها باسماء اخرى مثل شهر البهاء والجلال
والعظمة الى آخره ، وسمى ايام الاسبوع باسماء اخرى ايضا مثل
يوم النضال والعدال والاستجلال الى آخره (٥٣) .

ويزعم البهاء ان النقص في الدين الاسلامي ينحصر فيما يلي :

اولا : الدين الاسلامي يأمر بالحروب والدين البهائي يبطل الحروب ،
وهي دعوى كاذبة ، فان الدين الاسلامي دين السلام ، وابطال الحروب

(٥٢) عبد العزيز نصحي « البهائيون من اخطر المعاول لهدم
الاسلام » ص ١٠ .

(٥٣) المرجع السابق ،

الافى حالات الضرورة ، قال تعالى : « يا ايها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة » (٥٤) .

٢ — يقولون ان الدين البهائى يمتاز عن الدين الاسلامى بالدعوة الى عصبة امم وحكمة تحكم لمنع المشاحنات بين الدول ولتبع الحروب ، او محاربة الدولة الباغية لمقابلتها وارغامها على السلام ، فتقطع الحروب من العالم .

فهل هذه افكار جديدة على الاسلام ؟ وقد قال الله تعالى « وان طائفتان من المؤمنين اختلفتا فاصلاهما بينهما ، فان بغت احدهما على الاخرى ، فقاتلوا التى تبغى حتى تنفى الى امر الله » (٥٥) .

٣ — يقولون ان الدين البهائى ساوى بين الرجل والمرأة فى جميع الحقوق الشرعية والسياسية والميراث ، فى حين الدين الاسلامى نافى من هذه الوجهة .

كيف اذا يكون هذا الزعم البهائى ، فهو باطل كاذب لان الدين الاسلامى قد ساوى بين الرجل والمرأة فى جميع الحقوق المدنية والسياسية، واذا فرق فى شىء فلاختلاف طبيعة المرأة عن طبيعة الرجل (٥٦) .

٤ — ان الدين البهائى يريد ان يساوى بين الاغنياء والفقراء حتى لا يكون غنى مفرط او فقر مدقع .

اين اذا الجديد فى ذلك لان الدين الاسلامى هو الذى شرع التشريع العادل الذى لايبقى معه فقر مطلقا .

٥ — ابطال الشرع البهائى تجارة الرقيق ، وامر بعقسه ، ويقولون ان الدين الاسلامى اباحه .

(٥٤) سورة البقرة آية ٢٠٨ .

(٥٥) سورة الحجرات آية ٩ .

(٥٦) أنظر عبد العزيز نصحي « البهائيون » ص ١٦ .

(م ١٦ — الاستشراق)

والحقيقة أن هذا كذب لأن الدين الاسلامى هو اول من حدث على ابطال الرقيق ، وخفف وطأة الاسترقاق ، ورغب الناس فى ابطاله .

٦. — قول البهائيين ان العقوبات فى الدين الاسلامى لا يمكن تطبيقها فى هذا العصر ، عصر الرحمة والانسانية ، فلا يجوز قطع يد السارق او رجم الزانى ، ولذلك فان الدين البهائى قرر عقوبات مالية مثل هذه الذنوب (٥٧) .

٧. — يقول البهائيون : ان من ميزة دينهم جمع الناس على لغة واحدة ، وجعلهم كائناً طبقة واحدة ، ولكن الحقيقة ان الدين الاسلامى سبقهم فى ذلك ، حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليس منا من دعا الى عصبية » .

٨. — يقول البهائيون « ان العبادات فى الدين الاسلامى شاقة ومرهقة ، ولا هوادة فيها او يتيسر بخلاف الدين البهائى الذى فضل السعى وراء العيش والكسب على هذه العبادات المرهقة .

كيف والاسلام يقول « لا يكلف الله نفساً الا وسعها » (٥٨) .

وهن عقائد البهائيين :

يعتقد البهائيون بالتناسخ والحلول معا فيقولون ان الله حل فى البهاء ، وان روح البهاء انتقلت منه الى ابنه عبد البهاء ومنه الى ابن بنته شوقي ثم الى البهائيين يسكن الارض ، وله ان يزيد وينسخ فى الدين البهائى ما يشاء انه ولى الامر ، وهذه القاعدة اخذوها من المسيحيين الكاثوليك فى اعتقادهم ان الباب خليفة المسيح وله ان يزيد وينقص فى الدين المسيحى (٥٩) .

والبابية على اختلاف فرقها ضرب واحد ونسج غير مختلف ، اخذت اصولها عن الباطنية الذين منهم الاسماعيلية والقرامطة والدروز ،

(٥٧) المرجع السابق ص ١٨ .

(٥٨) عبد العزيز نصحي ، المرجع السابق ص ٢٣ .

(٥٩) المرجع السابق .

والنصيرية ، فهي تؤله البشر ونأسر بعبادتهم ، وتفكر البعث والنشور والوعد والوعيد والجنة والفار والملائكة والجن ومعجزات الأنبياء وتخصم وتؤول ذلك تأويلا تقبرا منه اللغة والدين كقولها ان احياء الموتى لعيسى عليه السلام لم يكن على الصورة المغمومة من احيائه العظام النخرة ، والرفات الباليات ، بل المراد احيائه النفوس من موت الجهل وبعثها من قبور الغي والضلال الى حظيرة المعرفة والهدى ونور الوحي والايمان، وان حصا موسى عليه السلام لم تكن كذلك على مايمتقده الناس من انقلابها حية تسعى ، بل هي عصي معنوية يراد بها الدين الذي بعث به موسى ليظهره ملى الدين كله (٦٠) .

وتقول البهائية يصلب المسيح وتسلم بالوحيته ، وتقرر انه البهاء وان القيامة قد قامت بظهوره ، وظهور الباب وتحكم بنبوة بوذا وكنفوشيوس وبرهمه وزرادشت .

وللبهائيين في مصر دعاة واتباع من فرقة المرزا عباس ينسبون للمؤمنين حياثل السكيد ويشككونهم في دينهم ، ويورون عليهم الشبهات ، ويخرقون لهم الاباطيل (٦١) .

ومن العجيب ان ينقاد المسلم لهذه الاباطيل ، ويؤمن بما لم تقم عليه بينة من البيئات ، وقد تركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بضاء نقية ليلا كنهارها . قال عليه السلام « تركت فيكم ما ان تمسكتم به لم تضلوا بعدى ، كتاب الله وسنتى » وتوله تعالى « ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر » فأولئك حبطت اعمالهم في الدنيا والآخرة . وأولئك اصحاب النار هم فيها خالدون « (٦٢) .

(٦٠) محمد فاضل « الحراب في صدر البهاء » ص ٢٠ .

(٦١) محمد فاضل ، المرجع السابق ص ٢١ .

(٦٢) سورة آل عمران آية ٢٢ .

ومن المؤكد أن الذين عملوا على نشر هذه العقائد الهدامة بين صفوف المسلمين هم الغربيون الماديون الذين حاولوا هدم الاسلام من طريق هدم مبادئه ، فاذا نظرنا في مبادئ البهائيين نجد انها جميعها تسقط فرائض الاسلام ، وما اكده الاسلام من حقائق .

وقد قام عبد البهاء وهو « عباس بن حسين المرزا » بزيارات لمختلف انحاء اوريا مجد فيها الاستعمار والصهيونية ، ونشر في صحف هذه البلدان اجابات عن أسئلة كثيرة وجهت اليه ، ومجدت هذه الصحف البهائية لانها تستهدف التقريب بين الشرق والغرب والعمل في سبيل أن يصبح العالم امة واحدة شعارها الحب والسلام ، فيطرب الغربيون وسواهم من عدو العرب والمسلمين ، لدعوة هذا الشرقي المسلم الكبير — كما يزعمون — ويكتبون عنه المقالات الحسان (١٣) .

وفي خلال رحلته هذه قام بزيارة أمريكا . يقول ميرزا محمد مهدي خان (١٤) « وقد كان سفره الى الاقطار الغربية بناء على دعوة الاحياء والقسوس والرؤساء الدينيين باصرار عظيم ، وحينما كان يخطب فيهم كان الجميع سواء من الاحياء والافيار يستمعون لخطبته بغاية الفرح والانبساط والانشراح ويتلقون دروسه الغالية بالقبول والولاء والانجذاب ولم يعترض منهم احد بل كانوا كلهم اذانا مصغية .

ومما يستحق الذكر أن احد الفلاسفة العظام المسدعو غامبرى ، قال يوما لحضرته « انى انا غامبرى لم يكن لى جراءة على ذكر المسيح في كنائس اليهود باحترام ، ولكن انت بهذه الشجاعة ، وهذه القوة اثبتت في معبد اليهود ان المسيح كان كلمة الله وروح الله » .

(٦٣) عبد الرحمن الوكيل « البهائية » ص ١١٥ .

(٦٤) ميرزا محمد مهدي خان « مفتاح باب الابهولاب » ص ٥ .

وبمثل هذه السياسة ، والمحبة عبر الأجانب عن محبتهم وتشجيعهم
لعبد البهاء الذى كان حليفا قويا لهم ، وقد ظهر هذا واضحا اثناء الحرب
العالمية الأولى : فقد كان عبد البهاء يدمر القوى المعنوية ، ويبشر بتسرب
النجاة والخلص — على يد الحلفاء — من طغيان الترك .

وعندما دق الجنرال اللنبي ابواب فلسطين بجيوش الحلفاء كان
عبد البهاء فى منتهى الفرح والسعادة ، وعندما سقطت حيفا عبرت البهائية
من فرحتها بقولها « وكان الابتهاج عظيما عندما استولت الجنود البريطانية
والهندية عليها » (٦٥) .

فمن ذلك نرى ان الغرب حاول تحطيم الاسلام بشتى الوسائل
والصور بالافكار الهدامة ، والنظريات العقائدية التى عملت على تحطيم
نفوس الشباب ، وضباعهم ، دينيا وفكريا ونفسيا . ذلك فاننا لا بد ان
ناخذ حذرنا من كل مانقرا وما نسمع وما نرى ، وأن نكون جنودا مسلمين
مهمتنا الدفاع عن ديننا الحنيف ، ومجتمعنا الاسلامى ، وحضارتنا الاسلامية
التي ستكون باذن الله شعلة مضيئة لن تنطفئ ، مادام كتاب الله حى
وكتابنا والاسلام ديننا .

ولا بد ان اختم هذا الموضوع ببعض محاولات للاصلاح عليها تجنبنا
الزلل ، وتحميننا من الافكار التى تدمى صفة التقدمية ، والتى تدعى صفة
التحرر ، فنحن فى غنى عن اى فكر مستورد لأن دين الاسلام دستور مكتمل
البنود والنصوص .

آراء تلامذات :

١ — التمسك بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

٢ — تدريب الأفراد على السلوك الدينى والتربية الصحيحة التى ترفع المستوى النفسى والاجتماعى للفرد وتحوله الى صاحب مبادئ ومثل عيلا يعيش لها ويضحى من أجلها .

٣ — ان يصحب برامج التعليم برامج للتربية الاسلامية لتشرف على السلوك الفردى والجماعى ، وتجعل الحياة الخاصة والعامة محكومة بأداب الاسلام وتوجيهاته .

٤ — تدريس الوظائف التربوية للبيت المسلم حتى نستطيع تخريج اجيال تعرف ربها ودينها ومعاشها ، ومعادها على قواعد مدروسة مفروسة فى الدم .

٥ — الربط ما بين البيت المسلم وقضايا المجتمع الكبرى حتى لا يحيا بيت فى جو منافعه الخاصة جاهلا او جاحدا ما وراءها ، ولو ان كل دولة مسلمة انشأت وزارة للأسرة والشباب لضمنت هذا الارتباط .

٦ — ابطال العادات التى أخذ بها المسلمون فى تقاليد الزواج من مغالاة فى المهور واسراف فى الحفلات العامة وتكديس للأثاث وتنافس فى الكماليات ، واعادة الزواج الى معناه السهل القديم ليكون عصمة وسياجا للدين والدنيا .

٧ — توثيق الصلة بين المرأة وينابيع الثقافة الدينية والمدنية .

٨ — اعادة الحياة للعلاقة بين النساء وبيوت الله فى الصلوات .

هذه بعض محاولات الإصلاح التى لا تتأتى الا بعقد خلق مجتمع اسلامى بمعنى الكلمة لان الكتيب والخطب وافلام الدعاية والبعثات التبشيرية الاسلامية ، لن تفلح فى الدعاية للاسلام بدون وجود مجتمع يعيش على نهج الاسلام وتتمثل فيه خصائص هذا النهج ، وتقتثل فيه صورة الحياة فى الاسلام .

ان كيفية قيام المجتمع الاسلامى لايتأتى الا اذا ارتفعنا بتصوراتنا .
وافكارنا وأخلاقنا وسلوكنا وواقعنا الحضارى الى مستوى الاسلام . كما
يجب ان تبدأ الشعوب الاسلامية نهضة صحيحة تكون امتدادا لتاريخنا
وابرازا لشخصيتها ، ولا يعنى هذا عدم الاستفادة من تجارب الآخرين
ومعارفهم ، كلا ، فبالاستفادة والاتصال والتجارب العملية مطلوبة فننتفع
بتراث التقدم الصناعى . وننتفع من خبرات غيرنا فى آفاق الحياة العامة .
وفى إطار صلب من شرائعنا وشمائرننا .

والله من وراء القصد وهو ولى التوفيق .

د. عفاف صبرة

قائمة المصادر والمراجع

- ١ — إبراهيم خليل أحمد « المستشرقون والمبشرون في العالم الإسلامي »
القاهرة سنة ١٩٦١ م .
- ٢ — إبراهيم عبد المجيد اللبان « المستشرقون والإسلام »
القاهرة سنة ١٩٧٠ م .
- ٣ — ابن الأثير « على أحمد بن أبي السكرم » ت ٦٣٠ هـ .
« الكامل في التاريخ »
- ٤ — ابن حزم « أبو محمد علي بن أحمد » ت سنة ٤٥٦ هـ .
« جمهرة أنساب العرب » تحقيق ليفي بروفنسال
القاهرة سنة ١٩٦٨ م .
- ٥ — ابن عبد البر « الحافظ يوسف بن عبد البر » ت سنة ٤٦٣ هـ .
« الدرر في اختصار المغازي والسير » تحقيق شوقي ضيف
القاهرة سنة ١٩٦٦ م .
- ٦ — ابن القيم الجوزية « أبو عبد الله محمد بن أبي بكر » سنة ٧٥١ هـ .
« الطرق الحكيمة في السياسة الشرعية »
- ٧ — ابن كثير الدمشقي « عماد الدين أبو الفداء » ت ٧٧٤ هـ .
« البداية والنهاية »
- ٨ — ابن ماجه « السنن » تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي
القاهرة سنة ١٩٥٢ م .
- ٩ — ابن هشام « أبي محمد عبد الملك بن هشام » ت سنة ٣١٣ هـ .
« السيرة النبوية » تحقيق فهمي السرجاني
القاهرة سنة ١٩٧٨ م .
- ١٠ — أبو داود السجستاني « سنن أبي داود » تحقيق محمد محسن الدين
القاهرة سنة ١٩٣٥ م .
- ١١ — أبو يوسف « القاضي أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم » ت سنة
١٨٢ هـ . « كتاب الخراج » تحقيق تقي الخطيب
القاهرة سنة ١٣٩٧ هـ .
- ١٢ — أحمد زكي « الرق في الإسلام »
- ١٣ — أحمد شلبي « مقارنة الأديان »
القاهرة سنة ١٨٩٢ م .
القاهرة سنة ١٩٧٣ م .

- ١٤ — أحمد غلوش « الخير والحياة »
القاهرة سنة ١٩٥٣ م .
- ١٥ — أحمد فائق رثد « السكواكب الدرية في تاريخ ظهور البشايه
والبهائية » تأليف العلامة ميرزا عبيد المحسن آواره
القاهرة سنة ١٩٢٤ م .
- ١٦ — أرنيست رينان « دين الاسلام والعلم » تعريب على يوسف
القاهرة د.ت
- ١٧ — الباشي الحلبي « الاسلام » مجموعة اساتذة د.ت .
- ١٨ — البخاري « محمد بن اسماعيل البخاري » ت ٢٥٦ هـ .
« صحيح البخاري بشرح الكرمانى »
القاهرة سنة ١٩٣٨ م .
- ١٩ — البيهقي « أبى بكر أحمد بن الحسين » « السنن الكبرى »
حيدر آباد سنة ١٣٤٤ هـ .
- ٢٠ — أولري « الفكر العربى ومكانه فى التاريخ » ترجمة تلم حسان
وآخرون
القاهرة د.ت .
- ٢١ — توفيق سبيع « قيم حضارية فى القرآن الكريم »
القاهرة سنة ١٩٧٢ م .
- ٢٢ — توماس ارنولد « الدعوة الى الاسلام » تعريب حسن ابراهيم
حسن
القاهرة سنة ١٩٧٠ م .
- ٢٣ — جمال الدين الفندى « قصة السكون »
القاهرة ١٩٥٦ م .
- ٢٤ — جوستاف لوبون « حضارة العرب » ترجمة عادل زعيتر
القاهرة سنة ١٩٥٦ م .
- ٢٥ — حسين الداغستاني « كتاب كشف الظلمه عن معتقدات البشايه »
القاهرة سنة ١٣٢٤ هـ .
- ٢٦ — حسين الهراوى « المستشرقون والاسلام »
القاهرة سنة ١٩٦٨ م .
- ٢٧ — رضوان شافعى « التوفيق العلمى بين الحضارة والاسلام »
القاهرة سنة ١٩٢٥ م .
- ٢٨ — زكريا هاشم « المستشرقون والاسلام » المجلس الاعلى للشئون
الاسلامية
سنة ١٩٦٥ م .
- ٢٩ — سارتون جو رج « مقدمه لعلم التاريخ »
مترجم .

- ٣٠ — سارتون جورج « العلم القديم والمدنية الحديثة » ترجمة عبدالحميد صبره
القاهرة سنة ١٩٦٠ م .
- ٣١ — سيد احمد « الاقتصاد في ضوء الاسلام »
القاهرة سنة ١٩٥١ م
- ٣٢ — سيد قطب « الاسلام ومشكلات الحضارة »
القاهرة د.ت
- ٣٣ — سيد قطب « في ظلال القرآن »
القاهرة ١٩٧٨ م .
- ٣٤ — الشاطبي ابي القاسم ابراهيم بن موسى اللخمي ت ٧٩٠ هـ
« الموافقات » ج ٢ — القاهرة د.ت
- ٣٥ — صلاح الدين المنجد « المجتمع الاسلامي »
بيروت سنة ١٩٦٩ م .
- ٣٦ — صلاح الدين المنجد « المنتقى من دراسات المستشرقين »
القاهرة سنة ١٩٥٥ م .
- ٣٧ — الطبراني « الاوسط »
- ٣٨ — الطبري « ابو جعفر محمد بن جرير » ت سنة ٣١٠ هـ .
« تاريخ الامم والملوك »
القاهرة سنة ١٩٦٣ م .
- ٣٩ — عائشة عبد الرحمن « المرأة المسلمة بين امس واليوم » سلسلة
الاسلام « نشر البابي الحلبي » د.ت
- ٤٠ — عباس العقاد « عقائد المفكرين »
القاهرة سنة ١٩٦٠ م .
- ٤١ — عباس العقاد « ما يقال عن الاسلام »
القاهرة سنة ١٩٦٦ م .
- ٤٢ — عباس العقاد « حقائق الاسلام وابطايل خصومه »
القاهرة سنة ١٩٦٥ م .
- ٤٣ — عبدالجليل شلبي « الاسلام والمستشرقون »
القاهرة سنة ١٩٧٧ م
- ٤٤ — عبد الرحمن الوكيل « البهائية »
القاهرة سنة ١٩٣١ م .
- ٤٥ — عبدالرزاق نوفل « الاسلام والعلم الحديث »
القاهرة سنة ١٩٥٨ م
- ٤٦ — عبد العزيز اسماعيل « الاسلام والطب الحديث »
القاهرة سنة ١٩٤٥ م .
- ٤٧ — عبد العزيز نصحي « البهائيون من خطر المعاول لهدم الاسلام »
القاهرة د.ت
- ٤٨ — عبد الفتاح الديدي « فلسفة هيجل »
القاهرة سنة ١٩٧٠ م .

- ٤٩ — عبد الكريم الخطيب « الاسلام فى مواجهة الماديين والملحدين »
— القاهرة سنة ١٩٧٣ م .
- ٥٠ — عبد الوهاب عزام « الاسلام والعلم » — سلسلة الاسلام ، نشر
البسبى الحلبي . د.ت
- ٥١ — عفيف طباره « روح الدين الاسلامى »
القاهرة سنة ١٩٦٠ م .
- ٥٢ — على عبد الواحد وافى « نظام الأسرة فى الاسلام » سلسلة الاسلام
نشر البسبى الحلبي . د.ت
- ٥٣ — على عبد الواحد وافى « حقوق الانسان فى الاسلام »
القاهرة د.ت
- ٥٤ — على عوض « الاقتصاد فى ضوء الاسلام »
القاهرة سنة ١٩٥١ م
- ٥٥ — عيسى عبده « وضع الريا فى ينساء الاقتصاد القومى » محاضرات
الموسم الثقافى جامعة الأزهر ١٩٦٠ م .
- ٥٦ — فؤاد شبل « الدستور السوفيتى » .
القاهرة سنة ١٩٦٠ م .
- ٥٧ — فيليب حتى « تاريخ العرب » .
مترجم — القاهرة سنة ١٩٤٨ م .
- ٥٨ — لين بول « العرب فى اسبانيا » .
ترجمة على الجارم .
القاهرة سنة ١٩٤٤ م .
- ٥٩ — الماوردى « أبو الحسن على بن محمد » ت سنة ٤٥٠ هـ .
« الأحكام السلطانية »
القاهرة سنة ١٩٧٨ م .
- ٦٠ — مجمع البحوث الإسلامية « البسبية أو البهائية » — الأزهر
سنة ١٣٨٩ هـ .
- ٦١ — محاضرات الموسم الثقافى لجامعة الأزهر سنة ١٩٦٠ م .
- ٦٢ — محمد أبو زهره « الاسلام عقيدة وشرعية » سلسلة الاسلام .
نشر البسبى الحلبي . د.ت .
- ٦٣ — محمد أحمد باشميل « الاسلام ونظرية دارون »
بيروت سنة ١٩٦٨ م .
- ٦٤ — محمد البهى « الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار »
القاهرة سنة ١٩٧٥ م .
- ٦٥ — محمد البهى « تهافت الفكر المادى التاريخى »
القاهرة سنة ١٩٧٥ م
- ٦ — محمد البهى « الاسلام فى الواقع الابدولوجى المعاصر » .
القاهرة سنة ١٩٧٥ م .

- ٦٧ — محمد الفسوقي « الإسلام والمستشرقون » .
القاهرة سنة ١٩٧٢ م .
- ٦٨ — محمد المدني « المجتمع الإسلامي كما تنظمه سورة النساء »
القاهرة سنة ١٩٦٢ م .
- ٦٩ — محمد معروف الدواليبي « الإسلام أمام الرأسمالية والماركسية »
القاهرة سنة ١٩٦٤ م .
- ٧٠ — محمد عبد الله العربي « الاقتصاد الإسلامي » — سلسلة
محاضرات الموسم الثقافي لجامعة الأزهر سنة ١٩٦١ م .
- ٧١ — محمد علي « مولانا » « الإسلام والنظام الجديد »
بيروت سنة ١٩٤٦ م .
- ٧٢ — محمد الفزالي « الإسلام والأوضاع الاقتصادية »
القاهرة سنة ١٩٥٢ م .
- ٧٣ — محمد الفزالي « الإسلام المفقود عليه أمام الرأسمالية والاشتراكية »
القاهرة سنة ١٩٥٣ م .
- ٧٤ — محمد الفزالي « تذاذب الحق »
القاهرة سنة ١٩٧٥ م .
- ٧٥ — محمد الفزالي « دفاع عن العقيدة والشريعة »
القاهرة سنة ١٩٦١ م .
- ٧٦ — محمد غلاب « الإسلام من خلال مبادئه الأساسية »
القاهرة سنة ١٩٦١ م .
- ٧٧ — محمد غلاب « نظرات استشرافية » .
القاهرة سنة ١٩٦٤ م .
- ٧٨ — محمد فاضل « الحراب في صدر الباب والبهاء »
القاهرة سنة ١٣٢٩ هـ .
- ٧٩ — محمد فريد وجدي « دائرة معارف القرن العشرين » :
المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم
- ٨٠ — محمد فؤاد عبد الباقي « المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم »
القاهرة سنة ١٩٣٨ م .
- ٨١ — محمد قطب « الإنسان بين المسادية والإسلام »
القاهرة سنة ١٩٧٨ م .
- ٨٢ — محمد لبيب البوهي « الوجودية والإسلام »
القاهرة سنة ١٩٦٠ م .
- ٨٣ — محمود فيليب « الطب والأطباء »
القاهرة سنة ١٩٧٠ م .

- ٨٤ — محمود شلقوت « الاسلام عقيدة وشريعة »
القاهرة سنة ١٩٧٧م
- ٨٥ — محمود النواوي ، **خفاجي** « بين الشيوعية والاسلام »
القاهرة سنة ١٩٦٠ م .
- ٨٦ — محيي الدين الالواني « الاسلام وتطورات المعالم » — القاهرة
سنة ١٩٥١ م .
- ٨٧ — مصطفى خالدى وآخر « التبشير والاستعمار »
بيروت سنة ١٩٧٠م
- ٨٨ — مصطفى السباعي « من روائع حضارتنا »
القاهرة سنة ١٩٥٨م
- ٨٩ — مصطفى السباعي « اشتراكية الاسلام »
القاهرة سنة ١٩٦٢م
- ٩٠ — مصطفى قبيب « التكسيات عند العرب »
القاهرة سنة ١٩٦٨ م .
- ٩١ — منير البعلبكي « دفاع عن الاسلام » .
تأليف فانجليرى لورافيشيا
بيروت سنة ١٩٦٨ م .
- ٩٢ — مودودي « ابو الاعلى » « الاسلام في مواجهة التحديات »
السكويت سنة ١٩٧١ م .
- ٩٣ — موريس كرانستون « المصطلحات السياسية » .
مترجم .
- ٩٤ — ميرزا بشير الدين « مرآة الصديق » .
القاهرة د . ت
- ٩٥ — ميرزا محمد مهدي خان « مفتاح باب الابواب »
القاهرة سنة ١٣٢١ هـ .
- ٩٦ — نجيب العقيلي « المستشرقون »
القاهرة سنة ١٩٦٤ م .
- ٩٧ — نديم القيسر « قصة الايمان » — القاهرة د . ت
- ٩٨ — يوسف القرضاوى « الحلول المستوردة »
بيروت سنة ١٩٧١ م .
- ٩٩ — يوسف القرضاوى ، وآخرون « الاسلام بين شبهات المضالين »
الازهر سنة ١٩٦٠ م .

المراجع الأجنبية

- 1) — A. Carlet
The Herows and Hevows Warship.
London 1939.
- 2) — A. Guillumc.
The Legacy of Israel.
London 1953
- 3) — Finlay.
History of the Byzantine empire.
Oxford. 1877.
- 4) — Garriss on.
The marh af faith.
N.Y. 1967.
- 5) — Holm yard.
Chemistry to the time of Dalton.
London 1919.
- 6) — Iles Lictenstadter.
Islam modern age.
London 1963.
- 7) — Jessup H.H
Fifty three years in syria. 2. Vols
London 1910.
- 8) — M. Hart.
The loo A Ran king of the most mfiuntial persons in
history.
London 1978
- 9) — Moore.
A History of chemistry.
London. 1929.
- 10) — Roland. Oliver.
A short history of Africa
London 1958.
- 11) — Runciman.
A history of the crusades.
London 1957.

فهرس الموضوعات

٦ — ٣	مقدمة
٣٦ — ٧	الفصل الأول : التطور التاريخى لنشأة حركة الاستشراف
٤٧ — ٣٧	الفصل الثانى : الاستشراف والتبشير
٦٢ — ٤٩	الفصل الثالث : الاسلام وموقف المستشرقين منه
٧١ — ٦٣	هجوم المستشرقين على الاسلام
٧٤ — ٧١	موقف المستشرقين من السنة النبوية
٨٠ — ٧٤	الفقه الاسلامى والمستشرقون
٩٠ — ٨٠	المستشرقون وانتشار الاسلام
٩٧ — ٩١	الاسلام والتجديد
	الفصل الرابع : المستشرقون والنظم الاسلامية
١٠٨ — ١٠١	المستشرقون ونظم الحكم فى الاسلام
١٢٠ — ١٠٩	المستشرقين والنظم الاقتصادية فى الاسلام
١٥٣ — ١٢١	المستشرقون والنظم الاجتماعية فى الاسلام
١٦٢ — ١٥٦	الفصل الخامس : الاسلام والعلوم الحديثة
١٦٣ — ١٦٢	علم الجغرافيا الطبيعية
١٦٧ — ١٦٤	الاسلام وعلم الفلك
١٦٨ — ١٦٧	الاسلام وعلم النبات والحيوان
١٧٤ — ١٦٩	الاسلام وعلم الطب
١٧٦ — ١٧٤	الاسلام وعلم الكيمياء
	الفصل السادس : الاسلام ومشكلات الحضارة والمسندية
١٨٨ — ١٧٢	الحديثية
١٩٦ — ١٨٨	نظرية دارون -
١٩٨ — ١٩٦	نظرية فرويد وأثرها على الحضارة الانسانية
٢٠٢ — ١٩٨	ذبوع نظرية هيغل
٢٠٤ — ٢٠٢	الوجودية وأثرها على الحضارة الاسلامية
٢١٦ — ٢٠٤	الماركسية الشيوعية كمسكلة من مشكلات الحضارة
٢٢٩ — ٢١٧	الرأسمالية وأثرها على الحضارة الاسلامية
٢٣٤ — ٢٢٩	الليبرالية التقدمية
	آثار الحضارة المادية على عقائد المسلمين
٢٣٨ — ٢٣٥	القاديانية
٢٤٥ — ٢٣٨	البهائية
٢٤٧ — ٢٤٥	آراء للاصلاح

To: www.al-mostafa.com